عُمان عبر التاريخ

تأليف

الفقيه الفاضل الشيخ

سالم بن حمود بن شامس السيابي

الجزء الرابع

الطبعة الرابعة
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م



مؤلف الكتـــاب

الإمام سيف بن سلطان ينظم الجيوش

كانت للإمام سيف بن سلطان همم عالية ، وكان له نشاط ملموس ، رأى أن الجهاد يحتاج الى استعداد بسلاح الوقت ، وكانت الخيل كما وصفها الله عز وجل قوة المسلمين ، وعدة الأئمة فأقبل سيف بن سلطان على جلبها من جميع النواحى ، وأنفق عليها الأموال الطائلة ، فاجتمع له أمر ليس بهين ، فكان جملة الفحول منها ستة وتسعون ألف حصان ، دخل بها أرض الهند ، فاجتاح ساحلها .

وإن جيشا يكون جملة الخيل فيه هذا العدد إنه لعظيم لم يبلغنا فى تاريخ الدول التى قرأنا تواريخها ، حتى لم يجتمع هذا المبلغ لنبى الله سليمان بن داود عليه السلام ، فإن لهذه الخيل ركابا ولها سواس ولها بوارج تحمل طعامها ، فكم يتصور العاقل طعام هذه الخيل كل يوم ، وقد ساح هذا الجيش العمانى برجاله الأبطال ، وصناديده الأقيال ، حتى لم يقف إلا فى أفريقيا كما ذكره المؤرخون إلا الإفرنج المطلعون ، الذين لا يحبون إشاعة هذه الأشياء للعرب على الخصوص ، وللمسلمين على العموم ، بل شأنهم يصغرون أهمية غيرهم من المسلمين وبالخصوص العرب .

الجيش البرى بعمان

يحتار العاقل اذا وجه نظره الى الأحوال اليعربية ، ولا يقدر أن يتصور الحقائق كما هى ، فإن اليعاربة بعد استقرار أمر عمان فى داخليتها ، اندفع اليعاربة على العالم الخارجى كالبحر يطمو على كل جهة ، لقد ملأ الإمام سيف بن سلطان مراكز عمان رجالا من صناديد الرجال ، وأبطالا أقامهم على بقية الأعمال ، ويفتكر الإنسان من أين هؤلاء الرجال ، وأين تربوا وهم بين الشيخ والقيصوم والضال ، أصبحوا يديرون أمور الأمة على أحسن نظام ، فهم فى عمان فى أعمالها عالمون ، وهم للجيوش فى الخارج قائدون ، وهم لفل الكفر مطاردون ، وفى أسرع وقت هم للمجد بانون ، فالقلاع برجال عمان مملوءة : والثغور بهم من العدو محفوظة ، والممالك الأخرى من رجال الأساطيل مرتاعة •

والعلم اليعربى العمانى على الكل خفاق ، واسم عمان جمال القرى والبلدان وأيام عمان زهراء نيرة ، وطالع العدل والإنصاف على ربوعها مشرق وقاده حيث البحر اذا زمجر وهاج ، رأى على هامته علم عمان كالتاج ، واذا زخر وماج ، سال على ظهره الذهب الوهاج ، واذا تلاطم وزمجر لأى بسيل على متنه الدم الأحمر ، هى عمان الحرة التى عرفها التاريخ منذ عهدها الأول ، الذى لم يزده الاسلام إلا إكبارا ، لو أهل عمان أتيت ما سبوك ولا ضربوك ، إنها القلعة الكبرى التى تنظر إليها الأعين بالإعجاب ، وإنها نجمة الفجر فى الندى ، والشهاب الثاقب فى أيام العدل بين الشعوب •

الجيش البحرى العمانى

لقد جارى الإمام سيف بن سلطان العصر ، فنظم جيشا بحريا لا تزال بوارجه تمخر عباب البحر ، وتخوض مياهه يرف عليها العلم العمانى الأبيض ، الذى تحسبه قمر السماء يخفق على الخليج العربى ، وعلى البحر العربى حتى ينتهى برأس الرجاء الصالح فى عهد الإمام سلطان بن سيف ، قيد الأرض رحمهما الله .

وكانت مشاهير الأساطيل فى هذا العهد أولها كعب رأس أضخمها حجما ، وثانيها الفلك ، وثلثها الملك بسكون الدم ، وكان الملك مسلحا بثمانين مدفعا ، ومن هـذه المدافع ومن عددها يتصور العاقل عظم هذه البارجة الحربيـة ، ورابعها الناصرى ، وخامسها الوافى ، وسادسها نزوى ، وسابعها منح ، وثامنها بهلى ، وتاسعها سـمائل ، وعاشرهـا الرستاق ، وبعضها لها أسماء أخرى وألقاب فخمة ، ذكرهـا صاحب حياة الشرق .

فهذه البوارج بعضها كان غنمه العمانيون من البرتغال ، وبعضها من الأمم التى اصطلمها العمانيون ، وبعضها أهدتها الدول للإمام تحببا اليه وخوفا منه ، وجلبا لصداقته ، وفى التاريخ العمانى : كانت ثمانية وعشرين مركبا حربيا ، أى هذه التى تمخر عباب البحر ، عليها الرجال والمدافع لا غير .

أما السفن فأكثر من مائة سفينة ، قال : فى حياة الشرق ، فعدت دولة عمان فى هذا العهد الدولة الرابعة من دول البحار بعد صلاح الدين الأيوبى ، فكان العلم العمانى هو النجم الشرقى الذى يسير عليه الناس فى هذه الآونة ، فانظر أيها العاقل فى عمان بعهدهـا النبهانى ، وقابله بعهدها اليعربى ، وعمان هى لا غير ، وهكذا ومازال يخطب ود الإمام

القريب والبعيد خوفا ورهبا ، وفى قصيدة الشاعر المنتفقى محمد بن صالح البصرى يقول مشيرا الى الأساطيل التى ذكرناها :

وانشد مراكبه التى صدمت مر
اكبهم وأهدتها بنادق حاميه
الملك ثم الفلك ثم الناصرى
مع كعب راس كالجبال الراسيه
كم أخرقت كم أغرقت كم أحرقت
من بريشة حزبية أو باغيه
كم غادرت جثث الكلاب مجافة
أو جيفة فى البحر تذهب طافيه
الفرس سلهم حين فروا بعد ما
نظروا فوارسهم أتتهم عانيه

الى أن قال :

آها على تلك الرئاسة والسيا
سة والفراسة والخصال الزاكيه

ومنها :

فسل النصارى ما رأوا فى بحرهم
والبر من تلك الجنود الغاشيه

لقد رأى النصارى من الإمام سيف بن سلطان ما ساءهم ، وللرحمانى ماليس لغيره من القوة ، وهو الذى بقى فى يد أحمد بن سعيد البوسعيدى وارث العرش اليعربى ، وهو الذى دخل به الجيش العمانى البصرة فى أيام الإمام أحمد بن سعيد ، إذ كان مسلحا بالألماس الثمين ، فقطع السلاسل التى أغلق بها مدخل البصرة وكذلك الصالحى غير بعيد عنه .

الإمام سيف بن سلطان يقبل على عمران عمان

لا يخفى أن صدر الإمام سيف بن سلطان كان واسع النطاق الى حـد بعيد ، فإنه والحـال كما عرفت عنه أقبل على عمران عمان من نواح عديدة .

منها أنه أقبل على خدمة أفلاج بعمان ما كان لها وجود ، أو كان لها شبه وجود ، فخدمها فأصبحت قرى طيبة يعيش فيها مئات من الناس ، بل آلاف كفلج البركة الذى بين نزوى وأزكى ، فصارت البركة من أبهج بلاد عمان .

ومنها فلج الصائغى الذى بالرستاق ، فأدخله فى حوش الحصن كما هو الواقع الحالى .

ومنها فلج البزيلى بالظاهرة من أعظم أفلاجها .

ومنها فلج الكوثر الذى هو فلج الحزم من ناحية الرستاق الموجود حاليـا .

ومنها فلج برزمان من ناحية البدو من داخلية عمان .

ومنها فلج مسفاة وادى السحتن .

ومنها فلج مسفاة وادى الرستاق .

ومنها فلج الهوب ، ومنها أفلاج جعلان التى فى بلاد بنى بو حسن ، والفلج المعروف حتى الآن بفلج سوق الإمام بقى أطلال البنـاء حتى الآن ، ويقال إن جملة الأفلاج التى أجرها هـذا الإمام المذكور بعمان سبعة عشر فلجا هذه التى ذكرناها وغيرها .

قال الإمام رحمه الله ، نقلا عن بن رزيق وغيره • إنه غرس فى عمان أى فى الداخلية ، وفى ناحية بركا من الباطنة من المبسلى وهو نوع خاص من نخل عمان ، يطبخ بسره فى حال عقاد قبل أن يصـير رطبا يطبخ ، بالنار فى مراجل معدودة ، ثم يجفف فى الشمس قدر أسبوع ، ثم يساق الى الهند فيباع بأثمان وافرة •

غرس الإمام سيف من هذا النوع فى بركا ثلاثين ألف نخلة ، ومن النارجيل وهو المعروف بالجوز الهندى ستة آلاف نارجيلة • قال : ولـه غير ذلك أموال فى المصنعة من الباضة لا تحصى قال : وعمر عمان كثيرا ، أى ساعد الأهالى وفى بعضها اشترك معهم ، ومن هذا النوع « حمرا » العبريين ومنه السليف وأمكنة أخرى •

قال الإمام : وأجرى فيها الأنهار وغرس فيها الأشجار ، قال : وجمع مالا جما ، وملك إماء وعبيدا • قال : وقويت عمان وصارت خير دار • قال الإمام : قيل وكان شديد الحرص على جمع المـال ، وقال : فى موضع آخر : وملك من الإماء والعبيد سبعمائة وألفا •

قال : وغرس بالجبل الأخضر أشجارا من الورس والزعفران ، وجلب من سواحل أفريقيا ذباب النحل ، ولا يزال منذ ذلك العهد موجودا بالجبل الأخضر •

قال بن رزيق بعد أن ذكر أعمال الإمام سيف بن سلطان قال : وغرس ببئر النشاوة والروصة والمنذرية نخلا كثيرا وهذه آبار معروفة عندهم ، قال : واشترى أموال بنى لمك ، وأموال بنى عدى من وادى السحتن وقول أمير البيان : كان يملك ثلث نخل عمان ، غـير بعيد بالنظر الى بيت المـال الذى تحت يد الإمام ، فإنه ما كان يملك شيئا لنفسه ، فجمع ما اشتراه وما غرسه وما اجتلبه لبيت المـال ، فإن نزوى ثلثها بيت مال ،

وثلثها أوقاف ، وكذلك بهلى وأزكى وسمائل ، ونخل والرستاق والعوابى وبلدان الظاهرة أغلبها بيت مال الإمامة إلا ما شاء الله .

والأفلاج التى أحدثها الإمام كالبركة وكذلك بدبد كلها بيت مال ، فبالنظر الى هذه الأحوال لا يبعد ما يقال ، وكان المـــال مع الإمـــام محظوظا مصونا غير مضاع ، فقد روى أن بدويا جاء يسأل الإمام شيئا من المـــال فلم يلتفت إليه أو لم يعطه ، فقال البدوى : كنا نأتى والدك ونسأله فيعطينا ، فقال : « أبى سلطان وأما أنا سيف » .

والمعنى الظاهر أن أبى سلطان والسلاطين من صفاتها العطاء ، وأما أنا سيف وصفات السيوف قطع الرقاب ، وكأن الإمام لم يرد أن يعطيه فيتخذها عادة ، وهو سوى قوى ، بل أراده أن يحترف لنفسه ويترك السؤال والطلب ، مع ما فيهما من مهانة وذل ، ثم إنه لا يروى غليلا ، ومن عاش على السؤال عاش جائعا ، وبحفظ الإمام للأموال ألبس الدولة قوة ، ووضع لها فى قلوب الناس هيبة ، وكيف لا وتلك الجيوش الجرارة التى عرفت لها ودوخت العالم فى أيامها ، وقضت على المزاعم مطلقا ومحت رسوم الاختصاصات وقطعت شأفة الفساد .

سلاح الدولة اليعربية

لمـا كان عهد الإمام سيف بن سلطان ، وعهد أبيه قبله وولده سلطان الثانى ، كان سلاح الدول الذى له الشأن فى الوقت الحالى المدافع التى ترسل إليها الطلقة من فوهتها ، فتلقى فيها كيـاس البارد ، ثم يلقى الرصاص المصبوب من الحديد ، ثم ترسل النار على البارود من ثقب يكون له اتصال عاجل به ، فتثور ناره المزعجة ، وهكذا •

فجلب الأئمـة اليعاربة من هذا السلاح شيئا كثيرا زودوا منـه الحصون والقلاع والبروج ومرصد القتال ، وجعلوا أهمه على حصون البحر وهى البوارج المحيطة بالجزيرة من شتى الجهات ، ويكفى برهانا على ما قلنا ما بقى من ذلك السلاح على عهدنا منه ما دفن تحت الأنقاض بعد ما تبدل الوضع ، منه ما انفتق عند إطلاقه حين يخالف القياس ، ومنه ما بقى فى القلاع حتى الآن تذكارا لذلك العهد ، ومنه ما هو مكتوب عليه سيف بن سلطان ، ومنه ما هو مكتوب عليه قيد الأرض ، ومنـه ما هو مكتوب عليه أسماء ملوك آخرين كعباس خديوى مصر ، وهـذا يوجد فى حصن بدبد ، ولعله أهدى للإمام من ملك مصر المذكور •

ويكفى تذكارا من هـذا النوع ما بقى فى حصن الحزم ، وقلعة الرستاق ، وهذه الأسلحة التى ذكرناها كانت موجودة بعمـان بكثرة ، وهى أكبر دليل على القوة العمانية ، وقد علمت أن الملك كان يحمل ثمانين مدفعا فما ظنك بغيره • إن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء ، والحمد لله •

الإمام سلطان بن سيف بن سلطان

وهو المعروف بسلطان الثانى ، قال أمير البيان فى تعليقه : نقل هذا كرسى الملكة الى مدينة الحزم ، أى جعل الحزم عاصمته ، قال ابن رزيق : بنى حصن الحزم وانتقل من الرستاق إليه أ هـ •

ولما كان لكل نفس أمل ، ولكل انسان عمل ، ولكل قلب هوى ، وقد علمت ما كان لآبائه وأعمالهم ، وهواية كل واحد منهم ، آما سلطان الأول فهوايته رفع شأن نزوى وإعلاء قدرها ، وكانت رغبة بلعرب ابن سلطان التوسع فى واحة جبرين حين توسع نطاق الدولة ، ورآها تزدلف إليه لا محالة ، وأن جبرين أوسع من نزوى لا سيما لمثل تلك الأيام الزهراء المشرقة ، وكانت همة أخيه سيف بن سلطان فى تنظيم الجيوش برية وبحرية ، كما مر عليك ذلك أيها القارىء الكريم •

وكانت رغبة ولده سلطان فى موقع واحة الحزم ، إذ رأى أن الرستاق لا تصلح أن تجعل عاصمة ، إذ هى مكتظة بالجبال ومزدحمة بالسكان ، ورأى الحزم أرضا مكشوفة تتصل بسهل الباطنة ، فتتسع لكل ما يرام فيها من مناخ ومساكن وغيرها مما يقتضيه الوقت ، فقام ببناء الحصن فيها ، وأنفق فيه أموالا طائلة ، وجعله آية الدهر وروعة الفكر فى ضخامة أركانه ، ومتانة جدرانه ، وقوة حيطانه ، من رآه من خارج لا يستكبره ، ومن رآه من داخل يحتار فيه فكره ، ويندهش فى صفته وتصوره ، واذا أراد الواصف أن يصفه أذهلته عظمته ، ولن يهتدى لدخوله غريب أبدا ، ولو أخذ مدة فإن فيه آبارا تعلن خطر الداخل بغير دليل •

قال الإمام السالمى رحمه الله : وبنى حصن الحزم بالجص والحجر ، قال وانتقل لبنائه من الرستاق ،وأنفق فيه أى فى بنائه مما ورثه من المال من أبيه ، وقد علمت الأموال التى جمعها أبوه ، قال : واقترض كثيرا من أموال المساجد والوقوفات ألوفا ولكوكا ، قال : ووجدت أن جملة ما اقترض من أموال الأوقف خمسمائة فراسلة فضة •

قلت : هذا أمر عظيم يدل على يسر عظيم ، فإن خمسمائة فراسة فضة بعرفنا الحالى عن خمسة وعشرين بهارا فضة من خصوص الأوقاف ، وهذا يفوق المليارات ، فما ظنك ببقية الأموال •

ودخله الشيخ سليمان باشا البارونى رحمه الله ، فقال : ما كنت أظن تبنيه أو قال تبنى مثله إلا ملوك أوربا ، ويحتار العاقل فى إدخال تلك المدافع التى فيه بأى وسيلة أدخلت فيه ، مـع أن ناقلات العصر لا توجد فى ذلك العصر •

عقد البيعة للإمام سلطان بن سيف

لا يخفى أن إمامة سلطان بن سيف كما هى بطبيعة الحال تبع لإمامة أبيه سيف ، ولما مات الإمام سيف لم تبعد أهلية الإمامة عن ولده لوفور متطلبات الإمامة فى هذه الذرية التى بارك الله فيها ، وجعلها حجة فى عباده ، وهدى ورشادا فى بلاده ، لما قضى الله على الإمام سيف ، وأعلام الإمامة ترف على الأصقاع النائية عن عمان ، وجيوش الدولة سائحة فى البلاد ، اجتمع العلماء الأجلاء فى ذلك العهد ، وهم المشايخ : عدى بن سليمان ، والشيخ خلف بن محمد بن خميس ، والشيخ سليمان ابن محمد بن ربيعة المربوعى ، والشيخ سعيد بن على الذى أطلق عليه اسم الوالى ، والشيخ ناصر خميس ، والشيخ خلف بن سنان ، والشيخ ناصر بن سليمان بن مداد ، ومعهم بقايا من أهل العلم والفضل ، لأن أمر الإمامة كبير ، ومنصبها خطير فى جميع الأمور •

قال الإمام : وكلهم ثقات فقهاء فى هذا الزمان فيما قيل ، وكان الإمام يحكى هذا الكلام عن الناقل ، قال : وأناس من أهل الغشب أى مع المذكورين أناس من أخيار الغشب بلدة من الرستاق ، مسمون وغير مسمين ، أى منهم مذكور باسمه ومنهم غير مذكور ، قال : وكذا أهل الرستاق مع كثير من المشايخ اليعاربة ، قال : وبلغنى أنهم استتابوه أى استتابوا سلطان المذكور ، لأنهم يعدون عليه أشياء من أعمال أبيه قيد الأرض الذى دخل فى الأمر من غير وجهه ، قال : وهو يحكى القضية نقلا عن غيره ، قال : وفى هذا الكتاب الذى أرسل الينا أن المسلمين رضوا به وأذعنوا له بالسمع والطاعة على شروط شرطوها ، وعهود

عليه أخذوها منه ألا يتقدم على أمر قليل ولا جليل ، إلا برأى المسلمين مع أشياء يطول ذكرها •

قلت : ليتهم ذكروها لأن التاريخ يطلبها • وقال العبد الفقير سعيد ابن بشير الصبحى قد ألزمت نفسى ولاية هذا الإمام ، وطاعته مع ما صح معى وصحت حجته على يد المسلمين ، وصحت عقدته وهو سلطان بن سيف بن سلطان ، قال : وعندى — والله أعلم — أن إمامته فى ظاهر الأمر أوجب من إمامة أبيه ، لأن المسلمين دخلوها • قال : وحكم التقية زال عنهم فيما بلغنى • قال : وعندى أن طاعته واجبة على جميع الرعية ، وولايته لازمة جميع من صـــح معه صحـــة إمامته ، كان من رعيته أو من غيرها • قال : وقد قيل لى فى حصن المسلمين بنزوى ، بحضرة المشايخ ناصر بن خميس ، وناصر بن سليمان ، وسليمان بن محمد ، ودرويش بن جمعة وغيرهم من المسلمين ، ما تقول فى هذا الأمر ؟ فكان جوابى : إنى قد ألزمت نفسى ولايته وطاعته ، ودعوت إليها من أجابنى ، قال : وقد افترقنا على أمر واضح نهار سابع ، عشية تاسع ، وبكرة اثنى عشر من شهر رمضان •

قال الإمام : يعنى أنه حصل لهم النظر فى هذا الأمر ثلاثة مجالس ، قال : وقـــد اتفقنا على إمامته بلا كراهية ولا تقية من الجميع ، قال : وهذا يقتضى جواز الدخول ، وتنفيذ الأحكام مـــع الأخـــذ والعطا ، وجميع أمور المسلمين بعد التحديد منه وفيه وقبله فيه اختلاف لمن جاز له الدخول ، قبل ، قال : وكتب سالم بن عبد الله من إملاء الشيخ سعيد ابن بشـــير الصبحى •

قلت : كان هذا الشيخ من رجال العلم إذ ذاك ، وفى مقدمتهم ، وكان أول الكلام عنه يقول الإمام ، وكتب العلامـــة الصبحى لبعض

إخوانه إن سيف بن سلطان صح معنا موته ، ثم صح معنا تقديم المسلمين ابنه سلطان إماما لكافة المسلمين ، تلقفت صحة ذلك من الفقيه ناصر بن خميس ، وخلف بن سنان رحمهما الله ، وكأن هذا الشيخ لم يكن مع الحاضرين للعقد ، وإنما كان يسكن قرية بنى صح التى هى الآن من أعمال الحمراء ، ولكن بعد ذلك دخل فى الأمر ، وتحقق الحق ، وما كان يعد على هـذا الإمام من أول الأمر ، إلا دخوله فيما دخل فيه أبوه ، وأمر أبيه كان فيه ما فيه مما ذكره المسلمون ، ولما أرادوا منه توبته تاب وقبلوا منه ذلك ، ولم يعدوا عليه شيئا فيما بعد ، والله يعلم المصلح من المفسد ، والله يتولى من عباده الصالحين .

الإمام سلطان يتحفز لجهاد الأعداء

لما رأى العجم تقلص ظل البرتغال من الخليج ، تحركوا للبحرين ، فاحتلوها ، ولما رأى الإمام العجم يرومون أن يحلوا محل البرتغال فى بلاد العرب ، وهم لهم بعمان سوابق شر ، جهز لهم الإمام جيشا بقيادة الشيخ حمير بن سيف بن ماجد ، وعضده برجال من أهل عمان الذين تعودوا الحروب ، فزحف الجيش على البحرين ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين ، فاندقت العصا الفارسية بالصخر العمانى فكسرها ، وفر العجم من البحرين ، وتوالت عليها الولاة العمانيون الى أن كان آخرهم سيف بن ناصر بن محمد الغافرى الذى بنى حصن العينين من خراج البحرين كما سوف ترى ذلك فى محله إن شاء الله •

وقد أشار الإمام السالمى رحمه الله الى ذلك بقوله ، نقلا عن ابن رزيق وسرحان بن سعيد قال : ثم إن الإمام قام واستقام وجاهد الأعداء فى البر والبحر ، وحارب العجم فى مواضع شتى ، وأخرجهم من بلدانهم ودمرهم فى أوطانهم ، وأخذ البحرين والقسم ولاك وهرموز ، أى اجتاح هذه الأماكن حيث هى على خط الساحل فى الخليج العربى ، وكانت هرموز فتحها الشاه عباس وطرد البرتغاليين منها فاستلمها الإمام منهم ، ثم سحب على الباقى واجتاحه ، ولم يقف له معارض أبدا ، ومازال الساحل الإيرانى على الخليج العربى بأيدى العمانيين الى عهد قريب ، سوف نذكره إن شاء الله •

والى قضية البحرين التى يترنم بها شاعرنا الحبسى فى قوله :

ألا فانظروا كيف الأعاجم صـــاروا
غــدوا شـــجرات مالهن قـــرار

طغوا وبغوا فى الأرض حتى أصابهم
عقـــاب أليم مهـــلك ودمـــــار

ومشى فيها الحبسى المذكور الى أن قال فى آخرها :

وقـــد صارت البحرين فى ملك ســـيد
كريم زكى فرع لـــــه ونجـــــار

سلالة سيف نجل سلطاننا الذى
لنـــا أمنت ســـوج بـــه وقفـــار

وقد قتل فى وقعتها قائد السرية المذكور ، وراشد بن عزيز ، ومبارك ابن غريب ، ومحمد المضد الحضرمى الذين هم أركان الجيش العمانى فى هذه الحرب البحرينية الفارسية ، فرف العلم العمانى الأبيض البراق ، الذى يضاحك السلاح الأبيض ، والوجوه البيض ، والعمائم البيضاء ، وكان البطل الحضرمى ممن يقدم على العدد الوفير فى الجيش ، والى هؤلاء يشير الشاعر بقوله :

وما ضرنا من غـــير مـــوت كرامنا
لأنهم عـــــدل بهـــــا وخيـــار

كحمير الزاكى بن سيف بن ماجد
فى بعده النـــوم اللـــذيذ مطار

ونجـــل عزيز راشـــد ومبـــارك
ســـليل غريب هم هـــديت ذمـــار

ولم أنس ذاك الحضرمى محمــدا
فمــوتته للمســـــلمين خســـــــار

شجاع كفاح لم يقاومــه ضيغم
وعضب وغى لم ينب منه غرار

ومن هنا تعلم مقام الدولة اليعربية وقوتها ، حيث أصبحت بلاد العرب على البحر الأحمر تحت رايتها ، والخليج العربى كذلك ، والساحل الهندى كذلك ، والجزائر الأفريقية أكثرها . فأكبر بعمان فى ذلك العهد وأعظم بتلك الدولة اليعربية .

وقد أقبل سلطان الإمام على عمران عمان مطلقا ، وحسبنا هنــا ما قوله فيه الإمام السالمى رحمه الله حيث يقول : وهم أن يجعل عمان كجنتى مأرب ، وهو الذى يقول لأن أعاشنى الله لأجعلن المسافر للحج يخرج من عمان بلا زاد ، يعنى سيعمر البلاد العربية التى يمر فيهــا الحاج من عمان الى مكة ، لأن البحر الأحمر معهم والى البحرين كذلك ، ولم يبق إلا اليسير فى ذلك العهد ، وهذه كانت نيته لو أراد الله لأهل عمان خيرا لأطال عمر تلك الدولة ، ولكن أمر الله محتوم من الأزل ، ولله أمر هو بالغه وحكم هــو نافذه .

قال رحمه الله : وتوفى بحصن الحزم الذى بناه للعزة والمنعة ، فكان من قدر الله أن صار موضعا لوفاته ، ومحلا لجثته بعد مماته ، قال فدفن فيه فى البرج الغربى النعشى ، قال : وهــذا الحصن غاية فى التشييد ، وهو من عجائب الدنيا ، قال ذكر لى بعض الأصحاب أنه ألف فيه أى فى وصفه وفى بنائه كتاب نظما ونثرا ، فالنظم قصيدة ميمية ، والنثر شرحها ، ولم أقف على هذا الكتاب .

قلت : وقفت عليه أنا أيام الصغر عند مشايخ بنى خروص أهل سمائل ، وقرأت بعضا منه ، ولم يتح لى القدر نسخه ونسخت منه القصيدة بطولها لتبقى عندى تذكارا ، وعندما حاولت كتابة هذا التاريخ لم يساعد الحظ على الوقوف على هذا الكتاب ، وكان فيه تاريخ هذا الإمام العادل البطل وهذا مطلع القصيدة المشار إليها :

لقصر بكر العلى والمجد والكرم
قصر نشا فى مقر العز بالحزم

هذا البيت الوحيد فى ذاكرتى منذ أكثر من خمسين سنة ، وبهذا يضيع التراث العمانى ويتلاشى التاريخ ، وكان فى هذا الكتاب من أعمال اليعاربة شىء غير هين ، ولكن ماذا نقول ، ولا حول ولا قوة إلا بالله أن عدم نشر الكتب بالطبع يمحق المآثر ، ويدمر الأعمال ويخفى أفعال الرجال ، وأقول بحق إن كل واحد من أئمة اليعاربة له تاريخ مستقل ، إلا أن عدم الاهتمام بذلك أضاع الحقائق ، والذى كتبه عنهم المتأخرون هو لقط ما تبعثر هنا وهناك ، وبعضه تلاعب به النساخ ، وبعضه قضى عليه الأعداء والأمر لله .

قال الإمام : وتوفى أى الإمام سلطان بحصن الحزم الذى بناه للعزة والمنعة ، فكان من قدر الله أن صار موضعا لوفاته ومحلا لجثته بعد مماته فدفن فيه فى البرج الغربى النعشى . قال : وهذا الحصن غاية فى التشييد الى آخر ما سبق من الكلام فيه ، قال : وكانت وفاة الإمام سلطان يوم الأربعاء لخمس ليال خلون من جمادى الآخرة سنة ١١٣١ إحدى وثلاثين ومائة وألف ، قال : وكانت إمامته سبع سنين وتسعة أشهر ، قال : وبموته انتقص الشر بعمان ، وجرت فيهم العصبية والحمية ، قال : وأرادته الرؤساء أن تجعل الدولة ميراثا .

قلت : هذا هو غالب أحوال الأمة جاهلية واسلاميا ، اذا استمر الأمر فى قوم عضوا عليه بالنواجذ ، ورأوا أنهم أحق بالأمر من غيرهم ، ولم ينظروا الى أصل الأمر ، وأنه الصلاح والعـدل وهكذا ، ويرى أن الذى كان الأمر الى أبيه أو الى قريبه ، كان أسرع انقيادا اليـه ولذلك يميلون اليه ، وإن كان مفضولا من الناحية الدينية ، إلا أن انقياد الناس اليه أسرع ولقبول أمره أطوع •

إمامة الإمام مهنا بن سلطان

ابن ماجد بن مبارك بن بلعرب اليعربى كان هذا الإمام المهنا بن سلطان عالى المنزلة فى العائلة اليعربية ، مرموق المقام فى الأمة العمانية ، ولذلك تزوج بنت الإمام سيف أخت الإمام سلطان الراحل ، قال أمير البيان : مات سلطان تاركاً ولدين ، أحدهما اسمه سيف وكان يافعاً والآخر ، مهنا وكان بالغا رشيدا ، فانقسم الناس فى أمر الخلف ، إذ بعضهم أرادوا سيف إماماً والآخرون اعترضوا من جهة حداثة سنه ، وأرادوا مهنا ، وكان هوى العامة مع سيف ، وهوى الخاصة والعلماء مع المهنا ، وكان لذلك العهد رجل عظيم الوجاهة نافذ القول اسمه الشيخ عدى بن سليمان الذهلى ، فتدخل فى الأمر فى أثناء الفتنة ، فنادى بسيف إماما ولكنه كان بفتح الهمزة أى أمامكم بمعنى قدامكم ، والعامة لا تفرق بين معنيى الفتح والكسر .

قال : وسكن بذلك العامة ريثما انقطعت تلك الهيعة فأدخلوا مهنا القلعة سرا ، وجعلوه إماماً سنة ١١٣١ الموافق سنة ١٧١٨ والمعنى أن العامة وهم طغام الناس وغوغاؤهم ، وهم البلاء العام فى الاسلام ، وكانت سياسة الشيخ الفقيه عدى بن سليمان ، وهو الركن الأكبر فى هذه الحركة السيئة ولو أنه تناول الأكابر وفاكرهم فى هدوء واطمئنان ، وبين لهم الحقائق وأرضاهم من ناحية الدنيا التى يطلبونها حتى تستقر قواعد الأمن على قرارها ، وبعد ما يرى اليد قد قويت يستدرج القوم زرافات ووحدانا ، ولكن ما قدر لابد من كونه ، ولقد انتفخ أهل الكبر والبطر فركبوا ظهر الشقاق غير مبالين ، وكل غرضهم من هذا أن تكون لهم بذلك عند سيف بن سلطان يد يتسلطون بها على عباد الله ، وإلا فما

بالهم يعارضون العلماء ، وقد علموا أن الإمامة لا تقوم إلا على محور العلماء ، ومن هنا ينبعث الشر ، ويقوم فى الأمة الأمر المضر ، ولقد أراد الله أن يمحص المؤمنين الذين ابتلاهم بأمر الدين .

قال أمير البيان : وكان مهنا على جانب عظيم من الحذق والمهارة وطول الباع فى الإدارة ، فإنه بدأ يجعل مسقط مرفأ حرا بأن أسقط المكوس وسائر ما يؤخذ على البضائع مما زاد حركة الأخذ والعطا ، قال : وبشر بمستقبل عظيم إلا أنه افتلت بأمر لم يكن يفطن له ، وهو أن أهالى الرستاق ونفس عشـيرته قامـوا يطلبون الإمامة ليعرب بن بلعرب ، ورفعوا لواء العصيان ، وزحفوا الى مسقط ودخلوها ، وقعد الآخرون عن نصرة مهنا . قال : فاعتصم بقلعة الرستاق ، ومعنى هذا أنهم احتلوا مسقط وتولوا أمرها ، وهو بالرستاق لم يجد من يناصره فيقوم معه ، وبعد ذلك زحفوا على الرستاق مصممين على قهره وانتزاع البلاد من يده راضيا أو كارها ، وماذا كان جرمه أظن كونهم أدخلوه قلعة نزوى على حين غفلة من الناس ، وبايعوه وأعلنوا إمامته ، وكان الرؤساء وأتباعهم يعهدون الإمام سيف بن سلطان الذى يريدون أن يتلاعبوا بدولته .

فتآمروا عليـه هم والمتنطعون من بقية اليعاربة ، وبذلك أصبح السواد الأعظم عليه ، والأقلون معه قال : ثم داخلوه فى الأمان فأمنوه وسلم لهم القلعة ، فلما صار فى أيديهم ورأوا أنهم الغالبون عليه باقوه وقتلوه سنة ١١٣٣ .

قلت : هنا ارتكبوا أمرين عظيمين ، أولا أمنوه على العهد والميثاق ثم قتلوه بعد الأمان ، أمران أسهلهما عظيم عند الله ، بل أصل قيامهم عليه مصيبة كبرى ، ولابد أن تكون الثمرة لهذه الأعمال كبيرة تمحق

الدين وتهدم الشرف وتقطع أعضاء دولة المسلمين التى بناها أولئك الأئمة الغر الميامين •

قال الإمام السالمى وكذلك سرحان بن سعيد وابن رزيق : أن مهنا بن سلطان بن ماجد بن مبارك بن بلعرب • وهو الذى تزوج بنت الإمام سيف أخت الإمام سلطان ، بايعوه بعد موت الإمام سلطان فى ذلك الشهر بعينه • قا ل: رأوه أهلا للإمامة لكونه ذا قوة عليها ، أى والحال فى مثل ذلك الوقت يستدعى القوى لحمل الأمانة الكبرى • قال : ولم يكن كثير علم لكنه يتعلم ويسأل ولا يقدم على أمر إلا بمشورة العلماء ، قال : وسبب بيعته أنه لما مات الإمام سلطان أرادت اليعاربة ، ورؤوس القبائل أن يكون الإمام ولده سيف بن سلطان ، وكان صبيا لم يراهق ، وأراد أهل العلم وبنت الإمام سيف بن سلطان أن تكون الإمامة لمهنا بن سلطان ، وهو ابن عمهم لأهليته ،وقال أهل العلم للناس : إن إمامة الصبى لا تجوز على حال ، ومن لا يجوز أن يكون إماما فى الصلاة ، فكيف يجوز أن يكون إماما على المسلمين يتولى أحكامهم ويلى أمورهم فى الدماء والفروج ، والتولية للولاة والقضاة والعزل والولاية والبراءة ، وهذه أمور تستدعيها الإمامة الكبرى ، والصبى لا يجوز أن يقبض مال يتيم ، بل لا يجوز أن يقبض مال نفسه فكيف يجوز أن يقبض مال الله ومال الأيتام والأغياب ومن لا يملك أمره ، فكيف يملك أمر غيره •

قال : فأبت العامة إلا إمامة الصبى ، وأعاروا العلماء أذنا صماء ، وتجمعوا واجتمعوا بالسلاح ، وربما أشهروا سلاحا ووقع بعض الجراح ، وعند ذلك خاف العلماء الفتنة وشق عصا المسلمين كبير فى الدين ، واذا بالبلية الدهياء لتبرز فى الميدان لتأخذ دورا فعالا • قال : فخاف العلماء

الفتنة وانتشار الشر ، فقال القاضى عدى بن سليمان الذهلى ، وهو العنصر الأكبر إذ ذاك فى الإمامة ، إذ هو القدوة الصالحة ، قال : أمامكم سيف بن سلطان بفتح الهمزة أى قدامكم ، وأراد بذلك تفريقهم وإطفاء الفتنة فعند ذلك نادت العامة بإمامة سيف بن سلطان ، وضربت المدافع أى أطلقت إظهارا للأمر وإشهارا للإمامة ، وانتشر الخبر الكاذب فى البلدان أن الإمام سيف بن سلطان ، قال : فلما سكنت الحركات وهدأت الناس أدخلوا الشيخ مهنا الحصن خفية ، وعقدوا لـه الإمامة فقام بالأمر واستراحت الرعية فى زمنه وحط عنهم المشرات فى مسقط لأنها الميناء الوحيد لعمان ، قال : ولم يجعل بها وكيلا لهـذا الصدد ، قال : وربحت الرعية وراجت التجارة ، ورخصت الأسعار ، وبورك فى الثمار ولم ينكر عليه أحد من العلماء فى شىء من سيرته •

قا ل: لبث على ذلك سنة ، ثم خرج عليه يعرب بن بلعرب بن سلطان ولد الإمام المحصور فى جبرين ، قال : وسبب ذلك أن اليعاربة وأهل الرستاق أضمروا العداوة للإمام ، مهنا وللقاضى عدى بن سليمان ومن معهما من المسلمين بسبب ما وقع عند بيعة مهنا ، أى جعلوا ذلك ضغنا وحقدا فى قلوبهم ، وظلوا يتحينون الفرصة لهذا الصدد ، وهنا فتح لهم الشيطان الباب الذى يدخلون منه على الإمام •

قلت : وأنا أعتقد أن ذلك لسوء سياسة عدى بن سليمان ومن معه ، حيث رأوا تعصب السواد الأعظم لسيف بن سلطان ، ونادوا به إماما وأطلقوا المدافع ، وجاءت القبائل تلقى إليهم إذعانها ، وبعد ذلك ما شعروا وهم على ما هم عليه ، واذا بمدافع القلمة تطلق معلنة إمامة مهنا ، وهذا

مما يدعو الى التحاقد والتاغض والتنافر ، وعلى كل حال إن السواد الأعظم هو البلاء الأكبر على المسلمين ، ولذلك ترى الأمر كما أشرنا اليه .

قال : فلم يزالوا يكاتبون يعرب بن بلعرب ، ويحرضونه على القيام بأمر سيف المخذول بحسب ماق نفوسهم ، وعلى الخروج على مهنا حتى خرج المذكور ، فسار مختفيا الى مسقط ، فدخل الكوت الشرقى أى الحصن الجلالى ، قال : ووالى مسقط يومئذ الشيخ محمد بن مسعود الصارمى المقدم ذكره فى حروب الإمام سلطان ، قال فلم يشعر إلا ويعرب قد دخل الحصن قال : ولعل أهلها لم يخلوا من خيانة .

قلت : لو لم تكن خيانة كيف يدخل ، واذا دخل كيف يستقر قراره والحال أنه معتدى .

قال : وكان الإمام خارجا الى فلج البزيلى من أرض الجو ، فبلغه الخبر فرجع الى الرستاق ، وقام وشمر عن ساق الجد ، ورام النهوض على هذا الثائر الذى لم يدخل الأمر من بابه ، وطلب من أهل الرستاق النصرة فخذلوه ، وهذا الداء العقيم فى الأمة تراهم يقومون به مع من يهوون بالمال والرجال فى رغبة ونشاط ، وحينا تراهم يخلدون الى الأرض ، ولم يكف أهل الرستاق أنهم خذلوه فقط ، بل ناصبوه الحرب حتى ضاق ذرعه ، ولم يكن بالقلعة استعداد كاف ، فطلب الأمان على العهد والميثاق أن ينزل من القلعة فأعطوه عهد الله وميثاقه على نفسه وماله ومن معه ، ففكر فى أمره ، فرأى أنه مخذول إذ لم يقم له مناصر ومسقط قد خرجت عنه وهو بقلعة الرستاق محصور ، ولم يكن له مناصر يدافع عنه المحيطين به فتبين له الخذلان من أهل عمان ، فأجابهم الى

ما أعطوه من الأمان فنزل من القلعة فزالت بذلك إمامته • قال : فأخذوه وحبسوه هو وواحد من عمومته وبعض أصحابه ، وبعد ذلك خشبوه فى قيد وخشبة هو ومن معه وأذلوه ذلا لا مزيد عليه ثم لم يكتفوا بذلك بل جاء خدامهم فذبحوه فى خشبته هو وأصحابه كما يذبح الخروف ، لا حيلة لهم ولا أى حركة يستطيعون •

قال : واستقام الأمر ليعرب بن بلعرب بن سلطان ، قال : ولم يكن يدعى الإمامة لنفسه ، وإنما يدعيها لسيف بن سلطان الصغير الذى نادوا بإمامته أولا ، وكأن يعرب المذكور قائم بأمره ، وشاد لأزره وسلمت لهم جميع حصون عمان وقبائلها ، قال : كان هذا فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف فلبث على ذلك حولا ، ثم انقلبوا اليه وبايعوه إماما بعد ماكان محافظا لأمر سيف بن سلطان ، فهاتان اثنتان كل واحدة أكبر من أختها الأولى خروج سيف بن سلطان على بلعرب وحصره له فى حصن جبرين حتى مات غما •

والثانية هذه التى فعلوها فى مهنا وأصحابه وإنها لفعلة منكرة لا يرضى بها من له أدنى مروءة فى عدوه فضلا عن أخيه وابن عمه ، هنا بدأ الملك العضوض لهذه الدولة العلية التى تحدثنا عنها ، وكان كما علمت خرج على الإمام مهنا باغيا • قال : فتاب من بغيه ورد الأمر الى القاضى عدى بن سليمان الذهلى زعيم العلماء إذ ذاك ، قال : فاستتابه من جميع أفعاله ومن بغيه على المسلمين ، وتعديه على مهنا بن سلطان واغتصابه لدولة المسلمين •

قال الإمام السالمى رحمه الله : قالوا : وكان يعرب مستحلا فى خروجه هذا لأنه يظن أن الإمامة لسيف ، وأنها قد غصبت منه • قال : فلم ير الشيخ عدى عليه ضمان ما تلف لشبهة الاستحلال والمستحل لا يلزمه غرم ما أتلف فقبلوا توبته من غير غرم ، هذا ، ما أورده المؤرخون العمانيون ونقله الإمام عنهم فى هذا المقام •

إمامة يعرب بن بلعرب بن سلطان بن سيف

قال أمير البيان : وتولى يعرب فى البداية باسم سيف بن سلطان الصغير ، قال : ثم جعل نفسه إماما أصيلا ، قال : وأخذ حكما شرعيا من قاضى ذلك الوقت بأنه أحرز الإمامة بحق ، وأنه ليس بعاص ولا خارج ولا غاصب ، حتى إن الأموال التى اغتصبها هى حل له ، بحجة أن التوبة تكفى عن الذنب ، وكانت البيعة سنة أربع وثلاثين ومائة وألف ، فاستقام لــه الأمر وسلمت له حصون عمان ، ولبث فى الرستاق أياما يسيرة ، ثم سار الى نزوى فدخلها يوم تسعة وعشرين من شعبان من هذه السنة .

قال الإمام : فلم يرض إمامته أهل الرستاق فتعصبوا لسيف بن سلطان الصغير ، فكاتبوا يعرب بن ناصر اليعربى وهــو خال سيف بن سلطان ، وكان بنزوى مع سيف المذكور ، قال فما زالوا به حتى خرج بعد ما نفخوا فى دماغه ، فخرج من نزوى متكتما عن الإمام سيف الذى هو منه بتلك الحال ، وكان خروجه من نزوى لست ليال مضت من شوال من نفس السنة ، قال : وقصد بلاد سيت فحالف بنى هناءه على القيام معه طمعا فى الرئاسة وتلاعبا بالأمر ، وطمعا فى الدنيا ، وتعهد لبنى هناءة أن يطلق لهم ما حجره عليهم الإمام الولى ناصر بن مرشد ، وكان الإمام المذكور رحمه الله حجر على بنى هناءة حمل السلاح ، ومنعهم من المبانى المخوفة وأشياء أخرى منعهم منها نظرا منه رضى الله عنه ، فما تجاسر أحــد أن يفك ما حجره ذلك الإمام ، ولم يقدر بنو هناءه أن يحلوا شيئا منه وأعطاهم يعرب بن ناصر عطايا ضخمة ، فقاموا معه الى الرستاق ، فهذا تراه طامعا فى الأمر .

ومن هنا بدأ بالاستجاشة على رأى الداعين لــه ، ولمــا وصلوا الرستاق أعلنوا الحرب وأحاطوا بالحصن ، وشدوا عليه من كل جانب حتى أحرقوا باب الحصن بالنار ، فخرج الوالى منها راغما ، وبسبب ذلك الحريق احترق وجــه الحصن والباب وتصدع جــداره ، فظهر بالحريق المذكور مال عظيم مخزون فيه ، إذ كان الحريق عظيما مخطرا ، واحترق فيه رؤساء بنى هناءة ورؤساء بنى عدى المجتهدون فى الأمر ، وكثير من النــاس ، فقيل : إن جملة المحترقين خمســون ومائة رجل ، فكانوا طعمة الفتح المشار إليه ، واتصل الحريق بداخل الحصن واحترقت منه مكتبة الحصن ، وذهبت بذلك الحريق كتب جليلة فقهية وغير فقهية من أمثال بيان الشرع والمصنف وغيرهــا من الكتب القيمــة الثمينة ، ومنها كتاب الاستقامة •

قال الإمــام : واحترقت كتب كثيرة لم يكن لها نظير بعمــان ، وأسفرت القضية عن خســائر كبيرة يرثى لها فى عمان ، وقام أمر يعرب ابن ناصر ، فلما بلغ الأمر الإمام وعلم ما صنع أهل الرستاق مع الخارجين عليه ، جهز سرية أمر عليها صالح بن محمد بن خلف السليمى وأمره بالمسير الى الرستاق ، فسار حتى وصل العوابى فرأى أن لا قدرة له على دخول الرستاق ، لمــا بلغه من احتدام الأمر وشدة الزيغ عن الحق ، فرجع صالح بن محمــد بمن معه الى نزوى ، وإذ ذاك قام يعرب بن ناصر ، وكتب الى والى مسقط أن يسلم البلاد لهم ، وكان الوالى بها الشيخ حمير بن منير بن سليمان الريامى الأزكوى من أهل حارة الرحى فسلمها الى عمان يعرب •

وفى هذه الأثناء سلمت نخل لرجل يعرب بغير حرب ، ثم قام المذكور وأخرج سرية ولى عليها مالك بن سيف بن ماجد اليعربى ، فوصلت السرية الى هدفها وهو سمائل ، فسلمت لهم سمائل بغير حرب ، وتوجهت السرية فى صددها وخرج معها بنو رواحة وجاءت الى أزكى ، فأذعنت لهم تباعا لمن قبلها وخرج الوالى منها فى شهر ذى القعدة من هذه السنة .

الإمام يعرب يخرج الى جرنان

لمـا كانت أزكى تعد من أبواب نزوى فى الجانب الشرقى ، وهى كما عرفها التاريخ ، اهتم الإمام بالخروج ليتأكد من أمرها ، هل هى معه أم عليه ؟ فإن أمر اليعاربة الآن تتقاذفه الأمواج ولا يدرى أين ترمى به ، خرج الإمام يعرب بمن معه من الرجال خصوصا أهل نزوى وبنى ريام ، والشيخ عدى بن سليمان الذهلى ، ووصل الى أزكى وخرج اليه مشايخ أهل أزكى يتلقونه بالكرامة ، وقدموا له الضيافة والطعام له ولدوابه ، وقد رأى منهم حالا حسنا ، وتفاهم معهم فى الأمر ، فقالوا له : نحن معك فمكث بها يكاتب مالك بن سـيف ليخرج من الحصن ، فلم يخرج فنصب له الإمام الحرب • وأطلق عليه طلقتى مدفع فلم يصغ ولعله كانت بينه وبين بنى هناءة مفاهمات سرية •

فإنه فى هذه الأثناء وصلت كتيبة من بنى هناءة مناصرة لمالك بن سيف يقدمهم رئيسهم على بن محمد العنبورى من فرق بنى هناءة ، ولمـا وصل المذكور فر عن الإمام جنوده ، وتفرق رجاله وركبهم بنو هناءة بالسيف يقتلونهم حتى قتل منهم خلق كثير ، وكان من الصدف الغريبة أن رصاصة مدفع أطلقت من جانب خصوم الإمام ، فدخلت فى فم مدفع الإمام وألجمته فاخترب ، فكان دليلا على سوء حظ المذكور ، ولمـا رأى الفشل ينزل عليه كر راجعا الى نزوى ، وأما القاضى الشيخ الذهلى توجه الى الرستاق فقبض عليه قوم يعرب بن ناصر ، ومعه سليمان بن خلفان ، ولم أعرفه من أى القبائل فصلبوهما ، وجاء أعوان يعرب بن ناصر ، ولعله عن أمره فقتل القاضى وهو فى القيد والصلب ، وقتل سليمان بن خلفان ، وعاملوهما معاملة لم يعهد أن عامل بها جبابرة عمان أحدا من

أهل عمان أو من غيرهم ، فإنهم أمروا بسحبهما فى الطرق كما تسحب الفرائس ، وذلك فى يوم الحج الأكبر من هذه السنة ، ولم يحترموا على الأقل العلم ، وقد قتلوهما فما الداعى على سحبهما ، ولو كانا مجرمين فإن قطع رؤوسهما أهون من سحبهما فى سلك الرستاق • ولكن أسباب الانحطاط هذا من أعمالها ، فإن الدور اليعربى يمشى فى هذه الآونة فى الهبوط وقد اشتغل أهل عمان بأهل عمان فتقلص ظل الدولة وسار يتبع غروب شمسهم ولله الأمر •

قال أمير البيان وهو ينقل التاريخ العمانى عن الأجانب : كان لسيف أشياع وأنصار لم يخضعوا لهذه الثورة ، وهو يشــير الى ثورة يعرب بن بلعرب • قال :فقام بلعرب بن ناصر بأمر سيف الصغير ، وزحف الى الرستاق ففر يعرب ، أى‌الإمام ، الى نزوى وقتل القاضى عدى بن سليمان ، وطيف بجثته فى الأسواق ، قال : وتفاقمت الفتنة فتوسط أناس فى الأمر ، قال : فتحول يعرب أى الإمام الى يبرين وأقام بقلعتها ، وأقيم سيف بن سلطان إماما بكفالة عمه بلعرب ، والصواب هو خاله • قال أمير البيان : وقيل إنه لمــا جاءت وفود القبائل تهنىء الإمام الجديد بالملك أساء بلعرب هــذا مقابلة محمد بن ناصر زعيم بنى غافر ، وقيل : إنه توعده فانصرف هذا مغاصبا وداخل يعرب فى الاتفاق على سيف وعمــه بلعرب ، ثم انتقض محمد بن ناصر على الإمام ظاهرا أى تظاهر بالخلاف ، واستولى على الرستاق ثم أسر الإمام واستبقاه رهنا فى قبضته ، ومازال أمره يقوى حتى دخلت جميع عمان فى حوزته ما عدا مسقط وقلعة برقة ، أى « بركا » •

قال : ومات فى أثناء ذلك يعرب الذى كان محمد بن ناصر يحارب من أجله ويقاتل باسمه ، فلم يبق رئيس فى وجه محمد بن ناصر إلا خلف

ابن مبارك المسمى بالقصير بالتصغير المشـدد ، فوقعت الحرب بينهما والتجأ القصير الى حصن برقة أي بركا ، فحاصره محمد بن ناصر فلم يقدر عليه وفى كشف الغمة مضى العنبورى الى نزوى ، وجعل يكاتب الإمام وهو فى قلعة نزوى ، ودخل عليه أناس من أهل نزوى فسألوه الخروج منها حقنا للدماء ، فلم يزالوا به حتى أعطاهم ذلك على أن يتركوه فى حصن يبرين ، ولا يتعرضوا له بسوء فأعطوه العهد على ذلك ، وخرج من نزوى فزالت إمامته بذلك ، ومضى الى جبرين ، ودخل العنبورى قلعه نزوى وضرب جميع مدافعها ، ونادى بالإمامة لسيف بن سلطان فخلصت له جميع حصون عمان وسلمت لهم كافة القبائل والبلدان •

محمد بن ناصر الغافرى يعيد الحرب سيرتها الأولى

لـــا كان محمد بن ناصر من الرؤساء المتبوعين ، ومن أهل الأرهاط الناشطة يرى لـــه بذلك المقام الموقر والمحل المحترم ، (ولولا رهطك لرجمناك) فقد تأثر محمد بن ناصر من تهديد يعرب بن ناصر الذى جاء مهنئا كغيره للإمام ، فرجع محمد بن ناصر ونار حقده تتقد : ومرجل وعيه يغلى كغلى الحميم ، وشاء القدر أن يتســـع خرق الشقاق على الراقع ، ويطول مدى الشر لتنهار المملكة العمانية من أساسها ، ويستقل الولاة فى الخارج مستغلين ولاياتهم ، جعل محمد بن ناصر يكاتب يعرب ابن بلعرب المخذول آنفا الذى أخرجه خلف بن مبارك العنبورى من قلعة نزوى ، ويكاتب أهل بهلى ، فإنهم من جملة من هددهم يعرب بن ناصر ليقوموا بالحرب التى سيقوم بها فهيأهم •

ثم ركب الى البدو العمانيين بالظفرة وبنى نعيم وبنى قتب وغيرهم من طغام الناس ، وهم بحرب المهددين له حتى يتشفى منهم عما صار عليه ، ويعلو أفق الزعامة التى يتزعمها ، وعند ذلك علم يعرب بن ناصر بنوايا محمد بن ناصر الغافرى ، فكاتب أهل نزوى أن يصلوا اليه فجاءوه فتظاهر لهم بكرامة بارزة ، ورأو منه التفاتا ، وأمرهم بالبيعة لسيف ابن سلطان وقصده التفاف (أهل نزوى) المشار إليهم تحت رايته ليتوصل بهم للدفاع عندمـــا يصبح محمد بن ناصر مناوئا له ، وكان متمركزا بقلعة الرستاق ، وإذ ذاك سرى سرية الى يعرب بن بلعرب لتأتيه به الى الرستاق ، وجعل أخاه سليمان بن ناصر قائدها ، فخرجت السرية على طريق وادى سمائل •

وقعد أهل نزوى عنده بعد ما طلب منهم الخروج مع السرية ، فظلوا يتعللون له بعلات ، وأخيرا تشفعوا بأعيان أهل الرستاق فتركهم ، ولما نزلت بلدة فرق للمبيت ، بعث لهم أهل نزوى طعاما لدوابهم وعشاء لهم ، فبينما هم كذلك قبل أن يناموا فى مناخهم ، سمعوا ضرب المدافع فى قلعة نزوى ، فسألوا عن الخبر فقيل لهم إن يعرب بن بلعرب ، دخل القلعة ، ومعنى دخول القلعة ملك نزى ، لأن العادة عند العمانيين مألوفة بأن قابض حصن البلد هو المالك مهما كان ، وكيف كان فلما تحققوا سقط فى أيديهم ورأوا الرجوع الى الرستاق أولى ، فأشار من أشار على سليمان بن ناصر بقبض حصن أزكى ، فقبضه بعد رجوعه من فرق وتمركز فيه بقواته ، ومكث بأزكى .

وكان يعرب بن ناصر الرئيس سرى أيضا سرية أخرى الى يعرب ابن بلعرب ، ووجههم إليه من جهة الظاهرة ، ولعله كان أراد أن تلتقى عليه السريتان كل واحدة من جهة ، فلما وصلت هذه السرية المشار إليها بهلى ، تصارخ عليهم أهل بهلى من كل جهة ، وتمكنوا منهم فقضوا عليهم وأودعوهم السجن .

وكان أيضا بعث سرية أخرى الى وادى بنى غافر غازية ، فأصيبت ثم رجعت الى الرستاق ، وأما يعرب بن بلعرب الإمام الحالى ، فإنه بعث سرية الى أزكى لإخراج سليمان بن ناصر منها وزودها بمدفعين ، فلما وصلوا الى أزكى هاجموا حالا الحصن ، ودارت رحى الحرب بينهم فانهزموا ، وقتل منهم ناس ورجعوا الى نزوى ، ثم سرى سرية أخرى الى أزكى فتمركزوا بالجنى الغربيات ، ولم يستطيعوا الدخول ، ورجعوا من ليلتهم إذ رأوا أن البلاد محصنة تماما ولم يجدوا مستطاعا لإعلان

الحرب ، ثم جهز الإمام سرية أخرى ، ووصلت أزكى أى نفس المكان الذى وصله من قبلهم ، ولم يستطيعوا الدخول ، بل ظلوا يطلقون مدافعهم على الحصن من هناك ، وبقوا فى ذلك المحل قدر خمسة عشر يوما على ذلك الحـــال •

وفى هذه الأثناء وصل أزكى مالك بن ناصر من الرستاق مددا لسليمان ابن ناصر ، ولمـــا قر قراره بالحصن قرر الهجوم على قوم يعرب بن بلعرب فى مركزهم المعروف ، فانهزموا ورجعوا الى الحصن وعند ذلك أغارت البدو من قوم يعرب بن بلعرب على سدى ، وحارة الرحى من أزكى ، ولعلهم رأوا أنهم أنصار سليمان ومن معه ، فعاث البدو فى ضواحى أزكى ، ونهبوا من لقوا وأحرقوا منازل عديدة من بينها منزل الشيخ حمير بن منير الريامى خارج حارة الرحى ، ثم جاءت فرقة أخرى فهاجمت اليمن من أزكى ولم يتمكنوا ، وقتل منهم ناس من بينهم أمير السرية محمد بن سعيد بن زياد البهلوى ، ولمـــا بلغ مالك بن ناصر أن أهل النزار خرجوا مع سرية يعرب بن بلعرب ، وركضوا على اليمن ، أرسل الى مشايخ النزار وقيدهم بالجامع من أزكى •

ثم استجاش أهل الشرقية فجاءته منهم رجال كثيرون ، وجاءه أيضا بنو هناءة ومعهم جمع كبير من رجال الغربية ، واجتمع الكل بأزكى ، وتزاحمت الكتائب ليكبر الضغن بين أهل عمان من بعضهم على بعضهم لتنهار صروح الزعامة العمانية وتندك مبانى الدولة اليعربية ، إذ خرجت كل سرية مع زعيمها ، وكل فرقة خرجت من جهة ، ودقت الطبول ، ونفخ الشيطان بينهم فى أبواق الكل منهم من جاء من جهة المنزلية ، ومنهم من

جاء من ناحية العتب يوم الجمعة عند زوال الشمس ، والتقى الكل على غير هدى من الله ، بل على نزعات الشيطان ، فتواقعوا ذلك الوقت ، ودارت رحى المعركة ، واشتد القتال .

وظل الحال إذ ذاك لا تسمع إلا البنادق كالرعد ، ولا ترى إلا السيوف كبروق الصيف فانكشفت الوقعة عن انهزام جمع الإمام ، وقد وقع فيهم قتل كثير ، وصار جملة القتلى من الفريقين قدر ثلاثمائة رجل .

مالك بن ناصر يثير حربا بغير هدى من الله

لمـا رأى مالك بن ناصر اليعربى أن بيده سلطة من الزعامة اليعربية ، وأنه أحد الرجال الذين تقف العيون دونهم ، خرج بمن معه ممن أطاعه من الطغام الذين معه ليفسدوا فى الأرض ، ويعيثوا فى الأمة ، خرج الى بلدة منح بقومه ، وانتشروا فى البلاد ينهبون ويسلبون ، وأغارت شرذمة على فلج وادى الحجر الذين هم لا فى العير ولا فى النفير ، فقتلوا من وجدوا على حين غفلة منهم ، ونهبوا ما وجدوه فى تلك البلدة الحقيرة ، وأفسدوا الزروع وأحرقوا السكاكر ، وخرجوا مخرجهم ذلك الى نزوى ، وظلوا محاصرين لها ، وضربوا معسكرهم فى بلد فرق عند مسجد المخاض منها ، وأحرقوا المقامات التى فيها وهى منازل الأهالى وقت القيظ ، وعاثوا فى الأرض فسادا ، وتبدل الوضع من حرب دولية الى قبائلية بغير حق ، ولمـا رأى أهل نزوى ما هم عليه تآمروا فيما بينهم ، ورأوا أن الشر أحاط بهم فخرجوا بمن معهم من عساكر يعرب بن بلعرب ، والتقوا فى أطراف نزوى فوقعت الحرب ، وقتل من قتل •

ثم رجـع كل الى مكانه وبقوا على هـذا الحال بينهم الغارات والغزوات ، حتى كثر القتل والجراح ، واشتد على أهل نزوى البلاء ، وبقوا فى خوف محدق بهم لا كاشف له إلا السيف ، فتجمعوا وزحفوا على عدوهم فى أطراف نزوى ، فوقعت بينهم معركة حامية ، وقضى الله فيها على رجال عدة ، وكاد أهل نزوى أن ينتصروا على عدوهم ، وكاد جند مالك بن ناصر أن ينهزموا ، إلا أنهم رأوا أن الرجال أحاطت بهم من كل جانب وأنهم لا مناصر لهم من القتل ولا مخلص لهم من العدو ،

وراموا للهرب إلا أنهم لم يجدوا له سبيلا ، فصبروا صبر المستميت بعد ما فر منهم من وجد للفرار سبيلا ، وبقى القتل بين الطرفين مستمرا . والحرب مازالت رحاها دائرة ، فصبروا رغم الأنوف .

ولما رأى أهل نزوى أن القوم فى ضعف ، وقد أحيط بهم اشتغلوا بالنهب والسلب ، وراحوا يلتقطون سلاح الهاربين وأثاثهم ، وهم مستوثقون من عدوهم أنه هالك لإحاطتهم به ، وعند ذلك صال عليهم عدوهم ومالوا عليهم بالسلاح الأبيض والأسود ، فهزموهم وأكثروا القتل فيهم ، وأثخنوا الجراح وطردوهم الى جنور الخوصة من نزوى قريبا من جناة العقر ، وانكشفت حربهم هذه عن قتلى كثيرة .

ورجع قوم مالك بن ناصر الى معسكرهم ، ولم تزل الحرب بينهم قائمة كل يوم على البغى والظلم ، وفى هذه الأثناء زحف مالك بن ناصر بقومه ، وساق كافة أصحابه معه إلا قليلا منهم تركهم حفاظا لمعسكرهم وهاجم نزوى حتى وصل جناة العقر ، وأراد أن يحاصر أهل نزوى فى بستان مويخ ، وقام بثقب جدرانها لمرامى البنادق فيرمى منها العدو ، فثار عليه أهل نزوى ، ودارت رحى الحرب ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

فقتل فيها مالك بن ناصر وانهزم قومه ، فرجعوا الى معسكرهم وأقاموا هنالك يديرون الآراء ويكاتبون من يعلمون أنه من أنصارهم ، ولكن بطبيعة الحال اذا قتل الزعيم هوت الرايات ، وتأخرت الجماعات ، وضعفت القوات ، ولكن لم يزالوا حربا لنزوى ورماة لها يقتلون من يجدون ، وبقيت الغزوات مستمرة والحرب بينهم قائمة حتى وصل الصنديد الكبير محمد بن ناصر الغافرى بجيش سحبه من الغربية ، فتلقته

أعداؤه فى عدة مكانات كلما جاء الى بلد لها شـف فى عـدوه اعترضه رجالها وتواقعوا عدة وقعات .

قال المؤرخون العمانيون وغيرهم : جاء محمد بن ناصر بجيش من الغربية بعد حروب كثيرة ، وكانت بها وقعات عظيمة منها بوادى ضنك ، ومنها بوادى الصقل ، ومنها بالجـو ومنها بالغبى ، قالوا فلما وصل محمد بن ناصر أمر بحرب الباقين ، من قوم مالك بن ناصر المحاصرين لنزوى ، وحالا أحاطوا بهم إحاطة السوار بالزند ، والخاتم بالأصبع ومازالوا طول ليلتهم فى قتال ، وتزاحف من بعضهم حتى استشعر أولئك المذكورون العجز ، وكان قـد علم محمد بن ناصر أنهم يرومون الفرار والنجاة ، فأمر أن يترك لهم الجانب الشرقى ، فرأوا ارتحال عـدوهم من ذلك الجانب فاغتنموها فرصة للهرب ، فأصبحوا ولم يبق بمعسكرهم أحـد ، وذهبوا على غير وجـه ، وانحلت أزمتهم وانكشف جانبهم ، فدخل محمد بن ناصر نزوى ، وكان يعرب بن بلعرب الإمام مريضا فى هذه الأثناء فى قلعة نزوى ، فأقام محمد بن ناصر بنزوى أياما قلائل .

وكان الحصار الذى وقعه مالك بن ناصر على نزوى قدر شهرين إلا ستة أيام ، وفى هذه الأثناء توجه محمد بن ناصر الى الرستاق بجيش جرار وجحفل ضخم ، فدخلها ونزل بفلج الشراة وأراد أن يهاجم البومة التى فيها على بن محمـد العنبورى ، وهى المرصد المحـكم فى عرف أهل عمان ، قالوا : وسرعان ما جاءهم العنبورى كالأسد الصائل ، فتلقاه قوم محمد بن ناصر ، فدارت رحى الحرب فكان العنبورى وسط المعمعة قتيلا ، وقتل من قومه الكثير وانهزم الباقون ، ورجع محمد بن ناصر الى معسكره بفلج الشراة .

وفى اليوم الثانى انتقل الى فلج المدرى ، فجاءه يعرب بن ناصر مذعنا منقادا ناسجا حيلة له أن توفق لتنفيذها ، ذلك أنه صالح محمد ابن ناصر على تسليم قلعة الرستاق ، ويكون منه فى أمان ، فوافقه على ذلك ، وكان قصد يعرب بن ناصر أن يدخل محمد بن ناصر القلعة فيقبض عليه ويقضى على حياته ، لكن الرجل أحذر من غراب ، لا سيما اذا كان الأجل نائيا ، أما اذا دنى الأجل فلا تنفع الحيلة كيف كانت ، فدخل محمد بن ناصر قلعة الرستاق بقومه ، وقبضها بيد من حديد ، ولما قبض محمد بن ناصر القلعة انطلق قومه فى البلد ينهبون ويسلبون بدعوى أنهم أنصار يعرب بن ناصر ، الذى أثار هذه الحرب ، ولاسيما أن القوم الذين عند محمد بن ناصر كلهم شلاعة نهابة ما جاءوا إلا ليحتطبوا لأنفسهم من يابس العمانيين ورطبهم ، وقد مروا على ديار الغربية من عمان ، فأكلوا مالاقوا .

قال الإمام رحمه الله : وسبوا الذرارى ونهبوا الأموال ، قال : حتى بيعت أى ذرارى أهل عمان فى الأسواق خارج عمان ، وذلك بما كسبت أيديهم جزاء بما كانوا يعملون ، وبما فعلوا فى الشيخ العالم عدوى بن سليمان ، والقاضى سليمان بن خلف ، وربما فعلوا فى إمامهم مهنا ، وبما فعلوا فى أفاضل المسلمين والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، عاهدوا إمامهم على النزول من القلعة ، فنزل على العهد والميثاق فقيدوه وذبحوه فى قيده وخشبته ، وطافوا بجثة عالمهم فى الأسواق والسكك ، وهذه أفعال تؤذن بالنقمة التى تعم وتمحق الأمن والشرف وتسحق الدين والمروءة .

وفى هذه الأثناء مات الإمام يعرب بن بلعرب بنزوى ، ومحمد بن

ناصر فى الرستاق ، وذلك لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخـرة من سنة خمس وثلاثين ومائة وألف ، قال : وكتم أهـل نزوى موته خيفة أن يقوى عليهم عـدوهم نحوا من خمسين يوما ، لأن محمد بن ناصر لايزال بالرستاق •

ولمـا قبض محمد بن ناصر على يعرب بن ناصر أودعـه القيد ، وقبض منه الأمر بتخليص حصون عمان التى يرجع أمرها اليـه ، ولم يبق إلا مسقط وبركا فى أيدى بنى هناءة ، وفى كوت مسقط جاعد بن مرشد بن عدى اليعربى بصفته واليا لها ، فاحتالوه وأخرجوه من مسقط على أن يولوه نخل ، وأقام محمد بن ناصر بالرستاق ، وأشاع أن الإمام سيف بن سلطان ، وهو مع ذلك كله غير بالغ الحلم •

قلت : يتذرعون به فى أوجـه السواد الأعظم الذين اذا قيل لهم جمل قالوا جمل ، واذا قيل لهم جبل قالوا جبل ، وامتلأت الرستاق خوفا من قوم محمد بن ناصر فوق الحد حتى خرجت الأهالى والذرارى خوف البدو ، أن يحملوهم فيبيعونهم فى الأسواق بيع العبيد ، وحـل بالرستاق من الهوان مالا مزيد عليـه •

قال الإمام : وتفرق أهل الرستاق فى الجبال والأودية ، فقيل إنه وجد فى كهف كلاة بلدة المهاليل مائة نفس من صبيان ونساء ميتين من العطش ، خافوا القرار بالرستاق ، ثم خافوا الرجوع إليهـا فيحملهم البدو فيبيعونهم ، وهذه مأساة عظيمة أرسلها الله عليهم ، وفى هـذه الأثناء ومحمد بن ناصر مخيم على عرش قلعة الرستاق ، جاءته كتيبة من بدو الغربية بعد قبضه الرستاق بثلاثة أيام خمسمائة رجل وألف

رجل من بنى قليب وبنى كعب وأصحابهم ، يحمـلون السلاح الأسود والأبيض ، ثم لحقهم بعد ذلك رحمة بن مطر بن رحمة الهولى ، ومعه قدر خمسة آلاف رجل من بدو وحضر •

قلت : بل كلهم بدو لا حضر فيهم • قال الإمام : وفيهم من لا يعرف العربية ولا يعرف صديقا من عدو •

قلت : نعم جاءوا لإشعال الشر الذى يتقد هنا وليأخذوا نصيبهم منه وليفعلوا بما يقابلهم فى عدوهم •

محمد بن ناصر وخلف بن مبارك يقتتلان فى عمان بأهل عمان

لما رأى محمد بن ناصر أنه له السلطة الكبيرة ، وله النفوذ الفعال فى عمان ، ورأى جيوشه تترى فى البلاد ، وعلم أنه السيد المطاع أرسل الى حصون مسقط يطلب تسليمها له ، لأن حصون عمان كلها سلمت له وبقيت مسقط وبركا فى أيدى بنى هناءة ، أرسل إليهم محمد بن على الخروصى وجماعته ، ليكون واليا لحصن بركا ، فتناوله بنو هناءة فقتلوه هو ومن معه إلا من تمكن من الفرار الى محمد بن ناصر ، فأخبروه بالواقع فأمر محمد بن ناصر على الجيش بالمسير الى بركا ، فخرج القائد الأكبر رحمة بن مطر بن رحمة بقومه ، وخرج القائد الثانى حمزة بن حماد القليبى بقومه ، والقائد الثالث أحمد بن على الغافرى بقومه فى عسكر ضخم ، والقائد الرابع محمد بن عدى بن سليمان الذهلى ولد الشيخ المقتول ، الذى طيف بجثته فى سلك الرستاق بقوم جاء بهم من الصير لأخذ ثأر أبيه ، والقائد الخامس محمد بن ناصر الخراصى بجماعته ، سار هؤلاء الأبطال كل واحد منهم قائدا لرهطه إلا الذهلى ، فإنهم ليسوا رهطه ، لكنهم ملبين دعوة الزعيم الأكبر محمد بن ناصر ، نزل هذا الجيش المصنعة غربى بركا .

ولا شك أن بنى هناءة يتوقعون الزحف عليهم لما فعلوه ولما تأصل من العداوة بينهم وخصمهم ، ونزل الكل المصنعة كما ذكرنا لتكون لهم منطلقا لحصار بركا ، وبعد جاءهم كتاب من قرع الدرمكى من بنى هناءة وكان قرع أحد القواد لبنى هناءة ومن صناديدهم ، يقول فيه لرحمة بن مطر : لا تصلنا نحن نصلكم تهديدا لهم ، فلما قرأه رحمة أمر

بالمسير لملاقاة قرع الدرمكى ، وقـد مر أمامه عيونا يكشفون الحقائق ، وإذ بقرع المذكور مقبل بقومه عليهم ، فالتقاهم أولا رحمة المذكور بموضع وادى القاسم من بركا ، وانطلق فى أوجههم من قومه قضيب الهولى على فرس ، والقوم يتخابون وراءه ، فقتل رحمة عشرة رجال وانهزم قرع بقومه ، وجرح قضيب المذكور جرحا غير كبير ، وسار رحمة مشرقا فى أثر المنهزمين حتى نزل بالحفرى التى للجبور فى بركا ، لكى يستريحوا ويأكلوا وقد قدم العيون أمامه ليعلم ما وراءه القوم ، ورجع العيون مخبرين عن خلف بن مبارك القصير مقبلا بجنوده ليناصر قومه الذين ببركا .

وكان خلف جاء بجيش بحرى وجيش برى فوق الكثرة ، جمعهم من عدة قبائل ومن أجناس مختلفة ، وكان عدد جيش محمد بن ناصر يبلغ خمسة عشر ألفا من بدو وحضر من سائر القبائل الذين سبق ذكرهم ، فالتقوا غربى بركا إذ جاء المذكور ليحيط بجيش محمد بن ناصر من جهاته ، ولكن لم يكن النصر حليفه ، فدارت رحى الحرب بينهم ، ونادى منادى الطعن والضرب .

وكان عند أصحاب رحمة مدافع يسحبونها ليضربوا بها حصن بركا ، فضربوا بها السفن التى فى البحر ، فأغرزت ونجت بمن فيها ، وانهزم خلف بن مبارك وأصحابه ، وركب ناقته وفر وخلف المعركة ونارها تشتعل ، وانهزم قومه وراءه فتبعهم أصحاب محمد بن ناصر ، يقتلون ويأسرون ، ووجدوا جيش محمد بن ناصر محيطا بهم ، فتهافتوا الى السفن وهى قد فرت من ضرب المدافع فلم يجدوا ملجأ من القتل ، وكانوا يدخلون البحر ليتخلصوا من المراكب ، فأغرزت بحرا فلم ينالوها ، والقوم من البر تطلق عليهم النار فهلكوا جميعا ، وأخذ أصحاب محمد بن ناصر بسلبهم ومواد حربهم وجميع ما معهم .

قال الإمام السالمى رحمه الله ، نقلا عن ابن رزيق : إن القتلى الذين لفظهم البحر اثنا عشر ألفا واثنا عشر رجلا ، قال : ولم يزالوا يتبعونهم حتى دخلوا حصن بركا ، أى باقيهم التجأ بالحصن ، وانتقل محمد بن ناصر بجيشه لضرب معسكره ناحية السوادى قرب الجبل ، وحاصروا الحصن ، فأقام على ذلك أربعة أيام ، ثم إن أهل الحصن خرجوا منه فى المواكب المذكورة الواقعة فى البحر ، ولعل خروجهم كان ليلا ، وراحوا الى مسقط ولم يبق فى الحصن إلا القليل ، ولم يبق فى البلد أحـد منهم ولا من غيرهم خوفا من معرة الجيش ، إذ قد علموا ما صار فى الرستاق وإذ ذاك أرخص محمد بن ناصر لقومه بالعودة الى الرستاق ، ورخص لرحمة بن مطر بالعودة الى وطنه ، ورجـع محمد بن ناصر أيضا الى الرستاق .

وفى هذه الأثناء أصيب بمرض الجدرى واشتد عليه حتى أشرف على الموت ، ثم عوفى منه وأمر بالمسير الى ينقل ، وجعل فى الرستاق واليا محمد بن ناصر الحراصى ، وعنده أصحاب بهلى وزعيمهم سنان بن محمد ابن سنان المحذور الغافرى فى قلعة الرستاق كعقيد للعسكر ، وخرج محمد بن ناصر واصطحب معه سيف بن سلطان ، وحمل معه كافة اليعاربة وهم ذرية غير كثيرة ، وترك يعرب بن ناصر مقيدا وكانت إقامته بالرستاق بعد الرجوع من حرب بركا قدر شهرين ، ونزل مقنيات وأرسل الى قبائل الظاهرة وعمان يستمدهم ، والى بنى ياس أيضا فجاءه قوم يبلغون اثنى عشر ألف رجل ، وكان معسكره بفلج المناذرة من ينقل ، وإذ ذاك أرسل الى أهل البلد أن يدخلوا فى طاعته ويسلموا له الأمر ويتخلوا عن الحصن ، فأبوا بل لم يردوا له جوابا وصباح يومه تحرك يريد الانتقال الى الجانب الأعلى على شريعة فلج المحيدث من البطحاء ، فالتقاه بنو

على بمن معهم من أهل ينقل ، فدارت رحى الحرب تطحن الرجال ، وقتل من بني على قوم كثيرون ، ومن بينهم ابن شيخهم سليمان بن سالم ، وقتل من أصحاب محمد بن ناصر سالم بن زياد الغافرى ، وسيف بن ناصر الشكيلى ، وأحد من الجرحى ، ثم إنه نزل شريعة المحيدث وهو المحل الذى أراد النزول فيه من الجانب الأعلى ، وحصر ينقل وضربها بالبنادق ، وأطلق عليها مدفعا ، وتلاقى الطرفان على الأبيض ، فانكشفت الحرب عن قتلى كثيرة وقتل من أصحاب محمد بن ناصر الوالى محمد بن خلف القيوضى واحد من بنى عمه ، ثم إنهم كسروا عنهم الفلج فلم يبق معهم مساء يشربونه ، وإذ ذلك أذعنوا بتسليم الحصن راغمين ، وتولاه محمد بن ناصر .

وفى هذه الحال جاء الى محمد بن ناصر الخبر أن سعيد بن جويد دخل حلة السليف مع الصواوفة من بنى هناءة بقومه ، فأمر محمد بن ناصر الجيش بالمسير الى السليف ، فتوجه ذلك الجحفل الجرار ، ولما وصلها حالا أرسل الى سعيد بن جويد وأهل السليف أن يؤدوا له الطاعة ، فأبوا ووصل إليه الصواوفة من أهل ننعم مؤدين له الطاعة خوفا أن ينحال عليهم ، ولما رأى إصرار القوم وجه الجيش بالزحف على حصن المراشيد من السليف ، فاختطفه الجيش فهدمه على من فيه من رجال ونساء وأولاد ، وسقط فى يد سعيد بن جويد ، ورأى أنه رهن إشارة محمد بن ناصر ، فطلب منه التسيار الى بلده هو وأصحابه فسيرهم محمد بن ناصر كما زودهم بما يحتاجون ، وبقى بالسليف حصن الصواوفة وحصن المنادرة ، ووقع فى أفكار المناذرة مما رأوا مما حل بحصن المراشيد ، وما وقع فيه سعيد بن جويد رأوا أن لا محالة من الخضوع لمحمد بن ناصر والإذعان له ، وقد أخذوا الدرس من أصحابهم ،

وذكروا ينظروا بعقله لا بعينه ، فأدوا الطاعة لمحمد بن ناصر وسلموا الأمر إليه ، فسلموا أنفسهم وساسوا الحاضر ، ولم يصروا إصرارا يردهم على ورائهم ويقضى عليهم ، فلم يصبهم بأس وأقرهم مكانهم •

وأما الصواوفة لم يخضعوا لمحمد بن ناصر حتى تدور رحى الحرب وتأخذ حظها • فأقام محمد بن ناصر يقطع نخل الصواوفة ، وسرى القتل فيهم كل يوم •

قال الإمام نقلا عن التاريخ العمانى : وفسح محمد بن ناصر للبدو من أصحابه إلا بنى ياس وقبائل الحضر ، ودام الحصار شهرين ، ولما رأى الصواوفة العجز صالحوا محمد بن ناصر على هدم حصنهم بأيديهم فهدموه ، وهذا من سوء السياسة ، ومحمد بن ناصر تعود لا يهزم له جيش ، ولا تنتكس له راية ، ولا يفل له سيف كما سمعت وكما ستسمع فيما أقبل من حروبه حتى آخر ذرة من حياته •

خلف بن مبارك يحاصر الرستاق

لما رأى خلف بن مبارك أن محمد بن ناصر مشتغل بحرب السليف زحف على الرستاق ، وأحاط بحصنها وحاصرها ، ولم يكفه ليعتبر بمن قتل من قومه ببركا ، والغريب من القوم الذين يتبعونه وهو على هزيمة تلو هزيمة ، ولا يثبت لمواقعة محمد بن ناصر ، قام خلف بن مبارك لحصار الرستاق ، وقتل الزعيم الذى ولاه محمد بن ناصر قلعة الرستاق ، وهو سنان بن محمد بن سنان الغافرى ، وأخرج الوالى محمد بن ناصر الحراصى من الحصن ، فدخل خلف بن مبارك الحصن وخلصت له الرستاق ، وكان سباع العنبورى قد أخذ صحار ، وبلغت الأخبار الى محمد بن ناصر ولم يلتفت الى شىء منها حتى انتهى أمر السليف حتى لا يقوى عليه أمر عدوه .

وكانت سياسته مبنية على القوة ، وأنه يرى لو ترك السليف قبل النهاية ، وذهب الى الرستاق فكأنه لم يعمل شيئا ، وإذ ذاك وخلف بن مبارك يزحف على حصن الحزم ليضيفه الى حصن الرستاق ، وكان الوالى فيه عمر بن صالح بن محمد الغافرى ، فحاصره خلف وأحال الفلج عنه وأرسل الى الوالى المذكور أن يخرج من الحصن هو وأصحابه بأمان ، فأبى وكتب الى محمد بن ناصر يخبره بالحال ، وأنهم لم يبق معهم ماء إلا بركة قليلة ، فتوجه محمد بن ناصر الى الحزم بعدما صالح أهل السليف ، وهدم حصونهم بجيش عظيم لا يعلم عدده إلا الله .

فلما وصل الحزم صــال على أصحاب خلف فقتل من قتل منهم وولوا هاربين وتركوا آلة حربهم من مواد عــديدة بارودا ورصاصا وطعاما ، وهذا حال خلف بن مبارك فى حروبه مــع محمد بن ناصر ، وهذه أحدوثة غير لائقة بالحر فى كل مرة ينهزم ويفر بل الموت أولى من أحدوثة كهذه .

محمد بن ناصر يزحف على بلاد سيت

لمـا رأى محمد بن ناصر أن خصمه الألد خلف بن مبارك ، وأنه لا يزال يجاذبه الحبل وغير تاركه على حال ، وكانت بلاد سيت بلاد بنى هناءة بل هى عاصمتهم ، وديوان أمرهم ، ومركز ندوتهم ، كان محمد ابن ناصر أراد أن يوقع بها كسرا لقوتهم وانتقاما منهم ، فإنه لمـا فرغ من أمر الحزم توجه الى الظاهرة ليجمع الجموع لحرب بلادسيت .

قال الإمام السالمى رحمه الله : خرج محمد بن ناصر من الحزم الى الظاهرة ، ولم يمر بالرستاق لأنه كان قصده بلاد سيت ، قال : وحشر من البدو والحضر ، واجتمع عنده عسكر كثير ، وســار من الظاهرة الى بلاد سيت ، ولمـا وصلها أرسل إليهم أن يؤدوا له الطاعة فأبوا ، فحاصرهم وأمر القوم بالهجوم عليهم فهجموهم ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، ثم هجموا على العارض وكانت لبنى عدى فأخذوها منهم ، وأخذوا أيضا غمر وخضعت له بلدان بنى هناءة كلها ، ولم يبق فيها أحـد منهم ، فالذى قتل قتل والذى طلب التسيار سيره بأمان .

قال الإمام : وقتل من أصحاب محمد بن ناصر فى أول الهجوم على باب بلاد سيت قدر عشرة رجال وجرح أناس ، وانتهى أمر بلاد سيت وتوابعها وخرج عنها محمد بن ناصر وهذا حالها .

عودة محمد بن ناصر الى نزوى للنظر فى الأحوال

وصل محمد بن ناصر نزوى بعد حرب بلاد سيت ليدبر أموره فى صدده ، وأقام بها ستة أشهر فى أيام الشتاء ، وتأكد من عدوه وصديقه ، وقد أصبح الحال فى عمان ولا زعامة لأحـــد إلا لمحمد بن ناصر ، ويجاذبه الحبل خلف بن مبارك ، وإذ ذاك أرسل الى أهل منح خصوصـــا أهل حجرة البلاد أن يدخلوا فى طاعته ، فأبوا وامتنعوا ، فجهز لهم جيشا فأحاط بهم ولا منقذ لهم ولا معين ، فقطع الجيش نخيلهم من الفيقين وجر عالى ، حتى اذا رأوا أنهم مغلوبون لا محالة خضعوا وأذعنوا بعدما ذهبت أموالهم ، فخرج عنهم متوجها الى الظاهرة ، ونزل الغبى وأخذ فى جمع له جحفل ضخم بدوا وحضرا ، وأمر بحمل التمر من الظاهرة الى الحزم ، وصحبهم أهل وادى بنى غافر ، ومن هو من أصحابهم وتوجه بنفسه شرقا يريد حرب العوامر ، لأنهم ناصروا سابقا خلف بن مبارك هم والحبوس وآل وهيبة وكثير من قبائل الشرقية ، ومعهم بنو هناءة ، لأن بنى هناءة جاءوا الى العوامر مناصرين لهم لمـــا بلغهم أن محمد بن ناصر يريد حربهم .

وكان محمد بن ناصر وخلف بن مبارك ، بل مطلق بنى غافر ومطلق بنى هناءة اشتدت العداوة بينهم لهذه الحروب والفتن التى يخوضونها على الرئاسة والزعامة ، والدم أكبر مثير للضغن وأعظم مورث للحقد والعداوة ، سحب محمد بن ناصر جيشه على بلدان العوامر ، فالتقته الجموع من العوامر وآل وهيبة وبنى هناءة ، فدارت رحى الحرب بينهم ، وعظم الخطب وعمل السيف عمله ، وزهقت أرواح .

قال المؤرخون العمانيون وفيهم الإمام رحمه الله : وقعت بينهم حرب عظيمة ، حتى كاد أن تكون الهزيمة على أصحاب محمد بن ناصر ومن معه ، ثم إنهم ثبتوا وتراجعوا ، فوقعت الهزيمة على بنى هناءة ، وقتل منهم خلق كثير فولوا الأدبار هاربين ، وأصحاب محمد بن ناصر خلفهم ، حتى أدخلوهم حجرة العاقل ، فرجع محمد بن ناصر ومن معه غالبا مظفرا ، وكان سيف بن سلطان معه ، فتوجه جبرين ولكنه لم يقر قراره لنشوة النصر حتى صار أشهى شىء اليه الحرب ، فإنه مالبث فى جبرين إلا قليلا ، ثم توجه الظاهرة ليجمع جيشا ، وعلى كل حال إن المنتصر يزداد نشاطا وقوة وتميل النفوس إليه عادة أيا كان ، فلذلك تراه كلما توجه الى قوم لبوا أمره ، ويظهر أنه كان مبذالا للمال ، فاجتمع معه جيش كبير خرج به الى نزوى ، وجمع معه أهل نزوى وأهل أزكى وأهل بهلى أيضا ، وبنى ريام وسار بهم الى سيفم ، وكل يظن أن الجيش قاصد اليه ، وفى سيفم أرسل الى سعيد بن جويد الهنائى ومن معه من أهل العقير والغافات ، لديدخلوا فى طاعته ، فأبوا ، وأظهروا عتوا ، وكأنه لم يكف ابن جويد الدرس المتقدم ، ولم يجعله معتبرا • ويرى قوة خصمه متوافرة ، لكن اذا ضلت العقول على علم لم تفد النصائح ، فأمر محمد بن ناصر بحصار القوم •

وفى أثناء الحصار خرج سعيد بن جويد خفية متسللا ليستجيش من يظن يرجو نصرته ، فمر على الظاهرة الى صحار ، فجمع قوما من صحار وينقل ، لأن ينقل نكثت الصلح الواقع بينها وبين محمد بن ناصر ، فاجتمع عند سعيد بن جويد الهنائى جيش ، وجاء الى عملى وضم وجمع معه بقية بنى هناءة ومن شف منهم وأرادتهم ، وكذلك أهل وادى العلا

وجميع بلدانهم ، وكان ذلك فى ظرف سبعة أيام ، لأنه يعهــد أصحابه محاطا بهم ومحصورين •

ولا شك أن يقظة محمد بن ناصر تقيل معهم وتبيت ، وقد تحقق أمر ابن جويد عند محمد بن ناصر تماما ، فاستعد لملاقاته ، حتى اذا نزل سعيد بن جويد العبثى أراد الهجوم على حمد بن ناصر وأصحابه مباغتا لهم ، فالتقوهم فى صدر الغافات ، فدارت المعركة بين الطرفين ، فوقع ابن جويد قتيلا وقتل معه زعيم بنى على غصن ، وقتل جملة فى هذه المعركة ، وأثر عليهم قتل سعيد بن جويد وغصن العلوى ، وأعيان رجالهم وانهزم الباقون شر هزيمة ، واهتز محمد بن ناصر نشاطا •

قال الإمام : وأمر محمد بن ناصر بالغزوة فى كل بلد ملكها من بهلى ونزوى وبلدان الظاهرة ، لإظهار الناموس •

قلت : لم أعرف معنى إظهار الناموس إلا أن يكون القوة • قال : وسحب أصحاب محمد بن ناصر سعيد بن جويد الى الغافات ، وفيها حصنه وفى الحصن عياله وأهله وأولاده وقومه ، لينظروه ويخضعوا بالطاعة لمحمد بن ناصر ، فأبوا وأصروا ، فضرب عليهم الحصار ، وبقى محاصرا لهم قدر شهرين حتى فرغ ما عندهم من الزاد ، حتى أكلوا الأنعام وأفنوا ما لديهم من الطعام •

وكان القائد لهذه الحرب من جهة محمد بن ناصر مبارك بن سعيد ابن بدر الغافرى ، وكان محمد بن ناصر بعد قتل ابن جويد وهزيمة قومه عهد بالأمر الى مبارك بن سعيد والى جبرين ، ولمــا رأى آل سعيد بن جويد أن لا مناص من الخروج حين نفد ما عندهم ، وقتل من قتل من قومهم ، وبعد ذهاب أموالهم بالاستهلاك نخلا وحروثا وحيوانا ، صالحوا

على هــدم حصنهم ، أى على أن يهدموه بأنفسهم فهدموه بأيديهم ، ووصلوهم بأمان وبقى حصن العقير محاربا ،ولعله ينتظر العقر وإلا فقد رأى أمامه دروسا يحسن السكوت عليها ، ولكن بعض النفوس لا تهتدى حتى لصلاحها •

وفى هذه الأثناء عزل محمد بن ناصر مبارك بن سعيد بن بدر ، وجعل مكانه راشد بن سعيد بن راشد الغافرى ، وأقام هذا محاصرا لحصن العقير المشار اليه ومعه جيش كبير من أهل بهلى ونزوى وأزكى والظاهرة وبنو عافر وبنو ريام ، وداروا بالحصن كالخــاتم بالأصبع وطوقوه بالحصار ، فلا يخرج منه خارج ولا يدخله داخل حتى أكلوا ما عندهم ، ورأوا أنهم فى ذل قاهر لهم ، وإذ ذاك طلبوا الصلح على أن يهدموا حصنهم بأيديهم فوافقهم القائد فهدموه ، فكانوا كما يقول الله عز وجل : (يخربون بيوتهم بأيديهم) وذلك بعدما خربت بلدانهم ، وقطعت نخيلهم ، ودمرت أوطانهم ، ولم تبق لهم نخلة ولا فلج يجرى على وجه الأرض ، ورجع الأقوام كل الى وطنه •

خلف بن مبارك يزحف لحرب نخل

ولما رأى خلف بن مبارك أن محمد بن ناصر مشتغلا بحروب الداخلية ، خرج من مسقط الى بركا واستجاش من قدر عليه ومن خف معه ، وجاء الى وادى المعاول واستجاش المعاول وطلب منهم حرب نخل فأجابوه . قال ابن رزيق والإمام أيضا : أما خلف بن مبارك فإنه جمع جمعا ونزل وادى المعاول ، وانتقل بهم الى نخل فحاصرها ، وكان فيها مرشد بن عدى اليعربى ، قال : فمكث أربعة أيام ، ثم خرج مرشد من الحصن ، وكأنه كان على غير استعداد فيه ، قال : فأحرقوه وهددوا منه ما قدروا عليه ، ومع ذلك صالحه أهل حجرة الجميمى .

قال : ثم عقب عليهم من عقب ، ودخل على حين غفلة من أهلها ، قال : هرب أهلها الى سمائل ، وبعضهم التجأ فى حجرة الجناة مع بنى مهلل ، قال : ثم إن الذين بقوا عند بنى مهلل أرسلوا الى أهل نخل أن يجيئوا من جانب الحمام ، أى من أعلى البلد ، فجاءوا بقوم من حيث لا يدرى بهم آل مهلل ، فدخلوا عليهم على حين غفلة منهم ، وقتلوا من قتلوا فخرجوا الى وادى المعاول حتى إن المعاول نصروهم ودمروا لهم الحرب الى حجرة الجناة ، وكأن بنى مهلل هم من عصبة المعاول .

قال : فمكثوا يحاربونهم ثلاثة عشر يوما لا يهدأ ضرب البنادق حتى انهزموا من الحجرة ، وكثر فيهم القتل وتخيبوا ، ثم إن المعاول قالوا لا نبغى حجرة فى الجناة فهدموها ، وكأن علاية نخل هى تابعة للمعاول ، وتخربت نخل وتشوه وجهها وساءت حالها .

قال الإمام : ومكثت نخل مدة من الزمان لم يوجد فيها من الإنس إلا الكلاب والسباع على القتلى ، وبعد ذلك قسم بنو هناءة نخل على بنى هناءة ، ومكثوا فيها — أى بنو هناءة — الى أن ملك سيف بن سلطان أى أخذوا فيها مدة كما سوف تراه وهذه من الخطأ [1] حيث تؤخذ أموال أهل القبلة فتغنم بغير حق ، ويتولى المسلمون أموال إخوانهم يأكلونها بغير حق ، وعضوا عليها بالنواجذ الى أن ملك سيف بن سلطان بعد ما بلغ الحلم ، وأقيم إماما فعند ذلك سلموها لهم وذلك أوان تخليج النخل ، فصاروا يتوسلون بالقاضى ناصر بن سليمان المدادى فى نزوى ، فجاءوا بكتاب الى المعاول فسلموها لهم وتراجع أهلها الذين فروا منها والذين اختفوا فى جوارها •

---

(١) اى حيث استحلوا امـوال اهل القبلة من غير حق ولكن الجهل والبغى لا يبقيان دينا والعياذ بالله .

محمد بن ناصر يجهز الجيوش لحرب الحبوس

لما كان متوقعا عند الحبوس أن محمد بن ناصر لابد وأن يغزوهم يوما ما حيث تظاهروا بحربه مع عدوه خلف بن مبارك ، وكان خلف بن مبارك يرى أن لا مناص من حرب محمد بن ناصر للحبوسى ، بقى هو وإياهم يتراسلون فى أمر محمد بن ناصر ، ويتفاهمون وكأنه من المقرر لديهم ذلك .

قال التاريخ العمانى : وأما محمد بن ناصر فجهز جيشا من البدو والحضر ، فقصد به بلدان الحبوس من الشرقية من المضيبى والروضة ، ولما علم خلف بن مبارك صحة ذلك تجهز لمناصرة الحبوس ، فخرج بجيش مسقط والباطنة ومن معه من جماعته ، وكان الالتقاء بالمضيبى لأكثر الله هذه اللقاءات على هذا الحال .

قال الإمام رحمه الله : والتقى — أى محمد بن ناصر — بجيش خلف بن مبارك ، بالقصير والحبوس وغيرهم من بنى هناءة بالمضيبى ، فوقعت الحرب وجلت المعركة . قال الإمام : فوقع بينهم حرب عظيمة وانكسر خلف بن مبارك ، وتحصل فى حجرة المضيبى فحاصرهم محمد بن ناصر وقطع نخلهم وخشاها ، ولما استشعروا العجز عن دفاعه طلبوا الصلح والأمان ، فأمنهم محمد بن ناصر وأدوا له الطاعة ، ولم يعلم محمد بن ناصر أن خلف بن مبارك معهم فى حجرتهم ، ثم شاع الخبر بوجود خلف معهم ، وأنه متحصل فى حجرتهم فلم يستحسن محمد بن ناصر أن ينكث العهد الذى عاهدهم به ، وأن ينقض صلحه الذى صالحهم إياه ، ثم خرج خلف هاربا الى إبراء عند آل الحارث ، فاتبعه محمد بن ناصر بجيشه حتى وصلا إبراء ، ودخل خلف إبراء ولم يظن أن محمد بن

ناصر يتبعه ، فأقام مع آل الحارث فأرسل اليهم محمد بن ناصر أن يؤدوا له الطاعة ويخرجوا خلفا من عندهم ، فأبوا ورأوه صعبا عليهم أن زعيما التجأ بهم فيسلموه لخصمه ، فأعلن محمد بن ناصر حربهم ، وما كان خلف بن مبارك إلا جارا لهم بلاء أراد أن يغمسهم فيه ، ولعله كان يراهم من أنصاره ، فأقام محمد بن ناصر يقطع نخيلهم ويدمر أنهارهم ، ولم يقدروا على دفعه حتى رأوا لابد من إخراج خلف من بينهم ، وأن البلاء بوجوده بينهم لا يزال مستمرا عليهم ، وماذا عسى أن ينفعهم وهو لا يزال فى سأم الهزيمـــة ، ومحمد بن ناصر فى نشـــاط النصر والظفر ، فبين الحالين فرق كبير .

قال الإمام رحمـــه الله : فأخرجوا خلفا ، وكان خلف رئيس بنى هناءة كافة ، وكان مقرة مسكد وهى مسقط ولا تزال فى يده . قال : ثم إنهم صالحوا محمد بن ناصر من بعد خروج خلف من عندهم وقبل منهم محمد بن ناصر وأعطاهم الأمان على العهد والميثاق ، ورجع عنهم وأقام ببيبرين ، وكان أكثر إقامته بها ، ثم إنه لم يطل المقام بها بل خرج الى الظاهرة .

محمد بن ناصر يتجهز لحرب الرستاق

لما تبين لمحمد بن ناصر أن أهل الرستاق لهم ميل الى خلف بن مبارك • وأنهم ظاهروه لما زحف الى الرستاق فى حال دخوله عندما كان محمد بن ناصر مشغولا بحرب بنى هناءة ، فأكن لهم سوءا يتحين له الفرصة ، وكل ذلك عقوبة من الله لأهل الرستاق على ما فعلوه فى الإمام مهنا ، وما فعلوه فى القاضى عدى بن سليمان وزميله ، والفتنة اذا جاءت يعم شرها الأمة صالحها وطالحها •

خرج محمد بن ناصر من جبرين الى الظاهرة ليجمع جيشه منها ، وكان أكثر ما يستجيش أهل الظاهرة لقساوتهم وغلظ أكبادهم وعدم مبالاتهم بما يلاقون ، فجمع من الظاهرة جيشا ضخما وغرب بهم ، ولم يعلم به أحد من قومه أين يريد ، فمر ببلدان بنى نعيم وجمع ناسا من بنى ياس وبنى نعيم أيضا وغيرهم من القبائل ، وسار بهم على طريق وادى الجزى ، ومر على بلدان بنى قليب ، فصحبه من رجالهم من صحبه ومضى على خط الباطنة يسحب جيشا أرعن ، فخاف منه أهل صحار فلم يغشهم ، ثم أخذ فى الشرق سائرا فخافه أهل فلج الحواسنة أن يدمر واديهم ، وأصحابه يأخذون كل ما يجدون من إبل وغنم ، وفيهم من لا يعرف الصديق من العدو ، وارتاعت القبائل فى الباطنة ، كل يظنه قاصده ، وكان المذكور يروم حرب الرستاق ، فالتقاه خلف بن مبارك بمن معه من قومه عند أفلاج عرعر من الرستاق ، فالتحم القوم قتالا ، وأحاط محمد بن ناصر بجيش خلف ، وليت خلفا تأخر عن هذه الأمور التى تجلب له عار الهزيمة فى كل مرة •

قال الإمام : ولى أصحاب خلف هاربين منهزمين ، ودخـل خلف فى بيت هنالك ، واختفى فيه واتبعه محمد بن ناصر بقومه ، ولم يعلم أنه هناك مختفيا . مالك يا خلف فى كل مرة تنهزم ثم تختفى ، أبرز لمحمد بن ناصر الذى جئت لملاقاته المرات العديدة ، قال : وظن خلف أن محمداً تركه بعد القدرة عليه ، فدخل محمد بن ناصر الرستاق ، ولا تسل عن خوف أهل الرستاق لمـا رأوه منه فى المرة الأولى حيث خرجوا من البلاد فتاهوا فى الفلا ، وماتوا جوعا وعطشا ، فقام محمد بن ناصر يدمر أفلاج الرستاق ويقطع النخيل .... ويراسلهم أن يذعنوا بالطاعة ، وهم يأبون خوف العاقبة التى لا يدرون فيها مصيرهم فدمر فلج الميسر وهو أكبر أفلاج الرستاق ، ودمر فلج أبو ثعلب وفلج الحمام ، وقطع نخلا .

ولم يكن لأهل الرستاق قدرة على الخروج لحربه ومنعه ، ولمـا رأوا العجز ورأوا أن الرجل غير تاركهم ، وقـد رأوا منـه وسمعوا وهموا بالخضوع فساعدهم القدر إذ جاءت الرسل من الظاهرة تخبره أن راشد بن سعيد الغافرى أخذ حصن مقنيات ، والوالى فيه مبارك بن سعيد بن بدر حسـدا منه لمبارك المذكور ، لأنه رأى محمد بن ناصر يقدمه ، فأمر محمد بن ناصر بترك الرستاق على حالها ذلك ، ونهض تاركا لها بعدما دمر أنهارهـا .

وكان على بن ناصر بن حمد الكلبانى أحد زعماء بنى كلبان ، قام لراشد بن سعيد وناصحه وخوفه سطوة محمد بن ناصر ونقمته التى لا يقدر لها راشد ، ومن كان مثله وسلم له الحصن بعد ما ضمن لـه من محمد بن ناصر ألا تصيبه منه عقوبة ، وكان محمد بن ناصر يعرف أقدار الرجال ، وكانت حربه على قانون الحروب الصحيحة ، لا على غطرسة

الباقين ، فقبض على بن ناصر الحصن الى أن وصله محمد بن ناصر ، فترك فيه مباركا واليا ، وترك معه الحواتم — فرقة من بنى غافر — وسار قاصدا الى يبرين وكانت هذه القضية رحمة لأهل الرستاق حيث استنهضت محمد بن ناصر من بلدهم ، وإن كان قد قضى وطره منهم ودمر أنهارهم ، إلا أنه لا يعرف ماذا يفعل بعد ذلك فيهم ، وأقام بيبرين مدة ، ثم انتقل بجيشه الى نزوى وتمركز بها وهـو الحاكم القوى فى عمان الداخلية كلها ، ولـه الحول والطول فى عمان ، والله يعز من يشاء ويذل من يشـاء •

كان محمد بن ناصر من رؤوس القبائل العمانية ، ومن الزعمـاء المعروفين ، فأصبح الآن يطلب الزعامة الكبرى للسلطنة أو الإمامة ، ولكنه كان بطلا صنديدا لا يعرف للموت ولا للذعر أبدا ، واذا كان من العلم ما يقوم به أوده كان حقيقا بالزعامة الكبرى ، لأن الزعيم اذا لم يكن شجاعا جريئا لا يصلح أن يكون قائد أمة ، كما قيل : اذا كان القائد ثعلبا كانت أسود الأمة ثعالب ، واذا كان قائد الأمة أسدا كانت ثعالبها أسودا وهكذا •

ومحمد بن ناصر فى وقته أقوى رجل عرفه التاريخ ، فإنك كما قرأت عنه ستقرأ أنه ما خرج من حرب إلا قام لمثلها ولا رجع من غزوة إلا خرج لمثلها وهكذا أيامه بغير ملل ، ولا خوف ولا سآمة ، ولا تحدثه نفسه إلا بالنصر والواقع هو كذلك ، فإنه لم تعرف له هزيمة أبدا •

إمامة محمد بن ناصر الغافرى

نسبه : محمد بن ناصر بن عامر بن رمثة بن خميس الغافرى ، قال الإمام : نسبة الى غافر جد له ، قال : ووجدت أنه من سامة بن لؤى بن غالب القرشى .

قلت : وقضية سامة بن لؤى بن غالب المذكور ذكرناها فى « العنوان » وسبب خروجه الى عمان وصحة نسبه الى لؤى بن غالب ، وإن دفعه بعض نسابة قريش .

قال الإمام : وسبب ذلك أى سبب إمامته أن محمـد بن ناصر لـما كان منه لـما ذكرنا من الحروب ، أى وتوجهه الى نزوى بعدما قضى أعظم مهماته ، وصل نزوى بمن معه ، وأرسـل الى رؤوس القبائل وأهل العلم من غرب عمان وشرقها ، فاجتمعت إليه جموع كثيرة ولـما اجتمعوا طلب منهم أن يبرأ من الإقامة بالحرب وبأمور المسلمين ، وأن يقيموا من أرادوا مع سيف بن سلطان ، واعتذر إليهم فلم يعذره القاضى ناصر بن سليمان بن مـداد ، ومن حضر من المشـايخ من رؤساء القبائل ، ولم يزالوا فى معالجة هـذا الأمر ، وغلقت أبواب حصن نزوى والعقر ، فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج اهتماما بهـذا الأمر الجال الذى يريد محمد بن ناصر أن يتخلى عنه ، وهم لا يرون له أحدا إلا محمد بن ناصر الذى لم يعرف له انهزام فى حرب ، ولا لسبقه نبوة عند الضرب ، ولا لسهمه التواء عنـد الطعن ، ولم تعرف لـه خفقة فى حروبه التى مرت على القارىء .

قال الإمام : وما زالوا كذلك ليلتهم حتى قرب الفجر ، فعقدوا له الإمامة وضربت مدافع قلعة نزوى ، ونادى المنادى له بالإمامة والعز والأمان ، لكل قبيلة تؤيد المواجهة من يمن ونزار من بدو وحضر ، وكان هــذا ليلة السبت لسبع ليالى خلون من المحرم سنة ١١٣٧ سبع وثلاثين ومائة وألف للهجرة .

الإمام السالمى يناقش القضية

قال الإمام رحمه الله : وانظر فى مبايعتهم له بعد تلك الأحـداث المنكرة والأمور المهولة ، قال : وفى كشف الغمة أنهم بايعوه تقية ، قال الإمام : قلت : ولا يسوغ ذلك لقضاة المسلمين وعلمائهم ، وكان الإمام ، رحمه الله وعفا عنـه ، ينظر الى الأحـوال الواقعة فى حروبه من فعل جيوشه من حمل أولاد الناس ، وبيعهم فى الأسواق ، وانتهابهم لأموال عباد الله ، ولا يردعهم ولا يزجرهم ، وإن منصب الإمامة منزه عن مثل هذه الأحوال ، وأن الإمام من شرطه أن يكون من خيار أهل الإيمـان والتقوى مع العلم الذى يجب لحامل هذا المنصب ، وأن محمد بن ناصر من الرجال الذين يقاتلون من أجل الدنيا .

قال الإمام : غير أن الأمر يحتمل شيئين ، أما الأول أن يكون محمد ابن ناصر محقا عندهم فى حروبه السابقة ، لأن يعرب بن ناصر وأشياعه كانوا بغاة على المسلمين ، وعلى هذا الاحتمال ، فيقال إن تلك الأحداث إنما كانت من معرة الجيش ، ومن أحداث بعض السفهاء كما وقع بعض الأحداث فى جيوش أهل العدل ، وهم لم يرضوا بذلك ولا صوبوا فاعله قال : ... والاحتمال الثانى أن يقال إن تلك البيعـة كانت على سبيل الدفاع حتى تضع الحرب أوزارها ، وللمسلمين أن يقدموا فى الدفاع اذا غشاهم العدو من لا ولاية له عندهم ، اذا رأوا صلاحيته ، وأن غيره لا يقوم مقامه ، فثبتت إمامته عليهم على هذا الشرط الذى شرطوه عليه وتجب عليهم طاعته اذا دعاهم لدفع عدوهم على حسب ما بايعوه .

قال : وإنما جازت الإمامة ها هنا لمن لا ولاية له ، لأن الدافع واجب على الكل ، فهم إنما قلدوه واجبا عليه رجوا أن يقوم به ، وأن يكون لهم به الظفر ولا تزيد هذه الإمامة إن لم يصلح منزلة فوق منزلته !!

وجوب الطاعة فى الدفاع ، وذلك إن لم يصلح حاله ، فإن صلح فلكل درجات مما عملوا ، ورب إمام بويع على الدفاع أولا ، ثم ترقى أمره حتى صار فى منزلة الظهور ، وأكثر الأئمة من بعد مهنا بن سلطان إنما بويعوا على الدفاع فيما يظهر من حالهم .

قال : واذا نظرت الى فعل المسلمين فى أول ظهور أمرهم بعمان ، وفى تقديمهم لمحمد بن أبى عفان على ما قيل فيه سهل عليك الأمر ، واتضح السبيل ، وبرح الخفا ، وعلمت أن الدين سهل يسر .

قلت : لما بويع محمد بن ناصر بالإمامة أصبح متتوجا تاج الفخر والشرف ، وعظم بذلك قدره وشاع فى الناس ذكره ، وعلا صيته وارتفع قدره ، وعند ذلك ثار حسد أعدائه وزاد حنقهم ، وغلت مراجل حساده فى عمان ، فقاموا يتظاهرون لمعاداته حسدا من عند أنفسهم .

الحســد عنصر الشر

لمـا علم أعداء محمد بن ناصر ما صار اليه من العز والشرف ، وما رقى اليه من المجد ، قاموا يتعسفون فسادا فى الأرض ، وأخذوا فى التقحم على الأمور بغير هدى ، وراموا أمورا تركسهم فى الباطل على هاماتهم ، ولا يخلفون وراءهم إلا سوء الأحدوثة ، ومع ذلك يشاهدون أحوال هذا البطل القوى ، ويعلمون عنه ما يكفى لإرشاد أهل الأفكار ، ولكن اذا عمى السمع والبصر لا يكون للانسان إلا العثار ، فإن محمد بن ناصر لمـا تقرر عقد البيعة له بالإمامة ، وانتهت الأمور على هذا الحال ، بقى فى نزوى حتى صلى الجمعة ، ثم توجه الى جبرين وفسح للأقوام المتجمعة معه إلا القليل منهم ، وأقام بجبرين مدة يسيرة ، ريثما يصلح أحواله ويرتب أعماله ويهيىء عماله ، بلغه أن مانع بن خميس العزيزى هجم على الغبى ، وقهر حصنها ونهب سوقها ، وأفسد فيها ، وأغار مهنا بن عدى اليعربى ، وعامر بن سليمان بن بلعرب الريامى ، وسليمان ابن حمير بن على اليعربى على خزانة التركة وأخذوا ما فيها ، واتصلت أخبار هذه الحوادث الى الإمام محمد بن ناصر .

فقام متوجها إليهم ، وأرسل الى القاضى ناصر بن سليمان بن محمد ابن مداد ، والوالى عبد الله بن محمد ليلحقوه بالقوة الذين دعاهم لهذه البادرة الحاضرة ، والمتجمعون بنزوى وهو يسير أمامهم لأنه لم يمر نزوى ، بل جاء عن طريق خميلة ولم يكن عنده من العسكر إلا القليل ، لكنه عنده جيش من عزمه لم يتعود الانهزام ولا الذعر ، وبذلك هجم على أهل البركة الذين احتلوا ذخيرة الدولة ، واغتنموا بغيا وبطرا على أهل الحق ، وكان الهجوم وقت الضحى حين ترى العين أختها ، ولم يرد

قتالهم ، بل ناصحهم على الرجوع عن مثل هذه الأحوال ، وعلى رد ما أخذوا من غالة بيت المـــال ، فأبوا وأصروا على حربه وقتاله ، وسرعان ما صنعوا لهم مرصداً على مسجد الشريعة ، وهو الذى يسميه أهل عمان بومة ، وهذه التسمية أصلها غـــير عربية ، وقبضوا الجبل الشرقى ، وكسروا فلج البركة واشتدوا فى أمرهم ، فصنع الإمام بومة تقابل العدو بالمسجد الأسفل من شريعة البركة والجبل الأسفل كذلك ، وبقى بين الطرفين إطلاق النار ، وقذف الرصاص •

قتل منه بعض عزابة الركاب من أصحاب محمد بن ناصر ، وجرح كذلك ، فصالت بعد ذلك رجال محمد ناصر البواسل كالأسد الكاسرة ، فهرب القوم منهزمين ، وإذ ذاك قبض رجال محمد بن ناصر على ناصر بن بلعرب الريامى ، وعلى بن صالح من أهالى كمه بفتح الكاف والميم آخره هاء ساكنة ، بلدة بأعلى نزوى على سفح الجبل الأخضر ، وكان هـــذا الهجوم من محمد بن ناصر قبل أن يصله أحد من المدد ، بل كان ذلك بالذين كانوا مع الإمام أول ما وصل كما ذكرنا ، وانسحق شر القوم ، وانمحى كما يمحو المـــاء المداد •

وأمر الإمام بحمل التمر الباقى فى خزانة البركة الى يبرين ، ورجع الإمام الى نزوى ونزل بمساجد الغنتق ، لأن ذلك المكان أوسع له ولم يدخل نفسه خوف من عدوه ، ولو كان خائفا لتغلغل بالحصن وقلعته الحصينة ، وكان فى هذه الآونة أراد حرب أهل تنوف ، لأنهم صاروا أعوان العدو فى البغى على الناس ، ولكن توسط بين الطرفين رجال من الأعيان ، فتركهم بعد ما قرر تخريب تنوف عن آخرها لمـــا كان منهم ، فأذعنوا له وواجهوه وعاهدوه ألا يخونوه ، وكان عفواً اذا أذعن المجرم

غير متأثر مما فعل ، موفقا فى مساعيه ، منصورا فى إقدامه لا يثبت لـه عدوه فى ميدان الحرب ، ولما رأى الانقياد من أهل تنوف طابت نفسه عليهم وعفا عنهم ، وبعد ذلك توجه الى الغبى ومعه ستة رجال ، فلم يشعر أهل الغبى إلا ومحمد بن ناصر يقتحم سور الحصن ، ويدخل عليهم برجاله الستة .

وكان فى الحصن مانع العزيزى كما سبق الكلام عليه معاديا لمحمد ابن ناصر ، وكان يظن أن محمد بن ناصر سيأتيه فى جيش ، واذا به يحتل ذلك الحصن الذى تولاه عدوه بستة رجال هو سابعهم ، إنهـا لبسالة يضرب بها المثل الرائع ، فخرج العزيزى ذليلا هاربا من الحصن تولاه وسيطر عليه فكان الخوف والرعب من محمد بن ناصر أقوى من جيشه ، وخرج القوم الذين معه هربا لا يلوون على شىء ما أبدا ، بل فرارا من الخطر الداهم هو محمد بن ناصر ، فكان روعهم منه كفيلا بطردهم عنه ، وقتل خادم لمـانع المذكور .

وتولى الحصن وولى عليه واليـا ورجع هـو الى بيرين مقره المعروف ، ثم انتقل الى نزوى وطلب حضور القبائل اليه ، فحضرته جموع كثيرة وخرج بتلك الجموع يريد ضنك إرجاع الوحاشا بضم الواو وحاء مهملة وشين بعدها ، قوم من أهالى ضنك ويردهم الى بلدهم ، فإنه أخرجهم منها صاغرين ، ودمر حصنهم ، وكسر قوتهم ، حين عادوه .

والآن لمـا خضعوا وأذعنوا وقهرت عليهم يده ورجعوا عن مظاهرة خلف بن مبارك ، فإنهم ناصروا المذكور ، وصاروا فى طاعته ، فغزاهم محمد بن ناصر قبل إمامته ، فدك صرحهم وقضى على نعرتهم ، فلم يقدر

خلف بن مبارك أن يرد عنهم ، وبذلك لاموا أنفسهم وعرفوا حقيقة الأمـــر •

ولمـــا شاع هذا الحال وأن محمد بن ناصر جاء لهذا الصدد ، تبرم آل عزيز أهل ضنك ، ولم يرضوا أن يبنى الآن عزيز حصنهم ، ولا أن يرجعوا الى وطنهم ، وبذلك دخلوا على بعض طغام مظاهرة ، فلقوا لفيفا منهم ، وجمعوا جمعهم ، وراموا حرب محمد بن ناصر ، فجاءوا بجمعهم والتقاهم محمد بن ناصر بطل الحرب فى ضنك نفسها ، فسرعان ما تمزق شملهم وفرق جمعهم ، وانهزمـــوا تماما وحينئذ تحققوا أن لا طاقة لهم بحربه ، وعمل محمد بن ناصر فى ضنك ما شاء أن يعمل فى مضاء لا يعرقله أى شىء •

مانع بن خميس يلتجىء بالنعيم

لما خرج مانع بن خميس العزيزى من حصن الغبى هاريا بعد ما عاث فى ذلك البلد هو ومن وازره ، لم ير لـــه ملجأ يلتجىء به ، وكادت الأرض تضيق به ، وفعل الســـوء لا يكون منه إلا الوبال لراكبه ، قصد مانع بن خميس السنينة ليحتمى بحماها الذى لا يحميه من محد بن ناصر كما لم يحمه حصن الغبى من بطل الحرب ، فكيف بالسنينة ، ولكن من لم يفكر فى أموره لا يزال حائرا ذليلا ، فلما علم محمد بن ناصر بوجهة مانع المذكور ، خرج فى إثره طالبا لـــه فى شرذمة من الرجال قليلة أصحاب خيل وإبل ، فلم يشعروا به إلا وهو معهم فقبض مانع بن خميس أسرا ، ورجع به قائدا له برغم أنفه ، وجاء الى ضنك حيث لمانع القوة والرهط ، وهل يتحرك أحد من قومه مناصرا له ، فلم يكر ثم توجه الغبى فمر على أفلاج بدو آل عزيز جماعة مانع المذكور الذين نهبوا سوق الغبى بالأمس مع مانعهم ، فنزل محمد بن ناصر على أفلاجهم فدمرها ، ورجع الى الغبى وأقام سوقها ولبث ما شاء الله أن يلبث ، ثم حشد من جانبها من قبائل الظاهرة ما شاء الله ، وتوجه الى جبرين وأقام بها أياما قلائل ، ثم توجه لنزوى فنزل ببيت المزرع ليجمع رجالا من نزوى ، ثم مضى الى أزكى وأخذ منها رجالا ، وأرسل الى الشرقية فلباه أهلها ولا يعلم أحد أين يريد ، وبقى عدوه فى كل بلدة خائفا يقول هذا الجيش على .

وهكذا فسرت بذلك هيبته فى أرجاء البلاد .

الإمام محمد بن ناصر يهاجم أهل علاية سمائل

كان فى سمائل إذ ذاك أناس تمردوا كما يقول أحد كتاب الإفرنج ، ومنهم البكريون فى سمائل وأهل فلج الحيلى ، وقوم عكاشة وبنى ربيعة وأولاد سعد أمبو على ، وأفسد فى سمائل آل عمير أيضا قبلهم ، فجاء هـذا البطل لتطهير البلاد من السوء الذى بها ، والتمرد على الحق ، وكانت جموعه التى جمعها كما ذكرها •

قال الإمام رحمه الله : فخافت منه بنو رواحة أى لعلاقتهم بأهل العلاية ، فلم يلتفت الى بنى رواحة بشىء حتى أتى سمائل ، فأول شىء عمله ألقى نصحه للبكريين •

قال الإمام : فلم يزل يناصحهم وأهل الحيلى وقوم عكاشة ، ولكن يا للأسف لم يبين التاريخ عماذا يناصحهم ؟ ومـا هى الأعمال التى ارتكبوها ؟ وكأنها أمور لها أهمية كبرى ، حيث اجتاحت الى هـذه الحركة الكبرى •

قال الإمام : فأما أهل الحيلى وأصحاب عكاشـة فصالحوه وأدوا الطاعة ، فأرسلهم الى البكريين ليناصحوه فلم يقدروا عليهم ، وكأنهم أصروا على خلافهم ، فأمر بالركضة عليهم فى ليلة باردة شاتية مطيرة مظلمة ذات رعد وبرق ، فلم يشعروا به إلا هو فى أعلى السور مع الحارس يقول له : عمن تحرس ؟ فقال : مخافة أن يهجم علينا محمد بن ناصر ، فقال له : هـذا محمد بن ناصر عندك ، فسقط فى يده ، وانخذل حالا وانخذل أهل الحجرة كلهم لمـا نادى محمد بن ناصر على رأسها •

وطلب أكثرهم الخروج بأمان فأمنهم ، ولم يبق من الحجرة شىء

إلا برج واحد وشيء من الغرف فيها بكر وأولاده وبنو عمه ، فأطلقوا عليهم النار حتى قتلوا عن آخرهم ، وقتل من قوم الإمام أربعة رجال فيهم مملوك للإمام اسمه بخيت ، كان قدمه على جميع الخدام ، فجاءته رصاصة فقضت عليه ، وهدمت الحجرة كلها ، وأقبل على أولاد سعد أمبو علي فأودعهم القيد ، وهدم المهم من حجرتهم ، ولأجل البيان فإن عرف العمانيين أن الحجرة فى البيوت الملتفة على بعضها بعضا ، تحيط بها أسوار وأبواب ، فهى كالحصون فى معناها .

قال الإمام : وسلمت له سمائل زكاة ثلاث سنين ، ومنه نتبين أن الخلاف بينهم والإمام محمد بن ناصر من جملته امتناع زكاتهم ، فكانت تلك العاقبة ، قال : وكان آل عمير قد أفسدوا فى سمائل ، وجازوا جميع أموال الأغياب ، فرد محمد بن ناصر كل مال لأهله ورد الأمور على القرار الصحيح ، وأجراها فى مجاريها والرجل غير متغطرس كما تشهد له أعماله ، والأفعال دالة على ما فى نفس الفاعل .

محمد بن ناصر يلاقى خلف بن مبارك فى حيل العوامر

بلغ محمد بن ناصر وهو فى سمائل أن خلف بن مبارك يروم الخروج من مسقط لحرب الرستاق ، حين علم أن محمد بن ناصر مشغول بأمور سائل ، فتجهز له محمد بن ناصر ليلاقيه فى حيل العوامر من السيب ، فيلتقيه قبل قصده فوصل الباطنة وكان خلف بن مبارك فى مسقط ، وكان محمد بن ناصر يخرج من معسكره بالحيل الى غبره بوشر لعله يلتقى بخلف فى هذه البيئة ، فلم يخرج خلف بل بقى خائفا هجومه على مسقط ، فما رأى له إمكان الخروج كان محمد بن ناصر يخرج هو ومملوك لـه اثنان فقط ، وهو يعلم أن خلف بن مبارك اذا خرج لا يخرج إلا بجيش ، فهنا يتجلى ما يقوله الناس إن محمد بن ناصر عنده أسرار .

يدلك على ذلك أنه لم يهزم مرة واحدة ، ولم يصب برمية واحدة فى كل تلك الحروب التى خاضها ، مع أنه يباشر الحرب بنفسه قبل أن يصل الجيش فيقتحم الأسوار ، ويباشر بصدره خطوط النار ، ولم يتعثر بأى شىء يعرف ، وهذا هو هنا يتلقى خلف بن مبارك ومعه مملوك من خدمه فقط وهذا أكبر دليل على ما قيل ، فإنا ما قرأنا فى التاريخ عبقريا من الرجال يغامر بنفسه كهذه المغامرة ، ويرتكب هـذه المراكب الصعبة ، ولا بأس عليه ولا خوف ، ولله فى خلقه أسرار .

وإذا تتبعنا أحوال محمد بن ناصر فى حروبه أيقنا أن الرجل اوتى شيئا فوق العقل ، فإن وقائعه مع أعدائه لها أهميتها البالغة ، فإن الحرب فى جميع الأمم تكون سجالا الا حرب محمد بن ناصر لم تكن سجالا ، بل

هى انتصار محض ، وهذه المحررات التاريخية من شك ، فليتتبع ذلك يجده كما قلنا ، فإن أبطال الحرب معروفون جاهلية وإسلاما ، ولم يعرف لواحد منهم نصر محض فى كل موقعة ، وكذلك لم تكن لهم سلامة نفسية ، ومما يدل على أنه ذو خصائص سرية لما كان عند آخرذرة من حياتة فى صحار ، إذ جاءه الخبر أن خلف بن مبارك أقبل فى جيش كثيف ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، هـذه ساعة لا لنا ولا علينا ، ما ندرى ماذا يقضى الله فيها ، فقضى الله فيها بقتل الرجلين كما سوف يأتى إن شاء الله فى محله •

ولازال خلف بن مبارك خائفا من محمد بن ناصر فى مسقط ، وقد سد الأبواب ، وأقام الحرس على الطرق ، ولم يقصده محمد بن ناصر قصداً خاصاً فى مسقط ، ولو قصده لم تكن لتمنعه أكثر من بقية حصون عمان وقلاعها ، ولأن العادة قاضية بينهما بانهزام خلف بن مبارك ونصرة محمد ابن ناصر ، وقد أقام محمد بن ناصر فى حيـل السيب قدر نصف شهر منتظرا خروج خلف ولم يخرج من مسقط •

محمد بن ناصر والمعاول

لما أيس محمد بن ناصر من خروج خلف بن مبارك من مسقط رجع الى سمائل ، وكان المعاول أنصارا لخلف بن مبارك ، كما أنهم هم الذين قادوه على حرب نخل كما سبق ، ثم وقع بينه وإياهم شرهة وعتاب رأوا أن يهاجموا حصن بركا ، فاحتالوه على دخوله فدخلوه بصفة الاحتيال ، فتولوه ليعلم خلف بن مبارك أنهم ينفعونه ويضرونه ، ويؤثرون عليه إذا لم يتراجع عن سياسته التى هو عليها فى جانبهم ، وإذ ذاك أرسلوا لمحمد بن ناصر فى سمائل يخبرونه عما فعلوا •

وكأنهم يتخوفون من خلف أن يهاجمهم ، فجاء محمد بن ناصر الى السيب والتقاه المعاول ، وعاهدوه على حرب خلف بن مبارك ، وعلى تخريب مسقط ولم يجر كلام فى حصن بركاء من الطرفين ، بل هو فى يد المعاول ، والمذكورون هم بعهدهم مع محمد بن ناصر • ولما افترقوا غرب محمد بن ناصر فظن المعاول أن محمد بن ناصر توجه لقبض الحصن ، فلحقوا به ونزل هو الحرادى من بركا ، ونزل المعاول فى مناخه وعند غروب الشمس ، فرشوا على ركابهم يرومون التوجه إلى بلدانهم ، ولكن أرادوا أن يصلوا المغرب فنزلوا الساحل أفرادا ، ومن هناك يتسابقون الى الحصن ، وقالوا لطناف الركاب سر بركابك فى خفية حتى تدخل بهن وادى المعاول ، وسرعان مانكثوا العهد ، فلما تحقق محمد بن ناصر أمرهم أرسل إليهم ما بقى من متاعهم فى مناخه ، وتوجه راجعاً إلى سمائل وكان أهله بها فحمل أهله منها وتوجه إلى جبرين •

محمد بن ناصر يهاجم بغاة البدو من عامر بن ربيعة

لايخفى أن البدو أفسدو خلق الله من أول يوم عرف فيه التاريخ ، ذلك لأنهم أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر ألا يعلموا ما أنزل الله ، وقد عاشوا على الغزو والنهب ما لم تصرفهم عنه قرينة هى بريق السيف ورصاص البنادق ، ولما كان محمد بن ناصر قد برز بسيفه فى الميدان يقطع روؤس البغى ، ويرد الطاغى عن هواه برغم أنفه ، فإنه لـما رجع من الباطنة ورأى من المعاول خلاف ما عاهدوه عليه ، أحب ابقاءهم على ما هم عليه إرغاما لخلف بن مبارك •

ولما قفل من سمائل قصد البدو من عامر بن ربيعة وآل سعلى ، ومن اشتمل عليهم ومن واطأهم من سكان الباطنة ، وهجم عليهم فى باديتهم ، وتوجه أولا الى ركابهم فظل يعرقبها ويعقرها ، لأنها قوتهم التى يفسدون بها فى الأرض ، وهرب منه الرجال فقتل إبلا كثيرة تمكن من قتلها ، وكان راكبا على فرس ، وبيـده كتارة أمضى من عزمه ، ومعها رمح طويل ، فكان يضرب الإبل يمينا وشمالا يقطع أعناقها ، ويعرقب أرجلها ، ولم يسمح لأحد يأخذ شيئا ، ذلك لأن يبيح كسر قوة الباغى ، ولا يحل ماله لعصمته بالتوحيد ، عمد بالنص الوارد عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فتقتل خيل الباغى وإبله وبغاله وحميره ، وتخشى أمواله نخله وشجره ، وتهدم قصوره وحصونه ، ويقتل عندما يتمكن المسلمون منه ، أما غنم أمواله فلا أبدا ، ويستعان بسلاحه وآلة حربه على قتاله ، وهذا هو عمل المسلمين منذ عهد الخلفاء الراشدين •

قال الإمام نقلا عن التاريخ العمانى : ووصل الى فريق من فرقانهم فقتل رجالهم ، فصاحت نسائهم بالأمان يا خلف بن مبارك إنا فى طاعتك ،

يظنونه خلفا . قال : فأكثر فيهم القتل ، وهو إملم القوم لم يلحقه إلا أهل الخيل والإبل السيارة . قال : وسيف بن سلطان معه لا يفارقه فى جميع حروبه وغزواته حتى قضى غرضه من هؤلاء البدو البغاة المفسدين فى الأرض ، ثم رجع الى الحزم فأقام بها أياما قلائل ، ورجع الى بلدة سنى بكسر السين المهملة ، وبكسر النون مخففة بعدها ياء ساكنة لا يظهر عليها الإعراب ، وهى فى وادى بنى غافر .

قال : فأقام بها أياما ثم رجع الى يبرين ، قال : وكان إقامته بها ، وكانت البدو من عمان قد أفسدوا الطريق ينهبون ويقتلون فلا يقدر أحد أن يسافر الى مكان إلا بجماعة كثيرة .

قلت : وهذا شأن البدو فى كل الأجيال ، وهنا وجدوا الباب مفتوحا لمخالفة خلف بن مبارك ، ومحمـــد بن ناصر ، وكثرت الصيال والقتال والغارات المتواليات ، فأظلمت الطرق ، وتخـوف النـــاس ، وتعطل السعاة ، وتوقفت الحركات التجارية إلا ما شاء الله ، وأصبح الناس تأخذ منهم مأخذها .

محمد بن ناصر يسوق زعماء وهيبة لواحة جبرين

لمـا كان آل وهيبة أكثر البدو نهبا وسلبا لاسيما كونهم أنصار خلف ابن مبارك ، وقد استأذت الناس من بطشهم ، وكان لهم رئيس يقال لـه بوخرق ، لأن البدو غالبا يستعملون الألقاب ولا يتبرمون منها كهذا اللقب وكخرق الفضعة وأمثالها ، قال : وخاصة آل وهيبة .

قال الإمام رحمه الله : فحشدهم أى محمد بن ناصر بجميع أهلهم وإبلهم وغنمهم ، وأمرهم بالنزول حوالى جبرين ، قال : وذلك قهر منه لهم حتى ماتت إبلهم وأغنامهم ، وضعف حالهم ، ولم يقـدروا على مخالفته ، فلما كانت ليلة أحد عشر من شهر الحج ، خرج محمد بن ناصر بمن معه من القوم قاصدا منازل آل وهيبة ، وهاجم بلدهم السديرة ودمرها ، وقتل من وجد فيها منهم . قال : فكانوا يهربون الى الرمل من أسافل عمان وخرابها ، أى من جهة الجنوب ، وكل موضع ليس فيـه ماء يظنون أنه لا يتوصل إليهم لقلة اهتداء الحضر لتلك الأماكن ، وقلة دلالتهم بمواردها .

قال : فمضى اليهم أى تابعا لهم ليقطع عروق الفساد ، ويستأصل شأفة القوم ، قال : فقتل منهم ستة وثلاثين رجلا من أكابرهم ، وأسر خمسة وتسعين رجلا ، وقتل إبلهم وأغنامهم وحمل الأسارى الى يبرين مربوطين فى الحبال ، قال : وأما بوخرق فإنه قصد مسكد أى مسقط ودخل مع بنى هناءة ، قال : وقيد محمد بن ناصر الأسـارى فى يبرين شهرا وأرسل بوخرق الى الإمام أنه يعاهده لا يضر أحدا ، ولا يفسد .

قال الإمام : وأمنت الطرق . قلت : كيف لا تأمن الطرق وسيف

الإمام لا يزال على أعناق البغاة لا يقى منه واقى ولا يرده راد ، ويقول الشـــاعر العربى الحكيم :

بسفك الدما يا جارتا تحقن الدما
وبالقتل تنجو كل نفس من القتل

ولا شك أن أهل البغى والفساد لا يردعهم إلا القوة الغالبة ، ومحمد ابن ناصر أقوى رجل فى عهده ، فإن آل وهيبة أنشط قبيلة وأقوى فى بادية عمان فجمعهم حول جبرين رغم أنوفهم ، ويهوى على بقيتهم فى سديرتهم ، فيهز تلك السديرة هزا روع أهلها فيرتحلون هاربين عنها الى الرمل النائى ، ثم يتبعهم الى تلك الأماكن ، فيقتل الرجال ويؤسر الباقى فى الحبال ، كما تقاد الأغنام للبيع إنها لخطوة لا يستطيع مثلها قادة الدول الكبرى الذين عرفهم التاريخ من العهد البعيد ، فلله در تلك الشخصية البارزة ملء عيون عهدها إنها لخصيصة قل أن يوجد مثلها خلق الله للحروب رجالا ، ورجالا لقصعة من ثريد ، سبحان من يمنح من يشاء من عباده خصالا عديمة المثال ، ويرفع أقدار بعض الرجال حتى يظهر بهم من سلطانه ما شاء ،

ينقل تظهر الخلاف لمحمد بن ناصر وتتعرض الهجوم

لقد سبق أن أهل ينقل رفضوا ما بينهم ومحمد بن ناصر ، وتداعوا لحربه . قال الإمام ، وابن رزيق ، والمعنيون بالتاريخ العمانى : إن محمد بن ناصر أمر بالحشد إليه بيبرين ، أى طلب اجتماع جنوده المطيعين له فى عمان من شرقها وغربها ، فاجتمعت إليه فى بيرين جموع عظيمة لا يعلم عددهم إلا الله ، وأرسل الى بنى هناءة من بلدان وادى العلا والحيل ، وضم وعملى ، فأطاعته جميع بنى هناءة ولم يعصه أحد .

هذه عبارتهم بنصها ، وهى تدل على قهره الباهر وسلطانه القاهر ، قال : وسار بهم قاصداً ينقل ، ونزل فى أعلى البلد وأرسل إليهم ليخلصوا له الحصن ، فأبوا وشدوا الحرب .

قلت : هذا جنون سافر حيث عرفوا حق الرجل ، وعلموا العلم اليقين عيانا وسماعا ، وجربوه فلم يعصونه ؟ فاذا صال عليهم لم يقفوا لـــه فى كل معركة يبتدءونها ويهربون آخرها ، أليس لهم عقول يهتدون ؟ أليس لهم رؤوس تنصحهم ؟ أليس لهم أصدقاء تبين ؟ ! وقـــد داس محمد بن ناصر وهاجم القلاع بالقلة من الرجال ، وكيف وقـــد سحب عليهم الجحفل الوفير .

قال الإمام : فخرج ذات ليلة رجل من أهل ينقل يقال له عصام ، فصالح الإمام محمد بن ناصر إلا أن البلد ليست فى يده .

قلت : ليس ممن يصالح ، بل هذا ممن يخضع ليد يريدها عنـــد محمد بن ناصر .

قال الإمام : فقال له محمد بن ناصر : جماعتك لأجل حقن الدماء ، قال : يتبعوه ، والمعنى ناصحهم فلم يقبلوا منه •

قلت لو قبلوا منه لكان أعز لهم وأكرم ، ولكن الله سلب عقولهم ، قال ، وأقاموا الحرب غير مفكرين فيما يكون ، قال : وكان بيت عصام على السور ، فأدخل محمد بن ناصر ومن معه البلد ، فلما دخل محمد ابن ناصر البلد ، أطلق للسيف حده وأعطاه عند ذلك زنده ، فلم يزل يعمل اللازم الملقى على عاتقه حتى طلبوا الأمان فأمنهم ، وهذا غاية أمرهم ، أليس كان الأمان فى أول الأمر وقبل انكشاف العجز والاعتراف بالذل وطلب الأمان فيمن به عليهم •

قال الإمام : فقيد أشياخهم ، وحملوا الى يبرين مصفدين فى الحديد ، قال : وترك فيهم واليا وادت له الطاعة والمعنى خضعت له راغمة •

نهاية المزاولة بين محمد بن ناصر وخلف بن مبارك والصراع المرير

لمـا كان لكل شىء نهاية ، ولكل قائم غاية ، وهـذا حكم الله فى عباده وإن بلغوا ما بلغوا ، وفعلوا ما فعلوا ، وعاشوا فى هـذه الحياة ما عاشـوا ، فإن محمد بن ناصر ، لمـا فرغ من أعمال ينقل ، ورتب أمورها توجه لصحار وقدم أمامه من رؤساء جيشه ربيعة بن حمد الوحشى ليناصح بنى عمه القابضين لحصن من طرف خلف بن مبارك بل باسمه ، ليهبطوا من الحصن ، فلما وصلهم قال : شـدوا الحرب إذ كان ميله نحو خلف بن مبارك ، وإنمـا كان مع محمـد بن ناصر بالقهر ، وأمـا محمد بن ناصر فكان من الرجال الذين اذا تولوا يتولون بخالص ضمائرهم ، واذا خاصموا كانوا بتلك الضمائر .

قال الإمام ، وابن رزيق ، وابن سرحان وغيرهم من مؤرخى عمان : لمـا دخل محمد بن ناصر صحار التقته بنو هناءة الذين مع خلف بن مبارك ، وقامت الحرب على ساقها بين الطرفين ، وهم بحصن صحار ، فوقع القتل فيهم ، فقتل منهم جملة ، وجرح ربيعة بن حمد الذى قدمه محمد بن ناصر ليناصح قومه عن الحرب وأخذ أسيرا جزاء خيانته ، وانكسر بنو هناءة كمـا هى العادة التى يمشى فيها محمد بن ناصر ، فسبحان الذى يعز من يشاء ، ويذل من يشـاء .

وتراجع بنو هناءة الى الحصن بعد الهزيمة ، ونزل القوم بالجامع الكبير ، ونزل محمد بن ناصر فى بيت ابن محمـود أحد أعيان صحار

إذ ذاك ، وطلب إحضار ربيعة بن حمد ، فلما حضر ، قال لــه : إن شئت أن تقيم معنا فعليك الأمان ، أى لا تخاف لأجل ما فعلت ، وهذا من الحلم بمكان ، قل أن يوجد مثله ، وإن أردت أن تسير الى أصحابك بالحصن سيرناك بأمان ، فأراد المسير الى الحصن فسيره ، وكان لمحمد ابن ناصر اثنتا عشر فرسا ، كانت وظيفتها كشف الأحوال ، واستطلاع العدو ، يبعثها عيونا تطالع المشرق ، تراقب خلف بن مبارك ، هل لــه نهوض الى صحار عندما شاع خبر مسير محمد بن ناصر إليها ، وكان بلغه أن خلف بن مبارك جمع بنى هناءة من الرستاق ومسكد ، ومن شف معه من القبائل ، وأنه نزل بحصن ضخم ، وكان محمد بن ناصر قــد استخلص جميع صحار وسلمت له رعاياها ، ونادى منــاديه فيها بالأمان لكل أحــد .

قال الإمام : وأمن أهلها من جميع الطوائف ، فلم يؤخذ على أحد منهم شيء ، وكانت عنده البدو من بنى ياس والنعيم ومن اشتمل عليهم ، والحضر أيضا كذلك ، فأصبحت ليلة من الليالى قد خرب زرع دخن من طوى فى البلد ، فجاء صاحبها الى الإمام شاكيا فسأله من خرب زرعك ؟ فقال : بنو ياس والنعيم والبدو الذين معك ، فقال له : كم غرامة زرعك ؟ خذ مائتى محمدية ، إذ كانت العملة المتداولة فى ذلك العهــد ، فأبى صاحب الزرع أن يقبلها ، فقال له : خــذ أربعمائة محمدية ، فأبى فقال له : خذ خمسمائة محمدية ، فقال : لا أرضى إلا أن تنصف لى منهم .

قال : فأرسل الى مشايخهم فحضروا عنده ، فأمر بهم فصلبوا ، وما كانت نصفته إلا الجلد فجلدوهم جميعا وهم يستغيثون به ، فلم يغثهم الى أن انقضت النصفة فأطلقهم من الحبال .

قال الإمام : وكانت هذه حيلة من بنى هناءة لينفروا عنه البدو ، قال : وكان هذا من محمد بن ناصر عن جهل بالأحكام ، فإن أمر التعزير والعقوبات راجع الى نظر الإمام لا الى صاحب الحق ، ولا الى سائر الرعية وإنما لصاحب الزرع غرم زرعه فقط ، فإن عرض عليه حقه فلم يقبله فلا حق له ، وقيل يجبر على قبول حقه وليس له أن يتحكم على الإمام فى عقوبة الجـــانى •

قال : ثم إن البدو خرجـــوا من عند محمد بن ناصر الى بلدانهم راجعين ، فعلم خلف بن مبارك بخروجهم ، فزحف عليهم بمن معه من القوم ، وهجموا عليهم بعد طلوع الشمس قليلا ، فجاء من جاء الى محمد بن ناصر يخبره أن خلف بن مبارك وصل بمن معه من بنى هناءة ، فقيل إنه قال : « هذه ساعة ليست لنا ولا لهم إلا ما شاء الله » •

قلت : هذا ما أشرنا إليه سابقا أن محمد بن ناصر كان له أسرار يمشى على ضوئها •

قال الإمام رحمه الله : ثم ركب فرسه وركب أصحاب الخيل معه والتقوا خلفا ومن معه على باب حصن صحار ، فوقع بينهم القتل وقتل خلف بن مبارك ، وهو أى محمد بن ناصر يتبعهم ، حتى وصل تحت جدار الحصن ، فضرب محمد بن ناصر من فوق الحصن ضربة تفق ، وأخذه أصحابه فمات ، وقتل من أصحابه قدر خمسة عشر رجلا •

قال الإمام : ودفن خلف بن مبارك داخل الحصن ، ودفن محمد بن ناصر فى بيت غربى الحصن عند حجرة الشيعة ، قال : ومكث بعدها دفن ثلاثة أيام لم يعلم بموته إلا الخاصـــة ، قال : وكاد أصحاب الحصن أن

يسلموه ، قال : وقيل والله أعلم إن أحـدا بعث محمد بن ناصر من قبره ، ورمى به خارج البلد ، وذلك بعد أن رجع كل الى بلاده •

وهنا انتهت مزاولة الرجلين ومنافستهما على هذه الحياة ، ولم يحصلا على شيء منها كما يقول المتنبى :

تفـانى الرجـال على حبهـا
وما يحصـلون على طـائل

وقد تواقع هـذان الزعيمان فى عمان بأهل عمان بأكثر من خمس وقعات التى يباشرها كلا الزعيمين ، أما الحرب التى خاضها محمد بن ناصر فكان النصر حليفه فيها بعمان •

إمامة سيف بن سلطان بن سيف

نسبه : هو سيف ، الذى كان رؤوس القبائل يريدونه للإمامة ابن سلطان صاحب الحزم ابن سيف قيد الأرض بن سلطان بن مالك بن أبى العرب اليعربى ، الذى كان محمد بن ناصر لا يزال حاملا له فى جميع حروبه وغزواته ، ويتذرع به على الإمامة ليقتاد به سواد الأمة ، وآل الأمر على إمامة محمد بن ناصر فقام قياما دوخ القبائل ، وقهر به العتاة ، وأذل به البغاة الى آخر ذرة من حياته .

ولما قضى الله عليه ، وعلى خصمه خلف بن مبارك ، رجع الناس إلى سيف بن سلطان المذكور ، وهذا مقصد الرؤساء الذين أرادوا هذا الأمر للمذكور ، فعاكسهم فيه القدر ، وسلط الله عليهم محمد بن ناصر يقطع الرؤوس ، ويقهر العتاة ، حتى اذا انتهى دوره ، ورجع الأمر الى سيف بن سلطان المذكور ، وكان قد بلغ الحلم وأخذ درس الحرب من ذلك الصنديد الغافرى ، الذى مازال معه فى حله وترحاله .

قال الإمام السالمى رحمه الله : سيف بن سلطان الصبى الصغير الذى مات عنه والده صغيرا ، ومالت الى تقديمـه غوغاء الناس أهل الشقاق من أكابر الرستاق ، وهذه الجملة من هذه الإمام العلامة ، أشبه بقنبلة ذرية رمى بها ذلك العالم . قال : وكان ذلك سببا للفتنة العظيمة والبلاد الطويل ، (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد مـا جاءتهم البينات ، ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) ، فكان سبب اختلافهم ما قصصناه وما سنقصه إن شاء الله ، ولله الملك الدائم ، وهو الواحد القهار .

قال : وكان سيف بن سلطان هذا لم يفارق محمد بن ناصر ، لأن محمدا كان يحمله معه فى جميع حروبه ومواقفه سياسة منه وطمعا فى انقياد الناس بسببه ، فلما قتل محمد بن ناصر بصحار ، رجع بنو غافر ومن معهم بسيف بن سلطان الى نزوى ، وذلك حين ما بلغ الحلم . قال : فأقامه القاضى ناصر بن سليمان بن محمد بن مداد إماما للمسلمين يوم الجمعة بعد الزوال فى العشر الأوائل من شهر شعبان من سنة أربعين ومائة وألف . قال : وإنما قدموه إماما لتقدم ولايته بسبب ولاية أبيه ، فإن أباه كان إمام المسلمين ، وكانت ولايته على رعيته واجبة وأطفاله تبع له فى ذلك حتى يبلغوا الحلم ، ويحدثوا حدثا يخرجهم من الولاية عند المسلمين ، وقيل إن البالغ منهم يكون فى الوقوف حتى يعلم منه حال يوالى عليه أو يعادى عليه ، فتمسك القاضى بأحد القولين ، نظرا منه للأمة ، وطلبا للسداد ومحاولة لجمع الشمل ، ولاراد لقضاء الله ، ولا معقب لحكمه .

قال : فإن سيف بن سلطان لبث ماشاء الله ، ثم أحدث أحداثا لا يراضاها المسلمون ، فعزلوه ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وكان سيف بن سلطان قبل عزله طلب من الشيخ سعيد بن بشير الصبحى ، أن يزيد فى الجعل المقرر للإمام لمعاشه فى بيت مال المسلمين ، ويعرف فى العرف العام بعمان بالفريضة ، أى الشىء المفروض له والمقدر لمعاشه ، طلب سيف المذكور زيادة على من سبق من الأئمة قبله ، وكان أمر المعاش منوطا بنظر المسئولين فى الدولة من خيار المسلمين الذين اليهم الحل والعقد منذ عهد الجلندى بن مسعود رحمه الله ، عملا بتقرير عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لأن الإمام بمنزلة الأجير فى بيت مال المسلمين ، ليس له أكثر عن حاجته الخاصة .

وكان المسلمون قد جعلوا للأئمة شيئا معينا لا يتجاوزه الإمام ، ولما نصب محمد بن ناصر الغافرى زاده المسلمون حين رأوا حاجته تتجاوز اللازم الذى يفرضه المسلمون سابقا ، فزادوه عليه نظرا منهم رحمهم الله ، وأراد سيف بن سلطان أن يجعلوا له مثل ما جعلوه لمحمد ابن ناصر ، وكان الوالى سالم بن راشد البهلوى قد ألح على الشيخ الصبحى فى ذلك ، فقال له : لا بل فريضة آبائه لأن العاقدين الإمامة لجده الإمام ناصر بن مرشد رحمه الله ، لم يألوا جهدا ولم يتركوا اجتهادا ولو جاز لهم ، ووسعهم فوق الألف ، الذى جعلوه لجده الإمام ناصر لما بخلوا به ، فرحم الله الإمام الناصر ، كان أزهد القوم وأعلمهم وأتقاهم ، ولم تطل عينه الى رياش الدنيا ، ولم يغره حطامها ، ولا طالت إليها عينه بأكثر مما يسد جوعته ويستر عورته ، ويحفظه من العدو ، ويقيه الحر والبرد ، كانوا جعلوا له كل سنة ألف محمدية عملة ذلك العهد .

قال الإمام السالمى رحمه الله : ولو جاز لهم أن يزيدوه لما بخلوا عليه حاشاهم ، ولو لكل يوم ألف لو جاز لهم ذلك لجاز للإمام أخذه وقبوله منهم إذ لا غرم عليهم فى أموالهم ، ولا دخل على الإمام فى قبوله منهم إذ صار للعطاء المفروض فى بيت مال الله ، ولو جاز لهم ما اختاروه لجاز للإمام ما فرضوه .

قال الإمام : وأرجو أنهم أخذوا ما فعلوا تأويلا من قول الله عز وجل : (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) ، أى وسطا بين الحالين ، فإن القوام معناه ما تقوم به الحياة .

فقال الشيخ الصبحى للإمام سيف : هذه هى فريضة آبائك ، وقد

در آبائه الكرام ، وليته لم يتجاوز خطوهم ولم يخالف سيرتهم ، ولكن الأمر لله عز وعــلا وكل ما يفعل العباد يحفظ لهم عند الله جل شأنه ، فخذها سيدنا فريضة هنية وهبة برية لا وبية ، خارجة على حكم التقية ، ولا أعلم أن جدك الإمام سلطان بن سيف ، ولا جدك سيف ، ولا عمك بلعرب ، ولا أباك سلطان طلبوا ولا أخــذ أحد منهم زيادة على ما مضى عليه إمامهم الزاهد العبد الصالح ناصر بن مرشد ، وتلك فريضة كافية ، ومات عليها الأسلاف ، ولا أريد لك خلاف ما عليــه السلف ، فهــذا اختيارى ، والجهدة منى ، ولا خفت فى أمرك لومة لائم ، بل اخترت لك ما اختاره الله لمثلك من الأئمة ، واختار المسلمون لهم ذلك نظرا ومعونة ، وموافقة لكتاب الله •

قال سالم بن راشد : كيف جعلت فريضة الشيخ محمد بن ناصر أكثر من هذا ؟ قال الشيخ : أخاف أن يكون وقوعها على وجــه التقية والحلال أولى فى حكم الله وحــكم البرية ، وكان هذا نهار ٢١ شعبان سنة ١١٤٥ خمس وأربعين ومائة وألف للهجرة • قال : ثم غير السيرة بعد ذلك ، وعزلوه أى رأوا منه أشياء تخالف سيرة الصالحين قبله ، وهم إنما يريدون أن يحملوه على تلك السيرة الزاهرة والدولة الطاهرة •

قلت : أما أمر المعاش فيختلف باختلاف الأوقات غلاء ورخصا كما قرروه فى نفقة من لا يملك أمره ونفقة المرأة على زوجها ، ونفقة الأولاد على أبيهم ، وأن ذلك موكول الى نظر الحاكم الشرعى ، فيجارى فيه حالة الوقت ، فإن الأحوال تتحول من حال الى آخر ، ولكنهم رحمهم الله كانوا على سيرة سلفهم حراصا أشداء ، ولضبط النفس عن الشهوات أشد ، رضوا من الدنيا بقوت الأكل ، رحمهم الله ورضى عنهم •

ولمـا عزلوا الإمام للأحداث التى عدوها عليه راح الى نخل ، وكان الوالى فيها جساس بن عمر بن راشد الحراصى ، فأدخلوا بلعرب بن حمير الحصن وسيف بن سلطان بالبطحاء ، ولم يدروا بدخوله ومنعوا الحصن من سيف بن سلطان ، ونهض المذكور الى بطحاء وهى من وادى المعاول ، وأرسل خاله سيف بن ناصر الى مسقط فقبضها ، وأما بلعرب ابن حمير فأقاموه بنزوى إماما .

إمامة بلعرب بن حمير

لمـــا عزل سيف بن سلطان عن الإمامة ، بويع بعده بلعرب بن حمير ابن سلطان بن سيف بن مالك بن بلعرب اليعربي بنزوى ، وذلك فى سنة ١١٤٥ ، وقام معه فريق من أهل عمان ، وبقى فريق آخر عند سيف بن سلطان متمسكين بإمامته كما أرادوها من أول الأمر ، أى من يوم هــو صغير لم يبلغ الحلم . وهنا انقسم أهل عمان فرقتين ، فرقة آزرت الإمام الجديد ، وفرقة بقيت على ولائها لسيف بن سلطان ، فتولى الإمام نزوى وبهلى ، وأزكى وسمائل والشرقية وعمان الداخلية ، وبقى فى يد سيف بن سلطان مسقط والباطنة والرستاق .

الحرب يقيمها الإمام بلعرب على سيف بن سلطان

لمـــا رأى بلعرب أنه الإمام المقبول ، ورأى أن سيف بن سلطان مرفوض من الإمامة لأحداثه لزمه القيام عليــه ليرفع يده عن المملكة العمانية ، وليدخل فيما دخل فيه المسلمون ، وهو يرى أنه الإمام المؤيد من أول يوم ، وأنه الأحق بهذا الأمر لمـــا سبق من حاله ، وبيده نصف المملكة العمانية ، فإن مسقط والساحل كله يقوم مقام الداخلية ، وهنا يبتلى الله عباده حيث يخالف الناس أمر ربهم .

جهز الإمام بلعرب جيشا لحرب بني رواحة الذين يناصرون سيف ابن سلطان على الإمام العدل ، ولمـــا علم سيف بن سلطان بذلك جهز جيشا لمناصرة بنى رواحة ، وجعل قائده أخاه بلعرب بن سلطان ، والتقى الجيشان واصطدما فى وادى بنى رواحة ، وانهزم بلعرب بن سلطان وقومه ، وفروا إلا من تحصن منهم فى حجرة وبال ، فحاصرهم جيش الإمام بها ، وأمر بقطع نخل بنى رواحة ، الى أن رأوا ضرورة الانقياد والخضوع لمـــا لابد منه ، فأذعنوا ونزلوا على حكمه راغمين ، وبعد ذلك رفع الحرب عنهم وأذن لقومه بالرجوع الى أوطانهم ، وهدم بروجهم ورسم لهم خطة القهر والغلبة ، وأراهم ما يكرهون ، وارتحل عنهم بعد ما تحقق خضوعهم .

الزحف على بنى هناءة فى بلاد سيت

لما رجع الإمام بلعرب من تدويخ بنى رواحة رأى من المحتوم الزحف على بنى هناءة الذين ما زالوا طيلة تلك الأيام اليعربية منذ عهد الإمام ناصر بن مرشد ، وهم على حال مغالبة ومطاولة حتى صار عليهم ما صار ، وتقاتلوا هم ومحمد بن ناصر ، ووقع بينهم وإياه ما وقع ، وأحاط الإمام بلعرب بن حمير ببلاد سيت ، وقطع نخلها ودمر أفلاجها وهدم مبانيها حتى أخضعها لسلطانه راغمة ثم خرج عنها .

الزحف على جبرين وفيه بنو هناءة

كان سيف بن سلطان لما تولى الأمر أدخل بنى هناءة حصن جبرين وولاهم إياه ، فعضوا عليه وظنوا أنها أنشـودة أدركوها ، وعزة وصلوا إليها ، وأن هـذا الحال من هذا الإمام ضد ما كان عليه محمد بن ناصر فإنه كان يطاردهم ويستمر الصراع بينهم وإياه ، واذا بهذا الإمـام يعكس القضية فيوليهم المقام الذى جعله محمد بن ناصر غابه وعرينه ، فأذلهم هذا الإمام وأخرجهم منه ، وسيرهم بأمان الى أوطانهم مـع أهلهم وعيالهم وذراريهم وأمتعتهم ، أوصلهم الى بلدانهم وأراحهم فى الحال ، واستراح منهم وهدأت الحال بينهم وإياه ، والدهر يعمل ما يدق به العصف ويطيل به الخلف وهكذا الأيام نداولها بين الناس .

سيف بن سلطان يجر الأعداء على عمان

لمـا رأى سيف بن سلطان أن الأمور تسير فى غير صالحه ، طلب من أهل مكران نصرة على قومه أهل عمان ، ولم يبال بما يكون منهم فى الوطن والدين ، فجاءه رهط من البلوش أهل بنادق ، والتقاهم ولف جموعـه معهم ، وأقبل بهم على طريق الجو ، فالتقاهم بلعرب بجيشه العمانى ، ودارت رحى الحرب بينهم لاكثر الله من أدارها على هـذا الطريق ، واقتتلوا قتالا شديدا حتى كادت الهزيمة أن تكون على الإمام بلعرب وأصحابه ، ولكنهم صبروا وقاتلوا حتى لان الحديد من حرارة النار ، فانهزم سيف بن سلطان وجنوده ، ومزق الله شملهم وفرق جمعهم ، وركبهم العمانيون قتلا وأسرا وسلبا ، ومنهم من فر على وجهه ومات عطشا وجوعا ، ومنهم من لا يهتدى لطريق فتاه فى الأرض فهلك ، وسقط فى يد سيف بن سلطان ، ورأى أن عداوة أهل عمان تتجسم فى وجهه وأنه لا وجه له معهم لهذه الأحوال التى اقترفها وهو كذلك يرى أن العداء قد تناهى ، وأنه لا يزيله إلا غلبته عليهم ولا يمحوه إلا أمر يذل العمانيين ويقهرهم فيأتوا اليه خاضعين .

طلب سيف بن سلطان من العجم النصرة على أهل عمان

لما رأى سيف بن سلطان سقوط الأمر من يده ، وأن وراء ذلك الذل الذى يرمى به فى الحضيض ، طلب من ملوك العجم وأرسل أعوانه هذا الصدد ، ولا يدرى أن القوم لا يبذلون أرواحهم ، ويسفكون دمائهم لأجل سيف بن سلطان ، لكنهم يريدون ملك عمان إذ تذكرهم الأيام بعهدهم السالف فيها ، ولكنه غير مبال ، ولعله متمذهب بمذهب من يرى الكفر خيرا له من الغلبة والعياذ بالله .

ولما وصل طلبه الى القوم بادروا بسرعة ملموسة لإجابته ، عسى أن يدركوا محو هذه الأرسم العربية من أرضها ، أو اغتنا ما لديها على الأقل ، فجاء جيش العجم ونزل خورفكان آخر ليلة الخميس من شهر ذى الحجة سنة ١١٤٩ تسع وأربعين ومائة وألف للهجرة ، وقصدوا الصير ، فخرج سيف بن سلطان ليتلقاهم وترك فى مسقط عنه واليا ، وعلم بلعرب بن حمير عنه ، فحشد الجموع وخرج من نزوى أول شهر المحرم سنة ١١٥٠ خمسين ومائة وألف للهجرة .

والتقى الجيشان بالسمينى ، واجتمع سيف بن سلطان وبلعرب ابن حمير اليعربيان وأجنادهما فى غرة شهر صفر من نفس السنة المذكورة ، ووقع بينهم تناوش ، فقتل من قوم بلعرب الأكثر حتى آخر ذلك اليوم ، وانهزم بلعرب وقومه ، وأخذ كل مالديهم من عدة ولم يرجع أحد منهم إلا هرب عن الوقعة ، ولم يرجع أحد بشىء مما لديه من سلاح وعتاد وغيره ، وبعضهم ضل الطريق وتاه فى المضيق ، وقتل بعضهم

فى الطريق ، لأن المنهزم كل يتعاطاه لتأثير الهزيمـــة عليه عادة ، وضاع ذلك الجيش الذى قاده بلعرب فى هذه المرة بجامع ما لديه من قوة وقدرة وآله حرب ، ولم يرجع أحد بعد الهزيمة فكانت شر هزيمة .

وبذلك استولى سيف بن سلطان على الجو ، أى البريمى وضنك والغبى وأدت له الطاعة وأعلنت له الخضوع القبائل التى بهذه المنطقة الحساسة ، وأدت له هذه القبائل الى الظاهرة الخراج ، وســاق لــه الأموال العظيمة أهلها اتقاء لشر العجم الذين معه والغالب يتشفى من المغلوب كما يشـــاء ، وانساق العجم على أوجههم حتى دخلوا عبرى وأوقعوا بأهلها الشر العظيم ، قتلا وسلبا ونهبا ، وأخذت أموالهم كلها رغم أنوفهم ، وهذا فيمن اكتفوا منه بذلك ، وحملت نساؤهم وصبيانهم وذراريهم .

قال الإمام : وأصابهم ذل وهــوان ، ورجعت العجم الى مركزها بالصير بغنائمها من عمـــان ، قال الإمام : وأما سيف بن ســـلطان فإنه مر بقومه على بهلى وناوشته الحرب ، ثم خضعت له واصطلحت معه خوفا من عجمه المشـــار اليهم ، ولمــا سلمت له الأمر ولى عليها سالم ابن خميس العبرى ، ومضى فبات بطيمسا فارتاع منه أهل نزوى حتى الذين فى قلعتها ، ففضلوا الهرب منها خوفا من سيف بن سلطان حتى كاد بلعرب بنفسه يخرج من الحصن مرتاعا لمــا شاع بينهم من الذعر ، إلا أن سيف بن سلطان لم يقصد نزوى ، بل جاء منح ثم أزكى ثم سمائل ،

وأناخ بفلج العد المعروف الآن بالمدرة أعلى سمائل ، وطلب قبائل وادى سمائل ، فواجهوه هناك ولبوا دعوته ، ثم توجه لسكد ولم يتعرض للحصون بل أعرض عنها سياسة منه ، ثم انتقض أهل الغبى وقام معهم بنو غافر فاستولى بنو غافر على الغبى ، وخرج الوالى منها ثم جاء أهل بهلى الى بلعرب بن حمير فأدخلوه واستولى عليها .

سيف بن سلطان يواصل جيوشه من العجم على أهل عمان

لـــا رأى سيف بن سلطان أن عمان قلته وغير راغبة فيه لهذه الأحوال التى رآها الناس والنوايا التى يتحسسونها منه ، وهو قد خرق حجاب الشرف وكسر جسر الإيمان ولم يبال بما يلاقى تبعا للملوك الجورة ، وقد رأى محمد بن ناصر وحروبه بعمان ، وهو دائما معه لا يفارقه ولم يره يوما يميل الى أعــداء الدين والوطن ، ولكن كان أول اليعاربة خير أول وها هو الآن يريد أن يكون آخرهم شر آخر ، فسبحان الذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى •

فإن سيف بن سلطان طلب من ملك العجم زيادة جنود فأرسل اليه رهطا عديدا من عتاة القوم ، فجاءوا على طريق شيراز • ولـــا نزلوا الصير انضموا الى أصحابهم وتقوى بعضهم ببعض ، ونشـــط البغاة الظالمون ، وفى يوم التاسع عشر من شهر شوال من سنة ١١٥٠ خرجوا الى عمان على طريق البريمى والظاهرة ، ووصلوا الى بهلى وتحرك أهل بهلى لحربهم والتقاهم أبطالها فدارت رحى الحرب ، فقتل من العجم الكثير ، وكذلك من أهل بهلى بل الأكثر ، وانهزم أهل بهلى ودخلت العجم بهلى فى اليوم الثالث عشر من ذى القعدة من نفس سنة ١١٥٠ ، واستولى عليها وهرب أهلها ، وقتل من قتل من الأهل والصبيان والنساء والولدان والأطفال بغير مرحمـــة ولا بعض عطف حتى على الأطفال الضعاف ، وسلبوا جميع ما فى بهلى ، وعلى كاهل سيف بن سلطان جريمتهم يوم القيامة وإن الله ليجزى كلا بعمله والله المستعان على هؤلاء الجورة الذين لا يراعون الحق ولا يشمئزون من الباطل •

العجم يعيثون فى نزوى

لمـا أنهى العجم أمر بهلى خرجوا الى نزوى ليعملوا عملهم الذى جاءوا له ، وقد تركوا حامية فى بهلى ، وكان خروجهم لنزوى أول يوم من شهر الحج من سنة الخمسين ومائة وألف ، وقد ضاق ذرع أهل نزوى من هـذا العدو الداهم ، وكان أهل عمان فى تيه بنى اسرائيل لا يهتدون لشىء مما ألم بهم ، ولم يتحركوا لمناصرة إخوانهم ومعاونة أخدانهم ، وقد سمعوا ما حل بجيرانهم ، وأنه لاشك نازل بهم بل غاية أمرهم أن يكونوا مع العدو المهاجم حتى ضاق الحال ببلعرب بن حمير فى قلعته التى هى الحصن الحصين ، فاستولى الرعب على الكل فهرب بلعرب كما هرب غيره ، وبقيت البلاد ولا مدافع للعجم ولا منازع ، والتجأ بلعرب بوادى بنى غافر .

وكان بالقلعة بنو حراص فثبتوا فيها ، ولم يتزعزعوا منها ، وخضع بقية أهل نزوى للعجم وصالحوهم على ما أرادوا منهم ، فلما تمكن العجم من نزوى ، ورأوا أن أهلها استشعروا الذل والخوف ، وضعوا عليهم الخراج وامتصوهم ، ثم عذبوهم أشـد العذاب فقتلوا الرجال والنساء والأطفال والكبار والصغار لقصـد الإرهاب وبث الروع والخوف فى الأرض .

قال الإمام رحمه الله : وحملوا من النساء من أرادوا حمله ، وفعلوا فى نزوى أفعالا قبيحة ، وأذاقوهم أليم العذاب حتى قيل إنهم قتلوا من أهل نزوى مقدار عشرة آلاف من الرجال والنساء والأطفال .

قال الإمام : ولم يسلم من أهل نزوى إلا من قدر على الهرب وهم

القليل والله المستعان . قال الإمام : ولسيف بن سلطان من ذلك النصيب الأوفر من الوزر ، حيث قاد اليهم الأعداء ، ونسى ما فطه آباؤه وما وقع فيهم من آبائه الكرام ، وظن أنهم ينصحون له وهم أعداؤه .

قال الإمام : وما ينتج رأى السفيه إلا مثل هذه الأفعال القبيحة ، قال ولم تقدر العجم على القلعة .

قلت : لا سيما وهى جديدة العهد ، وليست لديهم النسافات المصرية ، ومن حسن الحظ لأولئك السادة الأمجاد ، بقاؤها ذكرا لهم بعمان .

قال الإمام : وكذلك الحصن لم يقدروا عليه ، لأن القلعة هى الحامية له ، وقد بلغ العجم أربهم من نزوى حيث لا دافع لهم ، وإنما بقيت القلعة حامية نفسها فقط ، ومازال العجم فى نزوى يعيشون فى ذلك الحرم الذى يغار عليه كل من فى قلبه ذرة من إيمان بعمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن من الناس ناسا مفاتيح للخير مغاليق الشر ، وإن من الناس ناسا مفاتيح للشر مغاليق للخير » . الحديث . فكان سيف بن سلطان مفتاح شر لعمان ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ثم خرج العجم من نزوى يوم ستة عشر من شهر الحج بعدما حجوا فى نزوى وقضوا مناسكهم فيها الى أزكى ، فصالحهم أهلها وأدوا لهم ما أرادوا منهم ، ثم الى سمائل والى الباطنة بعد خروجهم من أزكى لم يقفوا فى سمائل ولا فى غيرها حتى دخلوا مسكد فى اليوم الرابع والعشرين من ذى الحجة من نفس السنة ، واحتووا على البلد وما فيها ، ولم يبق سوى الحصنين الجلالى والميرانى ، وحاصروهما واحدا وأربعين يوما حتى يوم الخامس من صفر من سنة ١١٥١ واحد وخمسين ومائة وألف للهجرة ، ولم ينجحوا فيهما ، ثم خرجوا من مسكد ومضوا الى بركا وصحار .

قال الإمام : فرد شر سيف بن سلطان عليه ، جاء ليقهر بهم صديقه الذى يزعم أنه عدوه ، فطلبوا قهره بنفسه ، وحاصروا حصونه وهرب هو عنهم فى مراكب فى البحر حتى نزل ببركا ، وخرج الطو وتلقاه أهلها بالكرامة وصحبوه الى نخل ، ثم توجه الى الظاهرة والتقى هو وبلعرب ابن حمير بوادى بنى غافر ، إذ كان بلعرب هاربا عن العجم من نزوى لما وصلوها الى بنى غافر ، ولم يزل معهم حتى هذا العهد ، وإذ ذاك قام بعض مشايخ بنى غافر ومن معهم من بقية شيوخ القبائل ، وقاموا لبلعرب يستعفونه من الإمامة ويرجعوها لسيف بن سلطان رضاء له ودفعا لشره وقطعا للمفسدة العظمى ، وإنما كان هذا من رؤساء القبائل وشيوخ البلدان الذين رأوا الأعمال التى سلفت وهو بسببها ولم يشترك معهم أهل العلم والفضل .

قال الإمام : فما بلى أهل عمان بهذا البلاء إلا بمخالفتهم لأهل العلم وأهل الفضل ، فإن أهل العلم يدعون الى الحق والى ما أوجب الله على عبادب ، وأهل الدنيا يدعون الى شهواتهم وما ينالونه من حطام دنياهم ، فإنهم لا يعرفون الحق ، ومن عرفه يفضل وجهة الطمع على وجهة الدين ، وبعضهم يرى أن أمر الدنيا مقدم على أمر الدين ، لأن الدنيا هى كرسى الدين ، ولا بأس اذا كانت الدنيا تأتى من ناحية الدين ، أما إذا كانت تأتى من حضيرة الشيطان ومن شر بنى الانسان فلا خير فيها بل فيها الشر فنعوذ بالله مما لا يرضاه الله .

سيف بن سلطان يتغلب على الأمر بعمان

لما كان سيف بن سلطان لا يبالى بما يأتى وما يذر ، ولا يفتكر فى حق ولا باطل ، بل غاية ما عنده نيل السلطة مهما كانت وكيف كانت ، ورأى الناس الأحوال خارجة عن نهج الحق ، وأصبح أهل عمان يئنون ويبكون على الواقع فيهم من القتل ومن سبى ذراريهم ونسائهم وولدانهم ، وتدمير منازلهم ونهب أموالهم ، وتبدل حبهم لليعاربة وتوقيرهم إياهم للأعمال التى لاقوها من سيف بن سلطان وعجمه ، إذ قتلوا من أهل نزوى خاصة أكثر من عشرة آلاف قتيل غير المسبيين ، وتبدل الحال الأول بهذا الحال الحالى ، وتأثر الناس بذلك ، لم يعد الحب السابق لهذه العائلة التى هذه أفعالها .

وإذ ذاك اجتمعوا حين رأوا المكروه ولا يدرون ماذا يكون من هذا الذى غير الوضع وكدر الصفو ، وأوقع الناس فى المآسى الكبيرة ، وصاروا هنا يداً واحدة رغم الواقع ، ورأوا انقطاع العجم الذين خرجوا من مسقط وأصبحوا فى بركا وصحار ، وبقيت بقية قابضة على ناصية بهلى ، وانقطعت عنهم أخبار أصحابهم ، بعثوا منهم قدر مائة نفر فرسانا ليأتوهم بخبر أصحابهم ، وأين هم الآن ؟ وماذا الذى اقتضاه نظرهم ؟ فإن هؤلاء فى قلب الداخلية .

وكان قصدهم أولا مسكد ليعلموا ما هم عليه هناك ولما نزلوا وادى سمائل ، تلقاهم أهل وادى سمائل ، وحمير بن منير بقومه أول النهار يوم ثامن من شهر صفر ، فقاتلوهم وقتلوا أكثرهم ، ثم صار حمير بن منير بمن معه من العسكر وأهل أزكى وبنو ريام الى بهلى يوم تاسع عشر من صفر ، ودخلوها يوم واحد وعشرين ، واستولوا عليها ؛

واحتصن العجم بحصنها فحاصروهم ، ولمـا اشتد عليهم الحصار خرج فريق منهم ولعلهم يريدون بذلك الخروج التخفيف عن المؤنة التى عندهم ، أو يريدون التسلل شيئا فشيئا ، فلمـا خرجوا اعترضهم المحاصرون لهم ، فقتلوا أكثرهم وبقى من بقى منهم ، لم يقدروا على الخروج من الحصن ، لأنهم يعلمون أنهم بخروجهم مقتولون جزاء ما فعلوا فى البلاد ، وبقوا فى حصنهم ، وجـاء سيف بن سلطان ومن معه فأخرجوهم بسلاحهم ومتاعهم ودوابهم ، وأوصلهم سيف بن سلطان بأمان ، لأنه جاء بهم وهـو السبب فى مجيئهم ، وأصحبهم مبارك بن مسعود الغافرى الى صحار كخفير لهم من طرف الإمام ، لا بارك الله فى تلك الإمامة التى هـذا عملها .

وفى كلام شكيب : أن سيف بن سلطان التجأ الى نادر شاه صاحب فارس ، وساق العجم لحرب عمان باسمه ، وذكر الحوادث التى ذكرها التاريخ العمانى كما هى ، وكانت تلك أعمال سيف بن سلطان فى عمان ، وتبدل حال عمان من مجد مشرق بلغ رأس الرجاء الصالح ، ثم أصبح بلاء وبيلا ، عم الصالح والطالح ، وهذه الفروق التى تمتاز بها الرجال وتختلف لديهم الأعمال ، ولكل درجات مما عملوا ، والله يتولى من عباده الصالحين .

قال شكيب : إن سـيف بن سلطان مازال يخشى ابن عمه بلعرب ابن حمير ، فاستمد العجم فأنجده بجيش تقدم الى الظاهرة ومعهم سيف ابن سلطان المذكور وجماعته ، قال : فتغلبوا على بلعرب وأفحشوا فى القتل والنكاية حتى رجع سيف الى نفسه ، ورأى عداوة ابن عمه أهون عليه من صداقة العجم ، فانحاش الى مسقط كما قدمناه أنه جاء بهلى ، ثم منح وأزكى وسمائل ، حتى جاء مسقط وذلك حين رأى أن الأمر بيـد

العجم لا بيده ، ولا يلتفتون الى أمره ، وهم إنما جاءوا لغرض الانتصاف ، وأخذ الثأر من أهل عمان لما سلف من الأحوال التى لايزال التاريخ العمانى يرتلها عن العهد القديم ، ثم جددته الدولة اليعربية الزهراء ، وقادت الأعداء من أنوفهم راغمين ، إلا أنها لم تفعل شيئا لم يأمر به الشرع ، حتى جاء دور سيف بن سلطان ، فدمر موارد الشرف المورودة ، ثم قضى على المجد العمانى حين ساق له من يبتلعه منه ، وهو يرى ولا قدرة له على أمر ولا نهى ولا حركة ولا سكون ، وأصبح العجم يحتلون الحصون منه برغم رغبته •

قال : ولبث العجم يجتاحون البلاد ، ويوقعون بالأهالى ، حتى قام بنو غافر على بلعرب وأجبروه على التخلى عن دعـواه الإمارة ، ومبايعة سيف بن سلطان بدون منازعة ، قال : فلما ثقلت حملة العمانيين باتفاق كلمتهم على العجم ، جلوا عن البلاد إلا الجيش الذى كان أمام صحار ، فإنه بقى يحاصرها وفى هاتيك الأثناء قام رجل فى مدينة نخل اسمه سلطان بن مرشد من بنى يعرب ، فادعى الإمامة سنة ١١٥٠ الموافق سنة ١٧٣٨ ، وانتزع البلاد من يد سيف بن سلطان ومن جملتها مسقط ، قال : فاستغاث سيف بالعجم ووعدهم بالتخلى لهم عن صحار إن ضمنوا له الاستقلال بالإمامة ، قال : فسرح العجم جيشا الى مسقط استولى على البلد والحصون ، قال : ولكنهم لم يسلموها الى سيف ، فذهب هذا الى بلدة الحزم ومات بعد ذلك بقليل ، قال : أما سلطان بن مرشد فمات على أثر جراحة فى قتال العجم عن صحار •

هذا كلام أمير البيان شكيب المصرى ، وهو يتلقى الأنباء من بعيد ، وأكثرها من كتب الأجانب ، فإن الحروب التى خاضها سيف بن سلطان أعرف بها أهل عمان ، قالوا : إن العجم الذين انكسروا من مسكد ساروا الى الصير ، وفيها إخوانهم وركب منهم أناس الى بلدانهم ، وبقيت منهم

بقية بالصير ما شاء الله من الزمان ، وسار إليهم سيف بجيش عظيم من البر والبحر ، وسير إليهم المراكب من البحر ، فلما وصل بلدة خت بالخاء المعجمة والتاء المثناة من فوق وهى قرب الصير ، جاءه الخبر أن مركب الملك ، بسكون اللام ، أحد مراكب الدولة اليعربية قد احترق وغرق بمن فيه ، فعزم على الرجوع ، إذ هذه فادحة هامة ، فإن هـذا المركب هو الأسطول الضخم فى الدولة ، وهو أكبر البواخر المهمة ، وفيه الأموال والرجال والسلاح والعتاد ، فرجع سيف بن سلطان عن العجم الى عمان ، وبقوا هم بالصير ودانت له جميع حصون عمان ، وأدت له الرعية الطاعة .

فلبث على ذلك الحال مدة ثم ظهرت منه أحداث لم يرضها المسلمون ، قال الإمام : ولا رضوا مبدأ أمره ولا منتهاه ، ووضـع الخراج على الرعية ، واتفقوا على غيره فنصبوا سلطان بن مرشد .

إمامة سلطان بن مرشـد اليعربي

قال الإمام رحمه الله : هو آخر أئمة اليعاربة فيما انتهى الينا علمه .

قلت : ... سيأتي بعده بلعرب بن حمير المخلوع لأجل سيف بن سلطان فإنهم بايعوه مرة أخرى فيكون آخر أئمة اليعاربة ، أما سلطان ابن مرشد فإنه بويع بعد أن استغاث الناس والرعية من أحوال سيف ابن سلطان .

قال : فاجتمع من شاء الله من مشايخ العلم من بهلى ونزوى وأزكى ورؤساء القبائل من بنى غافر وغيرهم ، وأهل وادى سمائل ومشـايخ المعاول ، واجتمعوا فى نخل وتناظروا فيمـا بينهم ، فاتفقوا على إمامة سلطان بن مرشد وعقدوا عليه بعد الاتفاق بجامع نخل ليلة الحج ، أى ليلة عرفة التاسعة من ذى الحجة سنة ١١٥٤ أربع وخمسين ومائة وألف ، فقام بأمر الله واستقام بحمد الله على الحق والعدل ، وخاضت له الحصون ، وهى كما قلنا عنها سابقا يراد بها طاعة البلاد كلها ، لأن الطاعة وعدمها منوطة بالحصون التى هى الحجة فى المملكة العمانية إذ ذاك ، بخلاف عهدنا الحالى حيث الأوضاع تغيرت ، وأصبحت ترمى من السماء ، وبذلك أصبحت الحصون غير كبيرة الأهمية حيث لا تحصن من فيها ، بل ربما صارت وبالا على أهلها كما شاهدنا فى عهدنا الحالى ، ونحن على رأس القرن الرابع عشر للهجرة ، وقبل هـذا كله كان المعول على الحصـون وكان التطاحن والتنافس عليها .

فسبحان من يظهر بدائع ملكوته فى كل آن وهو على كل شىء قدير .

سيف بن سلطان يستعد لمصادمة الإمام ثم ينهزم

لما علم سيف بن سلطان اجتماع أهل عمان على سلطان بن مرشد ، وقد قلدوه الزعامة الدينية ، ووضعوا على هامته تاج الإمامة ، أيقن أنهم عادوه وباينوه ، وعلم بل تحقق أنهم قادمون عليه فى رستاقه ، تجهز للحرب وضرب معسكره أعلا فلج الميسر من علاية الرستق ، لأن طريق القادمين من هناك وبقى متأهبا فى شدة ، ثم دخله الرعب وتصور فى نفسه غلبتهم عليه ، إذ كان اجتماع المسلمين مع إمامهم لله وفى الله ووقع الخوف فى نفسه ، واستشعر العجز عن مقاومتهم ، فعند ذلك فضل الهرب عن أصحابه .

فلما جن الليل انسل الرجل من معسكره تاركا فيه كل حاجاته لئلا يعلم أحد من القوم بهزيمته ، ولما وصل الإمام سلطان بن مرشد أعلا الرستاق ، حيث المعسكر المشار اليه صباح الجمعة آخر شهر شعبان ، لم يجد مقاومة وتحقق أن السيف أغمد وكفى الله المسلمين شره ، ودخل الإمام الرستاق على حال هدوء واطمئنان ، وتلقاه أهلها بصفاء القلوب من غير أن يرى من أحدهم شيئا ، وقابلوه بالكرامة ، ودخلها بحال السلامة ، ولما رأوه أهلا للإمامة ، ووازروه وناصروه ، واحتوى على جميع علائق الرستاق ، ولم يبق له معارض إلا حصنها فيه عبيد سيف بن سلطان ووالدته وبعض عياله ، فخاطبهم الإمام بالنزول من الحصن ولم يقبلوا ، وفى أنفسهم رجاء لسيف بن سلطان ، فحصرهم الإمام وأحاط الجيش بهم من كل جهة ، ومازالوا على ذلك الحال ، والجيش محاصر لهم ، وبقوا شهرين وعشرة أيام ، ولما لم يروا من سيف بن سلطان حركة ، نزلوا من الحصن وتولاه الإمام .

وانكشف بعد ذلك أن سيف بن سلطان فى مسقط ، وكان قد جمع قوما من مسقط ومطرح والسيب وبركا ، وعسكر ببركا وبعث الإمام له بعض قومه ، وأمر عليهم أخاه لأمه سيف بن مهنا اليعربى ، فتوجه بجيشه الى بركا فالتقاهم سيف بن سلطان بجيشه ، ودارت بينهم معركة حامية رهيبة ، أسفرت عن انتصار الإمام على سيف بن سلطان ، وقتل من جيشه القليل ، أما جيش سيف فهلك أكثره ولم ينج منه إلا القليل الذين انهزموا ، أو الذين ألقوا بأيديهم الى الإمام ، وانهزم سيف المذكور الى مسقط ، ورجع سيف بن مهنا الى الرستاق بالنصر المؤزر والظفر الأكبر .

ولما قر قرار سيف بن سلطان بمسقط ، جاءته ثيية أى جماعة مناصرة له هكذا فى العرف العام عند أهل عمان ، وهم بدو من طغام الظاهرة ، فنزلوا الحزم ، ولما علم بنزولهم طلع هو من مسقط وجمع من الباطنة قوما فجاءته جنود كثيرة ، من مرتزقة البدو وغوغائهم ، الذين لا يعرفون دينا ولا يتبعون دليلا من عامر ربيعة ، أجلاف لا خبرة لهم بحرب ، ولا غرض لهم إلا السلب والنهب ، وكان من قدر الله أن وقع بينهم شقاق وتنافس ، أثار الشر بينهم فاقتتلوا فيما بينهم وعمل السلاح عمله فانهزموا عن قتل ذريع فيهم ، ثم تنافروا الى أوطانهم وبقى بدو الظاهرة فى الحزم ، ورأوا أنهم على غير طائل من أمرهم ، وبذلك فضلوا الرجوع الى أوطانهم ، ولما تحقق الإمام سلطان بن مرشد سوء أمور سيف بن سلطان ، جمع قوما من الرستاق وتوجه الى نخل ... واستجاش أهلها وصحبه منهم الكثير ، ثم خرج الى بدبد واستجاش أهل وادى سمائل ، ثم وصل أزكى وجمع من رجالها رهطا هاما ، وخرج بهذا الجمع الى مسقط يوم الخميس ثانى ذى الحجة من هذه السنة ،

ولمـا وصل روى ضرب معسكره فيها ، وكان جيشه ضخما كثير العدد ، وكان نزوله روى ليله رابع ذى الحجة ، ثم خرج بقومه إلا القليل منهم تركهم فى روى حفظا للمعسكر ، ثم زحف برجاله على مسكد ليلا فهاجمها تحت ظلام الليل ، فأحدر القابضين للجبال وأنزلهم الى الأرض من ليلته تلك ، وتمكن من جميع مقابض مسقط من بروج وسيران وقلاع .

وتولى الإمام البلد إلا الحوتين الجلالى والميرانى ، وهما الحصنان المانعان وأرسل شرذمة من الجيش لحصن المطرح فاحتلته حالا ، وكان من أمر سيف بن سلطان هرب على طريق البحر ، ولمـا علم به الإمام أرسل فى طلبه مراكب إلا أنهم لم يتوفقوا فإن ريحا عاصفا هب عليهم دون ناحية خور فكان فغرقت بالقوم وتلاشى أمرهم وكان قائدهم بجاد ابن سالم ، فرجع بجاد بقومه الى مسكد ، أما سيف بن سلطان فانكسرت دقالة مركبة فى حوزة خورفكان قبل الوصول اليها ، فاستأجر سفنا أوصلته الى خورفكان ، ثم توجه بمن معه وهم فقط خمسة رجال ، وقيل ثمانية رجال ، وتوجـه من هناك الى العجم الذين بالصير ، ثم منها الى فارس ليعيد البـلاء على عمان ، ولمـا علم العجم الذين هناك تلقوه خيالتهم وحملوه على فرسانهم ، وبقى المركب هناك ، فتولاه أحمد بن سـعيد البوسعيدى الذى ورث العرش بعدهم كما سـوف يأتى إن شاء لله فى تاريخه ، وخرج سيف بن سلطان الى شيراز .

أحمد بن سعيد بن أحمد البوسعيدى
يبرز فى الميدان ليتولى ملك عمان

كانوا يقولون إن أحمد بن سعيد اتصل بسيف بن سلطان فى صدر دولته ، وإنه ولاه صحار لأهميتها فى ذلك الوقت ، لما رأى فيه من الكفاءة ، ويقول بعضهم إن سيف بن سلطان أراد مشيرا له فى أموره بصفة وزيرا يستعين به فى مهماته ، وكان أحمد بن سعيد تاجرا جمع ثروة وتحصل على أموال ، فاختاره سيف بن سلطان خصيصا لصدده .

قال شكيب فى تعليقه على حاضر العالم الاسلامى : وكان سيف بن سلطان محتاجا الى مشير يعتمد على رأيه ، فأشار الناس عليه برجل من التجار كان معروفا بالاستقامة اسمه أحمد بن سعيد من عترة يقال لها البوسعيد ، قال : فتولى هذا مدينة صحار ، قال : وأحسن ادارتها وحمد الناس طريقته ، قال : فحسده سيف بن سلطان على المنزلة التى نالها فى قلوب الأهالى ، قال : وأراد أن يقبض عليه إلا أن الناس أصلحوا بينهما .

وفى ابن رزيق قال : وقد عدم سيف بن سلطان الصديق الذى يفرج عنه الكروب ، فقال له رجل من خاصته : لا أرى لك اليوم للمساعدة رجلا حازما تقر به عينك إلا أحمد بن سعيد البوسعيدى ، فإنه هو فى الرأى الحميد نهاية ، وفى الشجاعة غاية ، فقال : أى سيف بن سلطان ، ومن لى به ؟ فقال له : أنا إن شاء الله آتيك به ، فكان من التوفيق المقرر للتصديق أن الإمام سيف بن سلطان ، قد أزمع المسير من مسقط الى الرستاق ، ثم منها الى نزوى ، واذا بأحمد بن سعيد مقبلا على

ناقته ، وكان الإمام سيف بن سلطان لم تسبق له معرفة بأحمد بن سعيد ، فعرفه به أحـد رجاله قائلا له : هذا أحمد بن سعيد الذى تسمع به . وكان الإمام على فرس فنزل الى الأرض وترجل كل من معه من رجاله ، ونزل أحمد بن سعيد أيضا ، فتصافحا باليدين ، وأخذ الإمام بأحمـد فجلسا فى ناحية عن القوم يتحدثان فيما بينهما ، ويقول الإمام لأحمد بن سعيد الى أين تريد ؟ فقال : للمطرح لقضاء أغراض خاصـة ، فقال : امض اليها ، واذا سمعت برجوعى من الرستاق الى مسقط فائتنى بمسقط .

فلما رجع الإمام سيف بن سلطان وسمع به أحمد بن سعيد أنه رجع اليها وفد عليه فأكرم مطه ، ثم بعثه الى الحسا لقضاء وطرله ، فمضى اليها وأتاه بما أراد ، فشـكر صنيعه ، وأكرم وأدنى محله الى أن قال : فلما رآه أهلا للولاية ولاه مدينة صحار وأعمالها ، أى ومن أعمالها الطرف الشمالى كله ، فتسيطر صحار على ذلك الجانب ، فتولى وتعزل وتبـدل وتغير وتسود ذلك الإقليم العمانى الى آخر حدود عمان ، لأن ذلك الحال كان لها من عهد الجاهلية ، إذ كانت هى كرسى عمان معا ، قال : فأظهر أحمد بن سعيد العدل والإنصاف بين الرعية ، وفشى إحسـانه وكرمه فيهم ، فأحبوه على ذلك ، وأتته قبائل الشمال والظاهرة أفواجا وفرادى وأزواجا ، فأكرمهم وأحسن اليهم .

ولا شك أن للكرم تأثيرا فى النفوس ، قال : وألان جانبـه لهم وساوى بينهم فى المعاملات ، قال : وقصدته شيوخ الجبور من الحفرى والحرادى وحى عاصم ، فرفع منزلتهم وأحسن اليهم ، وسرى صيته فيهم وعم البلاد وأذعنت له الناس بالانقياد ، وأظهر العدل ، فأثنت

عليه الأمة • قال ، فلما بلغ صنيعه ذلك الى الإمام سيف بن سلطان ، قال لبعض خاصته : والله ما فعل أحمد بن سعيد ذلك إلا لينفر الناس منى ، وليجعلهم اليه ، وأنه يحاول بهذا الشأن ليتولى الأمر عنى ، فإنى إن لم أعزله من ولاية صحار ليشقينى •

وكلاما مثل هذا مما يدل على تبرمه والحجة عليه أن واجبه هو هذا الحال فلم يعدل عنه ولم يترك الحق ويركن الى غيره ؟ وهو يتسمى بالإمامة وهو أبعد منها بعد الثريا عن الثرى ، وليس أحمد بن سعيد بمجرم ، إنما هو المجرم ، إنما فعل أحمد بن سعيد الواجب وتظاهر بما ينبغى ، فما باله الآن يتأثر بأفعال كان هو حقيقا بها •

قال ابن رزيق : فبعث له كتابا يطلبه فيه بالوصول اليه بمسقط ، فلبى دعوته فجاءه معه خادم يدعى مسعدا وهو لا يدرى ما عند سيف بن سلطان ، ولم يعهد أنه صدر منه ما يخالف الحق ، أو يحدث حدثا يوجب تغير الوضع بينه وبين سيف بن سلطان ، واذا بسيف بن سلطان ينوى الانتقام من أحمد بن سعيد ، وكان أمر خاصة عبيدة بقبضه وإيداعه السجن بالكوت الشرقى ، وربما رام قتله •

وكل هذه الأحوال تعسفات من سيف بن سلطان التى لا يبقى له معها عمل مرضى ، واذا كان قد ساءه عمل أحمد بن سعيد ، وأراد عزله فللعزل مناهج صحيحة وطرق لا يتبرم منها عامل ، فبالأمس عاملك واليوم ترميه للنار تأكله ، ليس هذا من الحق فى شىء ، ولكن الأمور عند إدبارها ترى الناس العجب فأحمد بن سعيد بالأمس جئت به لتنتصر

به ، وتستعين بآرائه ، واليــوم تعامله بسوء المعاملة ، وأنت تتسمى بالإمامة ، ثم إن عهد آبائك نصب عينيك لم تبل سرابيلهم ، وقد أبليت أنت سيرتهم وعملت بضد أعمالهم ، أما كنت غنيا عن هذا الحال .

قال ابن رزيق : وكان بيت الإمام سيف بن سلطان هــو البيت الذى صار بعده لداود المــاردينى ، قال : ولمــا وصل أحمد بن سعيد قرية روى جاء هو وخادمه من عقبة وادى الكبير حتى نزلا على الزبادية من ذلك الجانب ، فأناخا ناقتهما هنالك ، وقصد أحمد بن سعيد يريد الإمام سيف بن سلطان بنفسه فردا يظن أن عند الإمام شيئا من الأمور السرية ، فيتفاهم معه فيها .

قال ابن رزيق : حتى بلغ حذاء بيت جــده رزيق بن بخيت بن سعيد بن غسان ، وكان قد تلقى من الإمام ما يريده فى أحمد بن سعيد من سوء الفعل ، قال : وكانت بينهما مكاتبات ومراسلات ودية ، فسأله عن قصده فأجابه أنه جاء إجابة لدعوة الإمام له ، فأنذره رزيق وحثه على الرجوع والنجاة بالنفس من الوقوع فى الهلكة .

قال ابن رزيق : فقال أحمد بن سعيد لأبن رزيق المذكور : لعله يريد أن يعزلنى عن ولاية صحار ؟ فقال ابن رزيق : أجل ويريد أن يقتلك ، ولمــا تحقق أحمد بن سعيد ذلك من ابن رزيق هذا كر راجعا على أثره ، لأنه رأى صدق مقال ابن رزيق ، لأنه مطلع ودلائل الأحوال تؤيده ، وكان أحمــد بن سعيد يرى انهيــار صروح الدولة بأعمال سيف بن سلطان ، وقد صــار أحمد بن سعيد ســيد الطرف الغربى الشمالى بالسيرة الحسنة ، وبائتلاف الناس وتأليفهم ، فخرج من مسقط وعلى

وجهه حلة حنق وفى قلبه حقد على رجل يروم قتله فى غـير ما جرم ، وعلى الأقل يروم عزله فى غير ما سبب ، بعد ما تألف الناس وألفهم •

ولكن الرجـل كان ممن يدرى ويدرى أنه يدرى ، فعمل بالحزم وأخذ يمـد أياديه الى الحجر القوى ، ويأخـذ الأشياء من مظانها ويتهيأ للأمر الذى هو أكبر وهو الاستيلاء على الأمـور بيد من حديد ، وفتح أبواب السياسة وهيأ نفسه للرئاسة ، فاجتلب أهل البـاطنة وواثق أهل الحـد والعقد بالعمل المثمر ، وبسط يده لمن رآه من الرجال الذين يعول عليهم ، وقابل الأمـور بلوازمها ، وركز معالمه فى ذلك الأفق على القوى المعتبرة ، وربط الأمـور كما ينبغى ، وبقى يخايل الحـوادث بقلب لا يمل وعزم لا ينثنى ، يرى أن الناس قد اشمأزت من سيف بن سلطان وأعماله وأنهم نافرون منه مباينون لـه ، والذين معه إنمـا يجارونه تقية له خوف تعسفه ، والناس يبتلون بمثل هؤلاء الرجال الذين لم يكونوا للأمور بأهل ،وإنما عندهم إنمـا أنا ابن الإمام الفلانى أو السلطان الفلانى •

وهكذا ولا يفهمون أن فلانا صار سلطانا أو إماما بأعماله الحسنة ، وأن سـوء الأعمال يهدم الشرف ويسحق الأثر الجميل ، ويبقى أحدوثة السخرية ، وباختلاف العقول وتباينهـا تتباين الأعمال ، وتلك حكمة الله عز وجل فى خلقه ، وبهـا يتفاضلون وبمقتضاها يمتازون •

ومـا من شرف يكون فى أمة إلا وأصله فيها الصـلاح ، وتلك سنة الله فى عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا ، والله يعلم المفسد من المصلح •

وساق ابن رزيق القضية بين أحمد بن سعيد وسيف بن سلطان بلهجة العـامة ، وعلى أسلوبها الطويل الفارغ ، ولذلك ترانا نلخص القضية ونضعها فى أسلوب الناسب وعبارات لها قيمتها ، وإنما نأخـذ من ابن رزيق نفس المعنى ونضعـه فى قالب صحيح من نوع الوضـع العربى المعتبر .

ولمـا تحقق سيف بن سلطان ، أن ابن رزيق جد الشاعر هو أنذر أحمد بن سعيد ، وأعرب له عن نوايا سيف بن سلطان فيه ، ورجع الى صحار وعض عليها بالنواجذ ، وقرر فى نفسه ألا يخرج منها إلا اذا أرغمه القدر ، لأن سيف بن سلطان لم يعد يصلح لإدارة ملك أو لقيادة أمة ، لا سيما أن الأمة العمانية قد لفظته لأفعاله السيئة ، وعند ذلك تناول سيف بن رزيق وزج به فى السجن بعد ما هدده ، وظل المذكور يتلطف له وينكر إنذاره لأحمد بن سعيد ، وهذه هى فى الحقيقة واجبة على ابن رزيق ، حيث علم بقتل رجل مسلم على غير حق ، فبقى فى سجن سيف بن سلطان ثلاثة أشهر ، وكان سابقا من المعتمدين عنده والمقربين فى أعماله .

ثم طلب سيف بن سلطان أحمد بن سعيد مرة ثانية ، ليأتيه الى مسقط فتعلل له واعتذر بأعذار لا يسلم لها سيف بن سلطان ، لأنه الأمير وأحمد بن سعيد المـأمور ، وعلى المأموم أن يتبع إمامه ، ولمـا تحقق سيف بن سلطان إصرار أحمد بن سعيد على إجابته ، تجهز إليه فى أربعة مراكب من مراكب الدولة الكبار منها ، وما يدرى سيف بن سلطان أن الأمور تتحول بمعناها الكلى الى أحمد بن سعيد ، وأن فى الغيب مناديا

يناديه لها ، وأن عهد بنى يعرب قد آن انتهاؤه ، ولكل شىء غاية ينتهى اليها ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وأن الله يفعل ما يريد •

وخرج سيف بن سلطان بأساطيله الضخمة المشحونة بالمال والرجال ، والمجهزة بسلاح الوقت حتى أرست بجانب حصن صحار ، وأرسل سيف ابن سلطان الى أحمد بن سعيد بالوصول اليه ، فتوجه اليه فى قارب صغير يسير سيرا عنيفا ، وقد وقف الناس ينظرون الى هذا الشخص الذى له عند الإمام هذه الأهمية ، ولما قارب من مركب الإمام ناداه خدام الإمام ارجع الى حيث كنت ، فرجع فأخبر الإمام برجوعه بعدما دنى منهم ، فقال : اتركوه لعله نسى شيئا ذهب ليأتى به •

ومن هنا يدرك العاقل معنى الانقلاب من سيف الى أحمد ، حيث أصبح عبيد سيف بن سلطان يصرخون لأحمد بن سعيد بالرجوع الى مقره ، وبقوا فى انتظاره يومهم ذلك الى الغد ، وبقى سيف بن سلطان فى مراكبه ، وأحمد بن سعيد فى حصنه ، ولا يعرف أحد ماذا يكون وكل واحد من الرجلين يدبر أمره ولا يريد أن يتظاهر بالعداء السافر ، وكان سيف بن سلطان كل يوم يرسل الى أحمد بن سعيد يدعوه بالحضور ولا يرد له جوابا •

وشاع الخبر فى البلاد بالأزمة التى وقع فيها الرجلان ، فكان الناس ينثالون الى أحمد بن سعيد ، ويتكاثرون حتى ثار الجبور من الحفرى والحرادى وحى عاصم ، وكانوا كثيرا أعيانا فى بركا ، فجاءوا سيف بن سلطان فى أسطوله ، وتكلموا معه بشأن أحمد بن سعيد ، وأن الرجل متخوف منك ، ولن ينقاد لك وأنت على هذه الحالة ، واذا اختصمتما

فإما لك وإما عليك ، وما كان أحمـد بن سعيد مستحقا منك مثل هـذه المعاملة بعد ما صان البلاد وحماها من الأعادى ، وقام بواجبه فى حق الأمة ، ونهاية الأمر أصلح الجبور الحال بصالح أحمد بن سعيد ، ولعل ذلك كان عن تعارف بينهم ، فكان الصلح أن يواجه سيف بن سلطان هلال بن أحمد ، وهو أكبر أولاده •

وكا هلال رجلا عاقلا منظورا اليه فى الناس ، وهـو الذى قاد الحملة العمانية الى البصرة لانقاذها من براثن الفرس ، كما سوف يأتى ذلك فى محله إن شـاء الله •

فواجه هلال بن أحمد عن أبيه ، وعلى أن يبقى هلال عند سيف بن سلطان نيابة عن أبيه ، وأشاعه الى الناس عن اتفاقهما ، فأكرم سيف ابن سلطان هلال بن أحمد وأجله ، فرجع سيف بن سلطان بأساطيله الى مسقط ، وهلال المذكور معه •

وكأن الحال أصبح على هدوء بينهما لا سيما أن عمان الداخلية فيها منافس كبير لسيف بن سلطان ، وهو الإمام سلطان بن مرشد اليعربى ، الذى احتل الداخلية كلها ، فلم ير سيف بن سلطان إلا احترام أحمد بن سعيد ، برغم ما هو فيه ، ورجع الى مسقط ولم يزل هلال كذلك يغدو ويروح عند سيف بن سلطان ، حتى جاءه الخبر أن العجم الذين طلبهم ، وصلوا خورفكان ، ووصلته كتب شاه العجم بذلك ، وإذ ذاك أذن سيف ابن سلطان لهلال بن أحمد أن يعود الى صحار ، فرجع هلال الى أبيـه أحمد بن سعيد ، وأخبره عما علم •

ولا شك أن أحمد بن سعيد أصبح فى أزمة أكبر من الأولى ، حيث

قد تخالف هو وسيف بن سلطان ، وأدى الحال بينهما الى ما علم كل أحد ، وهؤلاء العجم يكونون قوة لسيف بن سلطان ، فلعله يرميه بهم أحمد بن سعيد ليتشفى منه وهم نهمون الى صحار والى بطلها الكرار ، اذا ساعدتهم الأقدار ، وكان سيف بن سلطان وعدهم بها وهم يدعونها من قديم العهد ، ولهم رغبة الى الأخذ بناصيتها ، والتحكم عليها ، ولكن الأمور فى يد القدر والله ولى كل شىء •

العجم ينزلون خورفكان

بناء على طلب سيف بن سلطان النصرة من العجم للمرة الثانية ، جاءوا بجيش عظيم ونزلوا خورفكان ، وكان أحمد بن سعيد فى بلدة العوابى ، فزحفوا على صحار لأن أحمد بن سعيد استعصى على الإمام وباينه ، وليس الغرض الحقيقى هذا ، وإنما هو سحق أحمد بن سعيد ، لأن العجم رأته حجر عثرتها فيما تحاوله ، وأحاطوا بالحصن يضربونه بالمدافع ، وإذ ذاك سارت الرسل الى أحمد بن سعيد بالعوابى ، فجاء مسرعا واشتدت شكيمته على العجم ، ووقف لهم وقفة الليث فى عرينه ، وكان زحفهم على صحار حال وصولهم خورفكان ، واغتنموا فرصة غياب أحمد بن سعيد عنها لاثنتى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ١١٤٩ •

وشاع خبر وصولهم فى عمان ، فاستوحش الناس منهم وحشة لا مزيد عليها ، لما عرفوه منهم فى المرة الأولى ، وما فعلوه فى عمان فى عهد غير بعيد ، وهذه أفعال سيف بن سلطان المريرة التى تزيد الرجل بغضا فى قلوب الأهالى ، واشمئزازا منه ، ومن بقية اليعاربة الذين يمتون اليه بصلة ليمحى الشرف اليعربى ، ويهوى الى الحضيض الأسفل ، وكان العجم وهم على ما يقول ابن رزيق ، ستون ألفا انقسموا قسمين ، قسم تجرد لحرب صحار ، وقسم توجه بمعية سيف بن سلطان الى عمان عن طريق البريمى ، فكتب اليه بعض أهل العلم ينصحه عن هذه الأفعال ، ويؤنبه فيها ويبين له أحوال القوم ، ولم يذكر هذا الناصح باسمه خوفا من سيف بن سلطان وأعوانه •

ومن جملة ما قاله : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)،

واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له من الله ، (وإنه لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) ، هــذه مصيبة علينــا وعليكم ما أعظمها ، ورزية ما أشأمها ، فإن ظفروا طغوا وليسومونكم ســوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى المثل : اذا أتاك امرؤ أوغرت صدره فلا تأمنن مكره وكيده وغدره ، يشــير بذلك الى ما سبق من آبائه الأئمــة الكرام حال اصطلامهم لفارس وتوابعها ، قال : ألأنت نائم أم يقظان ؟ أم استولى على قلبك الشيطان ؟ أم لك حجة على المسلمين ؟ أم سلطان أتى لك أن تتولى قوما غضب الله عليهم ، وتبعث كتبك ورسلك قاصدة اليهم ، وتدعوهم الى حضرتك ، وترجوهم لنصرتك ؟ إنها لأكبر العبر لمن اعتبر ، أجهلت أم علمت ... فغفلت ما حل منهم فى جزيرة البحرين من قتل رجالهم ، وأخذ سفنهم قسرا ، وما صنع بكبيرهم مهراب سلطان ، ومن معه من عجم وزعاب ، وجرثومتهم محمد ابن عبد الله البحرانى ... الى أن قال : والله لو كانت القلوب لها أبواب ، وفتحت لوجدتم نيران العداوة تتقد ، ولظاها يخرج من خياشيمهم الخ ما قال ، ولكن النصح يؤثر ويقبل اذا كان فى النفس إيمان ، أما اذا كانت منهارة لا تعول إلا على هواها ، فليس للنصح مجال :

إنمــا تنجع المقــالة فى المرء اذا
صادفت هــوى فى الفــؤاد

ولكن نفس سيف بن سلطان زاغت عن الحق واستمرأت السوء .

العجم وحصارها لحصن صحار

رأى العجم أن أحمد بن سعيد هو الخط الذى يجب أن يمحى من صحيفة عمان ، فإنه البطل الذى لخطته جمرة حمراء ، وحية عسراء ، وقد رغب إليها سيف بن سلطان أن تكون صحار لها اذا نصرته لإثبات إمامته التى يحملها بلاء لعمان ، وقد شدد العجم الحصار لصحار ، وضربوا حصنها بالمدفعية التى معهم ، حتى كاد أن يتهدم من شدة ضربهم إياه ، وكانت مدفعيتهم ثقيلة جدا بالنسبة الى عهدهم ، ولما رأوا صموده لهم ووقوفه فى أوجههم كالطود ، أقاموا لهم بنيانا محاصرا للحصن ، وليكون ملجأ لهم ومعتصما ، ومن لأحمد بن سعيد ينصره فى أزمته ، وعمان الداخلية تتلاقى عليها موجات من سلطان بن مرشد ، وبلعرب بن حمير الذى خلع إرضاء لسيف بن سلطان ، وأن سيفا المذكور عدو أحمد ابن سعيد ، لا سيما أن العجم الذين جاءوا لمناصرته كانوا موعودين بصحار لهم طعمة على مناصرتهم ، وهم لا يزالون عاشقيها من العهد الأول .

قال ابن رزيق : كان عدد المحيطين بصحار ستين ألفا .

قلت : الصحيح عشرون ألفا ، والباقون توجهوا لعمان الداخلية مع سيفهم ليعيدوا له الملك .

قال : وعدد سفنهم خمسمائة سفينة ، قال : ومضت سرية منهم الى وادى المعاول غزاة ، فبلغوا دون مسلمات ، فهزمهم المعاول ، قال : ومضت منهم سرية الى قريات فقتلوا منها خلقا كثيرا ، وأسروا نساء وصبيانا ، فبعثوا بهم الى شيراز .

قال : ومضت منهم سرية الى مسقط ، وفيها سيف بن مهنا اليعربى والى الإمام سلطان بن مرشد ، فتلقاهم فى سيح الحرمل الذى هــو الآن مطرح الكبرى ، فدارت رحى الحرب بينهم حتى انكشفت عن ملحمة عظيمة انهزمت فيها العجم الى روى ، ثم كروا فى اليوم الثانى فقاتلهم سيف بن مهنا بمن بقى معه من العرب ، فقتل المذكور ، وقتل معه من اليعاربة ثلاثون رجلا ، ومن سائر قومه خلق كثير ، وقيل إن جملة قتلى العرب ثمانون رجلا ، ثلاثون من اليعاربة والباقون من بقية عسكره ، واحتل العجم المطرح ومســقط ، ثم زحفوا على الحصنين الجــلالى والميرانى ، وقام الصراع على أشده ، فانهزموا ولكنهم بقوا مسيطرين على البلاد ، والكوتان محصورتان ، حتى وصل اليهم ربعهم المحيطون بصحار ، فإنهم لم يزعزعوا من صخرة أحمد بن سعيد شيئا أبدا ، وعند ذلك تركوه وتوجهوا لمسقط عندما بلغهم أنهم فتحوها ، ولمــا وصل هؤلاء أعادوا الكرة على الكوتين مرة أخرى ، فاحتلوها وهلك أكثر من فيهما وعند ذلك تمكنوا من البلاد وعسكروا فيها ، ومن جملة الذين باعهم العجم أبناء جــد حميد المؤرخ •

الإمام سلطان بن مرشد يتوجه لحرب العجم الذين بصحار

لــما تحقق الإمام سلطان بن مرشد حصار العجم ، جمع جيشا توجه به لمناجزة العجم فى صحار ، لأن أحمد بن سعيد صار ضد سيف ابن سلطان ، وأن سيفا المذكور عدو الطرفين ، وأن العجم أعداء الكل ، خرج الإمام المذكور بجيشه مناصرة لصحار ولأميرها أحمد بن سعيد ، الذى لم يتزعزع عن مركزه ولم يخضع لجيش العجم ، إذ كان على استعداد كامل ، ولـما وصل الإمام الخابورة بلغه أن العجم بعثوا سرية منهم الى القصير القريب منها ، وأن أهل البلد خرجوا لهم بعدما رأوهم مشتغلين بالنهب ، فإنهم تمكنوا من البلد ، وقاموا ينهبون ما يلاقون ، فحينئذ كر عليهم أهل البلد ، فوضعوا السيف فيهم ، فكشفوهم وقتلوا الأكثر منهم ، ولم يرجع الى صحار منهم إلا القليل .

قال : وأمر أميرهم الخان الخائن بالغارة على صحم وما حواليها ، ومنها القصير أيضا ، فصادفوا الإمام سلطان بن مرشد ، فاقتتلوا هم وإياهم ، وسقط فى المعركة من فرسانهم الكثير ، ثم توجه الإمام بمن معه الى العجم الذين بصحار ، وعندما وصلوا وجدوا العجم قد تهيأوا لهم فى أكمل أهبة ، فقام القتال على أشد ما يعرف ، وكان جيش الإمام الذى وصل به صحار بالنسبة الى جموع العجم الذين بها ، ومن لف معهم كالشعرة البيضاء فى الثور الأســود ، وتعاطى الفريقان كؤوس الحمام ، فسقط من أمراء العجم كلب على ، وقتل من رجالهم المشــاهير كثير ، وقتل من العرب رهط الإمام مهنا بن سلطان ، وثلاثون رجلا من اليعاربة وأصابت الإمام أيضا جراحات من العجم ، لأنه باشر الحرب

بنفسه لقلة الجيش ، فتناولته سيوفهم ورماحهم ولكنه استطاع البقاء عليها حتى دخل حصن صحار الذى جاء لمناصرته عند أحمد بن سعيد ، فبقى فى الحصن يوما واحــدا ، وقيل عاش ثلاثة أيام فقضى الله عليه رحمه الله وغفر له وللمسلمين المجاهدين معه .

وكان سيف بن سلطان فى هــذه الآونة فى حصن الحزم ، والعجم تفعل أفاعليها فى عمان وأهل عمان ، فاسترسل بطن سيف بن سلطان ، ولم يلبث إلا أياما يسيرة فمات وانتهى أمر الرجلين ، والحرب قائمــة بين أحمد بن سعيد والعجم على ساقها ، ولم يروه فى يومهم إلا وهــو أشد من أمسهم ، وعنــد ذلك رأوا أنهم لا يقدرون عليــه ، فوهنت عزائمهم وضعفت نفوسهم ، ورأوا أحمد بن سعيد كل يوم يشتد ساعده وتقوى همته ، فطلبوا مسالمته وحاولوا النجاة منه ، وفضلوا الارتحال عنه ، فصالح قائدهم أحمد بن سعيد على الارتحال بما معهم ، وقنعوا من الغنيمة منه بالخروج عنه والإياب ، فأجابهم الى ذلك ، وقد استدعى أميرهم ومعه عشرة رجــال من أعيانهم ، فأدخلوا الحصن وأكرمهم ، وقدم لهم الطعام ، فلما أكلوا وشربوا واطمأنوا ، طلب أمــيرهم من أحمد بن سعيد أن يوسع لأصحابهم الذين بمسقط أن يخرجوا بما معهم ، كما وسع لهؤلاء ، فأذن لهم أحمد بن سعيد أن يحملوا ما معهم من آلة حرب وغيرها من أسبابهم التى فى أيديهم ، وطلبوا منه أن يحملهم الى بندر عباس فقال إن شــاء الله .

كلمة شرطية لا يعرف جراء شرطها ما هو ، وعند ذلك خرجوا عنه ، ولم يمكثوا فى البلاد أكثر من ثلاثة أيام ، وقيل يومين فقط ، ثم ركبوا سفنهم ومضوا الى بندر عباس .

أحمد بن سعيد يزحف الى بركا ليتولاها

لمـــا ارتحل العجم من صحار ، وصرف الله شرهم ، وغرب نجم بعيهم ، فلا يعود طالعا إن شاء الله ، خرج أحمد بن سعيد وعلى هامته تاج شرف يلمع فى وجوه الأعداء ، وعليه وقار المجد ، وقد تدرع هيبة ألفتت الأنظار اليه ، ورفعت معنويته فوق ما كان عليه ، وانتخب من رجاله ألفى رجل خرج بهم الى بركا ، وكان حصنها بيد المعاول فسلموه له ، ولعل تعارفا تقدم بينهم وإياه ، فتولى الحصن المذكور ، وولى عليه خلفان بن محمد السعيدى المعروف بالمحل ، ورجع هو الى صحار منتظرا للأمور كيف يكون وضعها ، وهل للعجم عودة فإن صحار أصبحت حديث السمر عند القوم .

أحمد بن سعيد يستعمر بركا ميناء لعمان بدل مسقط

رأى أحمد بن سعيد أن العجم الذين بمسقط قذى فى عينه ، لكن زوال ذلك القذى غير هين فى الحال ، ومن سياسته أن يتحين الفرص ، فاذا آن أوانها لم يضيعها ، ورأى الرأى أن يتركهم ومسقطهم الآن حتى تدق ساعة زوالهم منها ، ورأى مما يذلهم استعمار بركا كعاصمة وميناء لتجارة عمان ، فاذا قامت سوقها لم يأت مسقط أحـــد • وبذلك يظلم أفقها فى أوجه العجم ، وتنهار حياتها ، وبانهيارها يصبح العجم فى لا شىء طبعا ، فأقام فى بركا كل حاجيات عمان وضرورياتها ، وأن لو تحرك العجم إليها لكانوا فى أوهن من بيت العنكبوت ، فإنهم فى مسقط فى حصن منيع لإحاطة الجبال الشاهقة بها ، ولا سيما اذا سقط العدو المهاجم فى بطنها بقى الحصنان فى منعة ، أما بركا فلا لأن الحصن فى يد العرب ، وهى أرض ساحلية مكشوفة •

وكأنه لم يحب أن يتحرش بالعجم ، ولم يبتدئهم بحرب ، فانحاز الناس الى بركا للبيع والشرى ، وللأخذ والعطا ، وسارت اليها السفن من البحر ، وناقلات الأمتعة من عمان إبلا وحميرا وغيرها •

ففى التاريخ : وأقيمت الموازين فى بركا لوزن الأمتعة التى تجلب من الهند ومن عمان ، كما كانت تجلب الى مسقط أيام سيف بن سلطان ، وكان الوالى خلفان بن محمد بن السعيدى المعروف بالمحل ، هو العامل من طرف أحمد بن سعيد ، قال : فاستقامت فى بركا سوق راج فيها ما كان يروج فى غيرهـــا ، وقصدها الناس لحوائجهم من شتى الجهات ،

وانتقل إليها التجار من عمان ، قال : وانتهى اليها وفــود عمان والظاهرة للبيع والشراء ، وحمل ما يحتاجون اليه منها ، وبذلك انقطعت المـادة عن مسقط ، وسقط فى أيدى القابضين لها ، وضاق ذرعهم فيها ، وضجروا بمقامهم وانقطاع المواد عنهم ، فإن مسقط كما يعلم حالها ، واذ غير ذى زرع تحيط بها الجبال الجرداء ، وهيهات أن يأتيها العمانيون فى حالها ذلك ، وزاد فى ضعف العجم ارتحال أصحابهم من صحار .

ثم زاد خوفهم أيضا لمـا بلغهم موت سيف بن سلطان ، الذى جاءوا على اسمه ، فعند ذلك بعثوا رسولا الى الحزم يطلبون أقرب رجل الى سيف بن سلطان يصل إليهم بمسقط ، فلما بلغ أهل الحزم رسول العجم ، أرسلوا إليهم رجلا اسمه ماجد بن سلطان ، فلما وصل إليهم طلبوا منه أن يسير الى شيراز بكتاب منهم ، أن يسلموا اليـه البلاد ، ووافقهم فكتبوا له كتابا الى الشـاه يخبرونه فيه بموت سيف ابن سلطان ، وأن الواصل بكتابهم هو أقرب الناس الى سيف بن سلطان رحما ، وأنهم بقوا فى مسقط ومطرح فى أضيق حال ، وقد انقطعت العرب عن مسقط ، وانحصرت المـادة ولا شىء فى مسقط مما يعتاشون به ، وقالوا لمـاجد ، أظهر الطاعة للشاه ، أى تلطف له وجـدد بينك وإياه عهدا ، فإنه إن كتب إلينا بتخليص ما بأيدينا من معاقل مسقط والمطرح إليك نخلصها لك ، فأجابهم ماجد الى ذلك ، وخرج الى شيراز عن طريق بندر عباس .

فلما واجه الشاه وأعطاه الكتاب الذى زوده إياه العجم من مسقط ، وقرأه وفهم ما فيه أقامه فى دار الضيافة ثلاثة أيام ، ثم كتب له كتابا الى أصحابه الذين بمسقط يأمرهم فيـه بأن يسلموا ما بأيديهم من معاقل

مسقط والمطرح ، ورجع ماجد على الطريق الأولى ، ومن بنــدر عباس ركب سفينته التى جاء فيها فضربها الريح ، وثار عليها طوفان البحر وهى سفينة صغيرة لا تقدر على مصارعة أمواج البحر ، فقذفتها الأمواج الى صحار ، فمضى الى أحمد بن سعيد فى حصن صحار ، وأخبره بما جاء به من عند الشاه ، وأنه أمره تسليم المعاقل اليه ، فأخذ أحمد بن سعيد الكتاب منه ، وأرسل به أحد جماعته وهو خميس بن سالم البوسعيدى ، وأمره بقبض المعاقل المشار اليها ، وإن يظهر لهم أنه رسول ماجد وأنهم اتفقوا هم وماجد المذكور على حال صلح ولا فرق بينهم ، وإن ماجدا مقيم عند أحمد بن سعيد ، فســار خميس بن سالم ، ومعه أربعمائة رجل من رجال أحمد بن سعيد •

فلما وصل إليهم وعرض عليهم كتاب الشاه ، ظنوا أنه من جماعة ماجد بن سلطان ، وقد بثه ماجد إليهم فسلموا له المعاقل كلها ، فترك فيها خميس بن سالم أصحاب أحمد بن سعيد الذين جاء بهم من صحار ، قال : وكتب خميس بن سالم الى أحمد بن سعيد بقبض معاقل مسقط ومطرح من العجم • وقد أشار الى قضية ماجد أمير البيان ، حيث قال : إن أحمد بن سعيد هذا لم يكتف بتخليص صحار حتى استولى على بركا ، فحاصر مسقط ، فأرسل الإيرانيون ماجد بن سلطان من أبناء عم سيف ابن سلطان الى الشاه يلتمسون منه الأمر اللازم الى الحامية الفارسية بتسليم الحصون إليــه ، فوقع الأمر باتفاق غريب فى يد أحمــد بن سعيد ، فأبلغه الى الحامية وخرج هؤلاء على أنهم سلموا الأمر والحصون الى أحمد بن سعيد باسم ماجد بن سلطان ، والحقيقة أن أحمد تسلمها بالخديعة •

وقيل : إن أحمد بن سعيد لمــا رأى سفينة ماجد جاءت على غير قانون سير السفن ، استنكرها فأرسل جنده لها ، واذا فيها ماجد بن سلطان ومعه كتاب الشــاه ، فقبض عليه ثم سجنه ، وتولى منه الكتاب وأرسل به الى العجم ، هــذا الذى شــاع ، وهذا كله من حظوظ أحمد ابن سعيد ، حيث انساق إليه الإمام سلطان بن مرشد ، فمات فى حصن صحار عند أحمد بن سعيد ، ثم جاء الآن ماجد بن سلطان حاملا استلام مسقط ، فاستلمها أحمــد البطل الذى قام ليلتقط شــذاذ الملك العمانى عند تبعثره .

وبعد ذلك صنع أحمد بن سعيد وليمة عظيمة للإيرانيين فى بركا ، كانت نهايتها أن الأهالى هجموا عليهم وذبحــوهم ، ونجا فلهم بالسفن قاصدين ساحل إيران . قال : ولمــا كان ملاحة السفن هم العرب ، فإنهم أخرقوا السفن لإهلاك الإيرانيين الذين كانوا منهزمين بهــا الى بلادهم ، وقذفوهم أنفسهم فى اليم ونجوا بسباحة الى الشاطىء ، قال : ومهارة العمانيين فى السباحة واقتحام البحر معلومة ، وهكذا انتهت غزاة الفرس ببلاد عمان .

وفى التاريخ العمانى : أن أحمد بن سعيد استدعى العجم بصحبة خلفان بن محمد المحل الى بركا ، وبعث اليه ألفى رجل من رجاله الذين يعتد عليهم من رعايا صحار ، فإنهم أصبحوا أنصاره الخاصين ، وكذلك أهل بركا وطبعا أن والى المنطقة يكون فى أهلها طاعة وانقياد لا سيما اذا كان محسنا إليهم يصير محبوبا فيهم مطاعا لدبهم ، وهؤلاء الرجال أرسلهم أحمد بن سعيد الى خميس بن سالم والى مسقط فى هذه الآونة ليتركهم على مقابضها وحصونها عندما يخرج بالعجم الى بركا كمــا أمر أحمد بن سعيد ، ففعل خميس ما أمره به سيده أحمد بن سعيد ، ولمــا

وصل بركا ومعه العجم المشـــار إليهم ضربوا خيامهم بالقرحة لتحل عليهم قرحة الدمار ، وإذ ذاك بعث إليهم أحمـــد بن سعيد الضيافة ولخيلهم بالطعام .

قال ابن رزيق : أخبرنى أبى محمد بن رزيق عن أبيه جد حميد وهو رزيق بن بخيت بن سعيد بن غسان ، والشيخ معروف بن سالم الصائغ ، والشيخ خاطر بن حميد البداعى ، والشيخ محسن القصاب العجمى ، وقد دخل كلام بعضهم فى بعض .

أحمد بن سعيد يأخذ ثار العمانيين من العجم

قالوا لما رجع العجم من مسقط الى بركا فى صحبة خميس بن سالم السعيدى ، وفيها يومئذ أحمد بن سعيد ، أى فى بركا ضربوا مخيمهم فى القرحة ، وكان أحمد بن سعيد أعلن لأهل بركا بإكرام العجم المذكورين إكراما عاما ، وأن يتظاهروا بالرعاية التامة .

قال : فما يمر أحد على حلة من حلل بركا إلا ورأى فيها قدورا تفور بالطعام ضيافة للعجم من أحمد بن سعيد ، ولا يمر أحد بحلاو ــ والمراد به صانع الحلوى المعروفة فى عمان ــ فى سوق بركا ، إلا وهو يصنع الحلوى بأمر أحمد بن سعيد للعجم ، ولا يمر أحد بزراع إلا وراه يجز زرعه لخيل العجم .

قال : وما بات لأحد درهم أو فلس على أحمد بن سعيد ، فضلا عن دينار . قالوا : وكلام الناس على حدة يقولون : إن العجم لا يستحقون هذا الإكرام ، وإنما يستحقون أن تضرب أعناقهم بالسيف ، قالوا : وبعد ما خيم العجم ببركا لثلاثة أيام ، خرجت موائد كثيرة للعجم فى صوانى رحبة ، وهى الجفان التى يوضع فيها طعام الأضياف غالبا . قالوا : ودخل أكابرهم الحصن مع رسول أحمد بن سعيد ، أى خميس ابن سالم ، قالوا : وعدد الداخلين خمسون رجلا وهم أعيانهم ، قالوا : فما كان بعد دخولهم الحصن إلا ساعة من النهار ، حتى ضرب طبل فى الحصن ، ومعه منادى ألا من له وتر فى العجم فليأخذه منهم .

قال : فما استتم كلامه إلا والصائح يصيح من كل مكان ، فخرج

عليهم الصغير خلف الكبير ، من أهل بركا ، ومن انضاف إليهم من سائر البلدان ، فوضعوا فيهم السيف ، ففشا فيهم القتل ، وقام لهم كل أحد من جانبه ، فما بقى إلا قدر مائتى رجل يصيحون الأمان الأمان يا أحمد ابن سعيد ، فلما بلغ أحمـد كلامهم ، وارتفع إليـه ضجيجهم نادى المنادى من الحصن ارفعوا عنهم السيف ، فرفع عنهم وبقوا رهن الذل والصغار جزاء أعمالهم التى أوقعوها فى العمانيين ، وحصارهم لأحمد ابن سعيد ، وضربهم إياه بالمدافع ، ولو تمكنوا منه لقتلوه •

وقالوا : وأما أكابرهم الذين دخلوا الحصن فقد ضحى بهم الحصن فى ضحوتهم تلك ، وتركهم جزر السباع ، فذاقوا وبال أمرهم ، وغسل بهم أحمد بن سعيد عار العمانيين ، وأخذ بهم الثأر ، فإن ذلك الإكرام الذى تظاهر لهم به أحمـد بن سعيد ، أراد به تسكين نفوسهم وفك حزمهم ، وتفكك جمعهم ، فلما رأى العجم ذلك منه تناسوا ما فعلوه فيه وفى قومه ، واطمأنوا الى الهدوء الذى رأوه ، وما دروا أن الدم العمانى غال عند أهله ، وأن أحمد بن سعيد هو الذى يغار عليه عندما أضاعه سيف بن سلطان ، وكان من سياسته التى امتاز بها فى هذه البادرة أنه لم يكن منه لهم عهد ولا ميثاق فى اطمئنانهم ، فيقال إنه غدر بهم أبدا ، بل كان متلفتا ومحترزا مما يسجل عليـه وصمة فى هـذه الحادثة ، ولا طلب من أولئك الخمسين الذين دخلوا عليه ، لكنه كان متوقعا ذلك منهم حين اطمأنوا بين ربوع بركا ، ونسوا فعلهم ، ولم يهتموا بشىء من أمر العمانيين •

ولا شك أن الحرب خدعة ، ثم إن اللائذين به ، الصارخين له ،

لـما أر برفع السيف عنهم ، طلبوا منه التسيار فسيرهم فى سفن أهل بركا الى بنـدر عباس ، وفى الطريق التى جاءوا منها ، وخرج معهم العمانيون ، فلما لججوا بهم خرقوا السفن ، وتقاحموا عنها سبحا فى البحر ، فغرقوا جميعا ، وبذلك نال أحمد بن سعيد من العمانيين المكانة العالية ، وعظم شأنه فيهم ، وجل سلطانه وطار له صيت مـلأ الآفاق وتتوج هيبة الملوك على الإطلاق .

أحمد بن سعيد يعيد خميس بن سالم لمسقط

لا يخفى أن أهل مسقط لمـــا جـــاء العجم هربوا منها بذراريهم خوفا منهم ، ولم يبق إلا أعمى أو ضعيف لا يريد ولا يراد ، وتفرقوا فى الباطنة جماعات وأفرادا ، وبعضهم فى حطاط ، ولمـــا قر قرار الأمن بمحو رسم العجم ، أرسل أحمد بن سعيد خميس بن سالم عائدا لمسقط ليصلح من شأنها ، وأمر أن يصحبه كل من كان يسكن مسط والمطرح .

فلما وصل خميس ومن معه لم يعرفوا حدود بيوت الأهالى الخارجة من السور ، إذ خربتها خيل العجم إذ كانت غالبا مبنية بالسعف والجريد ، فأكلتها خيل العجم ولم تبق منها باقية ، وعاثت فيهـــا إذ كانت مطلقة لا تربط حيث يحيط بها ســـور من الجبال المنيعة ، واذا بأرواثها ملء الأماكن ، وقامت الفتنة بين الأهالى وأشهر والسلاح على بعضهم فى وجه خميس بن سالم ، ووقع القتل ولم يقـــدر خميس على منعهم حتى انكشفت الفتنة عن ستين قتيلا .

وبعـــد الشقاق واضطراب الأمـــر ، سكن خميس نارهم بالتعب والنصب ، وقسم خميس المنـــازل والأمكنة التى لم تعرف بينهم على التحرى ، وبارى بينهم فى الدماء التى سفكت ، وقاموا بعمرانها من جديد ، وخططوها على أهلها . وكان خميس بن سالم هـــو الوالى ، وتراجع الناس إليها ، وقامت سوقها هى والمطرح ، لأن المطرح وليدتها فى الحرب والسلم ، أمرهما واحد وعاد العمانيون إليهما .

أحمد بن سعيد يزحف الى الداخلية

لما اطمأن أحمد بن سعيد من العجم فى الحال ، زحف بجيش كثيف الى الداخلية ليضمها فى يده كما وضع مسقط العاصمة ، وليجمع شمل الكل فى إطار عزيمته ، خرج الى الرستاق فسلمت له ، وكيف لا تسلم له وقد عرفته العبقرى الكريم ، ثم مضى الى سمائل ، وأذعنت له تماما غير ناظرة فى شىء ما .

ثم ارتفع الى أزكى فألقت اليه مقاليدها راغبة ، فقبضها بغير نزاع ، وإنه للكفؤ الكريم ، ثم مضى الى نزوى فصافحته بأكفها مصافحة الود والرضا ، ثم توجه لبهلى وهى منتهى القصد ، وقد تأهبت للقياه بإخلاص وصفا ، لم يجد من هذه البلاد كلها إلا الرضا به سيدا كريما ، وهماما عظيما ، وعليه علم العدل يرف ، ويد الإحسان مبسوطة البنان ، والسيف والسنان جمال الميدان ، وكان سليمان بن محمد بن عدى اليعربى واليا بسمد الشان ، فأتاه يحمل الخضوع والإذعان .

وكان قد ولاه إياها الإمام سلطان بن مرشد ، فقبضها أحمد بن سعيد ، وولى سليمان المذكور حصن نخل ، وتعاهد أحمد بن سعيد ، وسليمان بن محمد ألا يخون أحدهما صاحبه ، وتولى أحمد بن سعيد ملك عمان بغير معارض أو منازع ، وأصبح هو الحاكم المطلق فى عمان كلها .

قال ابن رزيق : فهذا سبب انتقال الدولة من اليعاربة الى أحمد بن سعيد البوسعيدى .

أحمد بن سعيد وبلعرب بن حمير

فى التاريخ العمانى أن بلعرب بويع بالإمامة مـرة أخرى ، فإنه انخلع منها أولا على يد مشايخ بنى غافر إرضاء لسيف بن سلطان ، ورجاء لكفاف شره .

قال الإمام السالمى رحمه الله ، وهو أولى بالنقل عنه فى مثل هذه النوازل قال : إن سياق التاريخ يقتضى أن بويع له مرتين ، مرة قبل سلطان بن مرشد رحمه الله ، وذلك فى سنة ١١٤٥ ، ثم استعفى من هذه الإمامة وترك الأمر لسيف بن سلطان ، حين خافوا العجم على عمان ، بافتراق سيف وبلعرب .

قال : والمرة الثانية بعد ذلك ، لكنه لم يعرف تاريخها أى لم يجد لها تاريخا ، وهو الذى حكم بتفريق أموال سيف بن سلطان ، ومعه الشيخ حبيب بن سالم أمبو سعيدى العقرى النزوى ومن معه من المشايخ ، وهذا الشيخ اضطرب حاله مع إمامه المذكور وقيده ، ومن هنالك تكدر الصفو بين الإمام والشيخ ، وعاد الشيخ يعد على الإمام أحداثا ، ورأى خلعه بها إلا أنه لم ينخلع بكلام هـذا الشيخ ، بل انخلع بجيش أحمد ابن سعيد فى وقعة فرق ، وذلك بدل أنه عاد الى نزوى وأعلن إمامته ، وقام بدوره فى عهده ، فخرج عليه أحمد بن سعيد برؤوس القبائل من عمان ، واحتج عليه فى نقاش طال بينهما فى بلد فرق ، فإنه خرج ليتلقى أحمد بن سعيد بمن معه ، فاقتتلوا فى فرق وقتل بلعرب وأكثرية جيشه .

وكان النصر حليف أحمد بن سعيد ، وهناك نصائح أوردوها وأحداث

عددوها ، وأقوال دونوها ، وآثارا عولوا على مقتضاها ، والحقيقة كل إنسان له جانب مدح لمحبيه ، وجانب قدح لمنافسيه ، ذلك لأن الكمال لله وحـده ، وكان جانب القادحين فيه قويا ، والأخذين عليـه لهم مقال محفوظ .

قلت : والمفهوم من سياق التاريخ ، أن بلعرب عاد الى إمامته بالعقد الأول فقط ، ولذلك لم يجد الإمام السالمى رحمه الله ، تاريخا لإمامته الثانية ، فإنه لما مات سلطان بن مرشد بصحار ، ومات بعده سيف بن سلطان بالحزم ، لم يبق منافس لبلعرب هذا ، فجاء بإمامته الى نزوى .

وكان أحمد بن سعيد قد تولى البلاد ، والتف حوله أكثر أهل عمان ساحلا وداخلا ، وأصبح هو صاحب الحل والعقـد ، وظهرت قدرته الساحقة للعجم ، ولم يرد العمانيون قائدا لهم غيره لا سيما فى تلك الآونة الحرجة التى لها أثرها الرائع .

قال الإمام : وكان قتله بعد خلعه بسنيات .

قلت : تلك السنيات هى التى مشى فيها سيف بن سـلطان مع العجم الأخيرين ، حتى انتهى أمرهم على يد أحمد بن سعيد العبقرى اليقظ الذى تصدى لسحق تلك القوة العجمية المتغلغلة فى مسقط .

قال : خرج عليه أحمد بن سعيد البوسعيدى ، وذلك بعد أن استولى على حصون الباطنة وما حولها ، وخرج الى نزوى وهذا الكلام يوهم أن ذلك فى حال خروج أحمد بن سعيد الى الداخلية ، وليس كذلك ، بل ثبت أنه تولى الحصون أحمد بن سعيد بغير حرب وخرج عنها ، وهى فى يده ، ثم جاء بلعرب الى نزوى ، وأعن إمامته فخرج له أحمد بن سعيد .

قال : وذكر بعضهم أن أحمد بن سعيد التقى ببلعرب بن حمير ، وقال له : أنت إمام فوق إمام كيف هــذا ؟ أى كيف صح إمامان فى حوزة واحدة ، ليس هذا من دين المسلمين ؟ فاحتج بلعرب على أحمد بن سعيد بأن سيف بن سلطان غير السيرة ، وخالف الجماعة ، وسـد باب الطاعة ، واختار المسلمون إماما غـيره ،فلذلك عزلوه ، ثم اختارونى وعقدوا لى الإمامة ، قال : فقاتله أحمد بن سعيد برؤوس القبائل ، فقتل بلعرب بفرق وخلصت نزوى لأحمد بن سعيد ، وذلك فى سنة ١١٦٧ .

وفى هذا الكلام ما فيه من اعتياض ، لأنهم ذكروا دخول أحمد بن سعيد عمان الداخلية بعد انتهاء أمر العجم فى بركا ، وأنه لم يعارضه أحد من أهل عمان ، حتى انتهى الى بهلى ، ثم جاء الرستاق عن طريق الجبل ، وبذلك انتهى أمر اليعاربة ، وتقلص ظلهم ، وأقبل أمر عمان ينساق الى أحمد بن سعيد كما عرفته متتابعا ولله الأمر كله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

إن رحمد بن سعيد ممن له فى عمان غيرة كبيرة ، وله بها اهتمام عظيم عرفه التاريخ ، وله صمود وصبر على الحوادث اذا نزلت ، ومن اعتبر فى أعماله ومساعيه عرف منه بطلا عبقريا لا يقعقع خلفه بالشنآن ، ولا شك أن الرجال بعزائمها ، فإنه لمـا كانت عزائم بنى العباس نابعة من العنصر الصحيح ، كانت مفخرة عربية يعتز بها العرب ، حتى اذا جاء الخلف الأخير على منهاج الخلاعة خرت الملكة على وجهها وتبعثر بناؤها ، وتلاعب بها أعداؤها انظر بين المعتصم والمستعصم ترى عجبا .

أحمد بن سعيد فى طالعه السعيد

كان أحمد بن سعيد من أهالى أدم ، وكان الشيخ خلف بن سنان الغافرى معروفا بأسرار إلهية ، زار أدم ولقى أحمد بن سعيد ، وتفرس فيه النجابة التى تؤهله لأن يكون ملك البلاد وسلطانها ، وكان من عنصر زعامة معروفة بعمان ، وكان يقال إن الشيخ خلف من أهل الكشف وهم الذين منحهم الله علما عما يحدث فى الكون .

فلما رأى أحمد بن سعيد وكان غلاما صغيرا ، وأحسب أنه أيضا كان يتيما ، تلقاه الشيخ بوقار ، ومسح على رأسه قائلا له : اتق الله فى الرعية معربا عنه أنه سيملك أمر عمان ، ونشأ وشب وشاع له ذكر فى الوسط من الناس ، حتى اتصل بسيف بن سلطان اليعربى ، واستعمله سيف بن سلطان المذكور ، فوجـد منه كفاءة لم يجدها من غيره حتى جعله محل ثقته ، وسيف دولته ، وألقى اليـه أهم أمـوره ، وكانت صحار ولاتزال هدف الغزاة ، ولبعدها عن العرش العمانى نزوى .

وكان والى صحار يعتبر بمنزلة حاكم مستقل لـه حله وعقده فى الطرف الشمالى من عمان الى الحسا وما إليها ، ولكفاءة أحمد بن سعيد وللأحوال التى تناط بصحار ولاه إياها ، فأداب شئونها إدارة رفعت قدرها وأعلت منارها ، وأصبح علمها منظورا اليه بأعين الإكبار كما قال الإمام ، وجد سيف بن سلطان من أحمد بن سعيد كفاءة لم يجدها من غيره ، فجعله سيف دولته ، وموضع شوكته وصولته ، فوض اليه الأمور كلها .

قلت : ومن هناك جـد الرجل حتى لحظته العيون بالوقار ، وعلا صيته وهو الذى هيأه الله أن يكون خليفة المستقبل فى عمان ، وعمان إذ ذاك فى أرفع مكانة فى الجزيرة ، كما أنها كذلك من عهدها الجاهلى الأول .

قال الإمام : إن أحمد بن سعيد هو أول هذه الدولة البوسعيدية ، بل هو رافع بناءها وواضع حجر أساسها ، وهو أبو ملوك العصر ، وأشار الى ما قلناه فى التاريخ العمانى ، وذكروا فى استيلائه على ملك عمان وجهين :

الأول : أن سيف بن سلطان أرسله ليخلص لـه حصون عمان ، ويقاوم بلعرب بن حمير الذى هو ضد سيف المذكور ، وخرج بجمع كبير من زعمان القبائل حتى انتهى الى نزوى وفيها بلعرب . فقال له أحمد ابن سعيد : أنت إمام فوق إمام ، كيف هـذا ؟ أى هذا لا يصح ، وساق القضية التى ذكرناها ، وأن أحمد بن سعيد قاتله حتى قتل فى فرق ، وإذ ذاك عقدوا الإمامة لأحمد بن سعيد حين رأوه أهلا لها ، والصحيح عند أهل التاريخ هو ما قدمناه ، وكان أحمد بن سعيد واليا بصحار ، واليعاربة تتهارش فى عمان ، فسيف بن سلطان يقول أنا الإمام ، ومعه جانب من أهل عمان ، وسلطان بن مرشـد يقول أنا الإمام الصحيح للإمامة ، وبلعرب بن حمير يقول أنا الإمام وهكذا .

وكان أحمد بن سعيد من حزب الإمام سلطان بن مرشـد عندما رأى أحـوال سيف بن سلطان تجرى فى غير طريقها ، حتى وقع من سيف بن سلطان ما وقع من انقلابه على أحمد بن سعيد ، وهمه بقتله ،

وأن أحمد بن سعيد اتحد مع سلطان بن مرشد حين رآه على الصراط المستقيم ، وهذه من محامد أحمد بن سعيد ، ولذلك لما أحاط العجم بصحار ، وحصروا أحمد بن سعيد فيها خرج سلطان بن مرشد لمناصرة أحمد بن سعيد ، واعترضه العجم فى الطريق ، فاقتتلوا هم وإياه ، وجرح الإمام المذكور ولجأ الى أحمد بن سعيد ، ثم مات معه فى حصن صحار ، إذ أصابته جراحات من سيوف العجم ، وأن أحمد ابن سعيد لما أصبح العلم المفرد بعد سيف بن سلطان ، وبعد سلطان ابن مرشد ، سلطه الله على العجم فمحا رسمهم من عمان ، ثم خرج الى الداخلية ليتولى ما بقى من ملك عمان كما قدمنا ، حتى صفاله الأفق ، وذرت رياح عزيمته غبار أعدائه فى عمان ، ونظرت عزيمته الى منافسيه نظرة الحر اليقظ ، وكان على أوفى المرام فى إرساء دعائم الملك ، ولا يزال ينظر الى الأعداء بأعين الحزم ، ويحسب لها حساب من لا يطمئن بالدهر اذا سكن ، فإنه سرعان ما تتقلب أحواله ، ويتغير عن مجراه الطبيعى ، واذا نام الراعى تعاوت الذئاب على الغنم ، وعاث الوحش فى المراعى ، وصعب الأمر على القائد والسائق ، إلا اذا ساعد الحظ .

وأحمد بن سعيد من الرجال الأفذاذ فى عمان ، ومن الملوك الأجلاء الذين هم الشهب اللامعة ، وإنه العبقرى العظيم فى عهده ، ولو لم يكن له من العمل فى عمان إلا سحق العدو الفارسى الذى كان منه بعمان ما تذوب له الأكباد ، وينهصر له وعى العقل ونور الفؤاد ، ومن كأحمد

ابن سعيد صارع العدو عن الوطن ، وكافح الشر حتى سكن ، ودافع عن البيضة بصدر رحب ، وجـــد واجتهد حتى جلا الســـوء عن وجه عمان ، وأطار فى ربوعها طائر اليمن ، فله بذلك الحمد الخالد والشكر الذى لا ينمحى من سجل التاريخ فلله دره من همام والرجال بالأفعال .

احمد بن سعيد وزعماء بنى غافر

لا يخفى أنه لما أصبح أحمد بن سعيد حاكم عمان ، واليه أمرها ، وبيده الحل والعقد فيها ، وكان بنو غافر بقى فى أدمغتهم من عهد محمد ابن ناصر من نوع ما بقى فى نفوس اليعارية من الادعاء بالملك ، ومن الانتساب اليه كما هو شأن الأمم غالبا اذا كانت فيها زعامة دينية أو دنيوية ، ترى طيلة العهد أن لها ما ليس لغيرها ، وهذا أمر معروف فى كل الأجيال ، ألا ترى هرقل لما قام يبحث عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : هل كان فى أجداده من ملك ؟ فقيل له : لا ... فقال : قلت : لو كان فى أجداده من ملك لقلت رجل يطلب ملك آبائه .

والمعنى أن دعوى الملك لا تكاد تنمحى من نفوس ذرية الملوك سواء كان الملك إماما أو سلطانا تبقى دعوى الملك فى ذريته ، لذلك بقى فى نفوس ذرية محمد بن ناصر شىء مما ذكرنا ، ولقد قام أحمد بن سعيد بأمر عمان واحتوى على الساحل والداخل إلا ما كان من أمر الظاهرة ، فإنه بقى صوت بنى غافر صناجا فيها ، وتبين لأحمد بن سعيد ما يخالف لأمره ، وما يخشى من وميض رماده ، فخرج على القوم بقوته العسكرية ليتحسس أحوال القوم ، ويجس نبض عروقهم هل هو ساكن أو متحرك ؟ واذا به غير ساكن فقيل إنه دس على رؤوس بالقتل ، فقتل جملة منهم .

قال الإمام السالمى : قال ذو الغبرا : لما ملك أحمد بن سعيد وساد ، ودانت له الخلائق واستقام ملكه ، وخذل عدوه ودلته نفسه بقتل أكابر بنى غافر ، فلما قتلهم مشى الى ديارهم بجيش عظيم ، فالتقوا بالأثيلة ، فصح عليهم الكسر وهم فئة قليلة ، وفى حديث الشيخ

ناصر بن جاعد أنه جيش عليهم ثلاثين ألفا الى الظاهرة ، وخرج لهم مقدار سبعين رجلا ، وكسروا الجيش كله ، ومات كثير منهم بالجوع والعطش بعد أن ولوا الأدبار ، قال : وكثير منهم لم يتمكن فى الهزيمة أن يستريح مقدار نصف ساعة أو ربع ساعة ، ولذلك ماتوا .

قلت : لا يعقل أن ينهزم جيش بلغ ثلاثين ألفا بسبعين رجلا ، إلا أنه يحتمل أن تكون فى الجيش خيانة ، ولعل القوم كانوا يرون أن قتل شيوخ بنى غافر كان غير مرضى عندهم ، وهنا خانوا وانقلبوا بالجيش الى الهزيمة المنكرة ، حتى لم يقر لأحد قرار حتى ربع ساعة ، وحتى مات الأكثر بالجوع والعطش ، نعم لو كانت القضية قضية نبوة لقلنا تلك معجزة ، وأما والحال على خلاف ذلك ، فهنا نتبين مؤامرة فى الجيش أخفيت وراء الستار ، والله أعلم بما هنالك .

إلا أن لهذه الهزيمة لما شاع خبرها أثر على السواد الأعظم فى عمان .

قال ابن رزيق وغيره : إن تلك الحرب وقعت بين أحمد بن سعيد ، وناصر بن محمد بن ناصر الغافرى ، وقال : وكان النصر فيها لناصر بن محمد بن ناصر ، وقتل من قوم أحمد بن سعيد اثنا عشر ألفا ، فيستفاد من كلام الشيخين : ناصر بن أبى نبهان ، وخميس بن راشد المعروف بذو الغبرا والد الشيخ ماجد ، أن أحمد بن سعيد قتل مشايخ بنى غافر ، ولا شك أن القتل لا يكون إلا بسبب ، وبقى النظر فى السبب هل هو حق أو غير حق ، ولعله ما أشرنا إليه والله أعلم بما هناك .

ولعل قتل شيوخ بنى غافر المذكورين هو الذى وقع على يدى هلال ابن أحمد بن سعيد ، وأن هلالا لم يقل للقاتلين شيئا ، فإنهم لما استجابوا

لداعيه ووصلوا اليه ، وصاروا فى ذمته هــوى عليهم فريق من قومه فقتلوهم عن آخرهم ، وهم الذين يقال لهم أولاد فرخ الريح من أهل القرطبى ، وكان محمد بن حمير اليعربى وهو الذى جاء بهم الى هلال ، وطلب هلال منهم تسليم حصن القرطى فلم يوافقوا ، وكانوا فى أمان محمد بن حمير أحد أركان ثورة هلال بن أحمد بن سعيد ، وكانوا أخص الخاصة لناصر بن محمد بن ناصر الغافرى الزعيم الكبير فى الظاهرة ، وهو صاحب حصن العينين ، كما ســوف يأتى خبره فى محله ، وهؤلاء الشيوخ المقتولون هم شرارة الظاهرة ٠

ولمــا بلغ قتلهم أحمد بن سعيد لم يقل شيئا فظن الناس هو الآمر بقتلهم ، والى هذا يشير كلام المشايخ وتحقيق الحق لا يدركه إلا الله عز وجل ، ولذلك على أثر القضية المشــار إليها جهز أحمد بن سعيد جيشا ليطفىء به ثائرة الظاهرة ، وليريها أنه القوى على إطفائها ، ولــه السلطان الذى لا تقدر الظاهرة أن تظهر عليه ، فسحب جيشا أرعن جمع فيه أهل عمان من نزوى الى جعلان ، وأضاف اليه أهل الباطنة فخرج به وهو كما وصف ثلاثون ألفا دخل به الظاهرة من الجهة الغربية ، ولمــا سمع به بنو غافر تجمعوا لــه ، وكانت الظاهرة كلها تحت إمرة ناصر بن محمد والجيش الوافد كلهم كانوا غربا ، ونزولهم ساحة القتال فى حال تعب ونصب من الطريق ، إذ كانوا مشاة على الأقدام طيلة طريقهم ، وكان الوقت حارا شديد الحرارة والناس فى أشد التعب لذلك ، ولمــا دنى بعضهم من بعض سرعان ما انهزموا وبانهزام فريق واحــد تعم الهزيمة الكل ، فكان الأمر كما قيل إنهم هلكوا كلهم إلا ما شاء الله ٠

أخلاق أحمد بن سعيد وصفاته

كان لأحمد بن سعيد أخلاق حسنة عرف بها ، وصفات اتصف بها ، والأخلاق الجميلة فى الزعيم أيا كان تضعه على هامة النفوس ، بل على قلوب الرءوس ، وأى رئيس يكون فى الأمة ، ولم تكن له أخلاق حميدة ، سرعان ما تنفض الناس من حوله . قال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام : (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) ، ووصفه بصفة كانت مدحا عظيما له ، إذ قال : (وإنك لعلى خلق عظيم) .

قال ابن رزيق : إن امرأة بشرته أنه يكون إمام عمان ، فلما صدقت بشارتها أبقى لها فى نفسه ما يرعاها به ، لكنه أدركها ميتة ، فأجرى لذريتها فريضة مكافأة لها ، وكذلك العجوز التى اختفى فى بيتها بينقل من الظاهرة أبقى لها مقاما هاما ، وكان أراد أن يعلم ود قومه لـــه ، ومحبتهم له ، فخرج فى خفية ولم يعلم به أحد ، وأشيع أنه لا يعرف فى أى مكان أو أنه ميت ، فلما بلغه ثورة بلعرب بن حمير ، خرج فأحس من قومه الإصرار على أوامره ، وعلم أنهم ثابتون على ولائه محافظون على زعامته عاضون عليها بالنواجذ ، كما أكر الجبور الذين جاءوا إليه ، حين زحف عليهم سيف بن سلطان فى حصن صحار بسفنه لإخراجه منها ، وأصلحو الحال بينهما بجعل ولده هلال بن أحمد ، عند سيف بن سلطان ليطمئن من منافسة أحمد بن سعيد له ، فكان معه حتى وصول العجم الى خورفكان ، ثم أرخصـــه .

وقد صاهر الجبور المذكورين تألفا لهم وتقريبا لهم حين رأى منهم ما سره ، وأكرم صالح بن صباحية من أهل حوائر الوادى من نزوى ،

وجعل له الرئاسة على قومه لأجل ضيافة كانت منه له فى نزوى ، وكان يحل الأعيان ويحترمهم ويوقر الصغير والكبير ، أكثر من توقيرهم إياه ، وكان اذا أراد الخروج من الرستاق الى بركا يأمر أن تصنع له حلوى فى الرستاق ، ولعلها كانت لها شهرة ، وكان اذ جاء نزل بنعمان فيقيم فيها يومين أو أكثر ، فاذا نزلها جاءه أولاد الفقراء والضعفاء والمساكين ، فيعطيهم من تلك الحلوى ، فيذهبون بها الى أهليهم وهم مسرورون منه وكذلك أهلهم ، وهذا يعم سكان المنطقة من حد حى عاصم فى الشرق الى الحفرى فى الغرب ، ثم تأتيه رعايا بركا للتسليم عليه ، وكذلك أهل السيب الى المصنعة ، فيستقبلهم ببشاشة وطلاقة وجه وحسن التفات ، ويقضى لهم حوائجهم ثم يتوجه الى مسقط ، فاذا جاء روى نزل بها فيمكث فيها يومه ذلك •

وبالصباح الباكر يتوجه الى المطرح فتصطف له أهلها على الطريق من منطقة سيح الحرمل الى ثغر المطرح ، فاذا وصل الى المطرح نزل فى بيت بالدكة ، فيأتيه بنو حسن للتسليم عليه أولا ، ثم تتبعهم اللواتيا ، ثم بنو زراف ، أما بنو حسن لكونهم أهل البلد وأما اللواتيا وبنو زراف ، لكونهم تجار البلاد ، فهو يراعيهم لذلك ، ويرعى لهم أحوالهم هنالك ، ثم يتبعهم بقية أهالى المطرح ، فاذا تم أهل المطرح توجه الى مسقط فى القوارب التى تجر فى البحر •

فاذ وصل الجريزة أطلقت المدفعية طلقات من الصيرتين ومن الكوتين ، ومن المراكب الراسية فى البحر ، فلا تسمع إلا دوى المدفعية فى جبال مسقط تتردد لها زجل عظيم ، فيبرز للناس فى الجريزة فتأتيه الناس زرافات ووحدانا حتى اذا انتهى استقبالهم ومقابلتهم ، دخل بيته بالحريزة ، وكان واسع الصدر كثير البذل ، جم النوال معطاء

مبذالا ، كما يلزم وفوق اللازم ، ذا تواضع وتؤدة وحلم والتفات الى الرعايا ، وبذلك غرس حبه فيهم ، وأطبقوا على تعظيمه ، وتهافتوا على طاعته ، كان صبورا على كيد العدو لا يتأثر من الخلاف والشقاق ، واذا رأى الفرصة لم يضيعها ، شجاعا مقداما لا يبالى بالعدو كيف كان موفقا فى غالب أحواله .

وذكر ابن رزيق له أسرارا الله أعلم بصحتها ، وكرامات قبل أن يتولى الأمر ، وهى دالة على توليته ، ولقد أحسن إدارة شئون الوطن والبلاد حين أمنت واطمأنت ، وسكنت .

قال الإمام السالمى رحمه الله : كانت أيامه أيام راحة واستراحة بعد الفتن والمحن .

قلت : وكانت له همة عالية فى بناء مجد عمان ، وإعلاء شأنها .

قال ابن رزيق : لقد حاز أحمد بن سعيد قصب السبق فى مكارم الأخلاق ، توفيقا من ربه الخلاق ، فقد ساوى بين الغنى والفقير ، والبصير والضرير ، ورعى رعيته بإحسانه ، وأقر أعينهم بمكين مكانه ، فهو فى الكرم آية ، وفى الشجاعة غاية ، لولاه لصارت عمان وأهلها فى حكم العجم ، وأضحوا هم الملوك وأهل عمان لهم خدم ، فجرع أكثرهم كأس الحمام لما أحاطوا بصحار ستين ألفا أو يزيدون فى المقدار ، صالحوه لما رأوا عزيمته أحد من السيف البتار ، ورجعوا الى بلادهم أذلة بعد العزة ، وأخرج من كان بمسقط الى بركا ، فقضى عليهم فيها .

وكان ولى خلفان بن محمد بن عبد الله البوسعيدى شئون الخراج

بمسقط ، وولى خميس بن سالم شئون العسكر بمسقط ومطرح ، وولى حسن الصرهنج على مراكب السلطنة ، وولى القضـاء بمسقط الشيخ محمد بن عامر بن عريق المدوى المعولى من أهالى حلة المطلع من أفى ، وولى قلم الحسابات رزيق بن بخيت بن سعيد بن غسان ، جد المؤرخ حميـد المعروف بابن رزيق ، ورتب أعمـال السلطنة أحسن ترتيب ، يتناسب مع العصر ، واشترى العبيد الزنوج ألف عبد من الزنوج ، وألف عبد من النوبان ، وأسكنهم الرستاق ، وأضاف اليهم من العمانيين ألف جندى ، جعل الجميع بالرستاق إذ جعلها هى العاصمة ، وجمع الخيل والإبل المعدودة لمهمات الدولة بالرستاق ، واتخذ أربعة أعلام خاصـة به تنتشر على موكبه عندما يتحرك لمهم ، اثنان رأساهما من ذهب ، واثنان رأساهما من فضة ، واذا خرج الى مكان خرج بأهل العلم الموجودين معه من مشـاهير العلماء .

وكان لا يطيل بمسقط بل كان لا يتم شهرا فيها وفى كل مرة يتفقد حصونها ، وما بها من عـدة ، وما يلزم لها من مؤونة ، ثم يمر على الفرضة عند خروجه من الحصون ، وينادى أن كل ما نزل هـذا اليوم بالفرضة لا عشور عليه قل أو كثر ، وكان دخل الفرضة التى تعرف الآن بالجمرك قدر ثلاثة لكوك صافى المصـاريف كلها ، ويرتفع أحيانا الى خمسة لكوك ، وكان له عسـكر كثير فى المراكز المهمة والعثور المنظور إليها رعاية لحفظ المملكة من هجوم العدو المباغت ، فإن الحزم هـو الحفاظ وهو سور المملكة ، وكان أكثر عسكره بالرستاق حيث هو بهـا وهو المقصود بالذات من ناحية الأعداء ، ثم بصحار لأنها فى وجـه الغازى ، ثم فى مسقط لأنها الميناء المهم .

قال الإمام : وأعطى المملكة حقها ، وعــدل فى الرعايا ، قال الأمير شكيب : أحسن التدبير ، وسن للمملكة قوانين مالية وتجارية ، واستبقى لنفسه إمارة الجيش البرى ، وعهد الى رجل من خواصه بنظر الأسطول ، ونظم جيشــا دائمــا ٠

قال الإمام السالمى : أعطى أحمد بن سعيد المملكة حقها ، والمعنى صان البلاد وحماها ، واحتمل على كاهله أهم الأمــور ، وهو عــداء العجم ، وكان حكيما فى أعماله يعلم أن بغض العجم قد تغلغل فى قلوب أهل عمان ، وعم ذلك البغض اليعاربة الذين جاءوا بهم الى عمان لغير موجب إلا التنافس الضار ، وما من أحد يجر عدوا على وطنه إلا كان لدماره غارسا لمــا يقلعه من أرضه ، فإن غرس الشر لا يكــون ظلا لغارسه ، ولا يثمر إلا الذعاف له ، وهذا أمر جربته الأمم قديما وحديثا ، واذا أراد الله أمرا هيأ له أسبابا ، وكان أحمد بن سعيد ممن بعثه الله لحفظ الوطن فى تلك الأزمة ، وليعلم أهل عمان أن الأمر اذا لم يعضده الدين والإيمان سرعان ما ينهار ٠

فإنه لمــا كان الإمام ناصر بن مرشد الرجل المؤمن أيده الله ونصره وشد عضده ، وقوى عزيمته ، ثم جاء بعده أولاد عمه الذين خلفوه على الأمر يحملون تيجان الإيمان وأعلام الرشاد ٠ أصبح العمانيون يضعون رءوسهم لهم لوقايتهم من الأسواء ، ويفدونهم بالأرواح ٠ ولمــا جاء سيف بن سلطان على خلاف ذلك خرج منه كالشعرة من العجين ٠

أحمد بن سعيد يناصر الدولة العثمانية على العجم بالبصرة

كانت الدولة العثمانية مدت أياديها الى الشرق العربى ، وكانت البصرة من جملة ما تولته تلك الدولة ، فزحف إليهـا من الإيرانيين جحفل ضخم اصطلمها من أيدى رجال الدولة المشـار إليها ، وحيث ذلك الوقت بزع فيه الطالع السعيد لأحمد بن سعيد ، وشـاع له صيت بلغ مسامع الدولة العثمانية ، فطلبت منه المساعدة على الفرس المحتلين للبصرة .

قال أمير ابيان : استولى العجم على البصرة ، فذهب أحمد بن سعيد بعشر سفائن حربية تجر عددا كبيرا من القوارب ، حمل عليهـا عشرة آلاف مقاتل .

قلت : وفى بعض الروايات ثمانية عشر ألف مقاتل ، وقائد الحملة هـو ولده هلال بن أحمد .

قال شكيب : وهزم الإيرانيين ونصر الدولة نصرا مؤزرا ، قال : فسرت الدولة منه وأجرت له راتبا سنويا كان لا يزال يتقاضاه أئمـة مسقط الى أواخر القرن التاسع عشر ، قال : ومن جملة أسطوله طراد اسمه الرحمانى ، هو الذى كسر سلسلة الحديد التى وضعها الإيرانيون فى شط العرب لمنع أسطول عمان من الدخول الى البصرة ،فأرسله أحمد ابن سـعيد الى مانغالوا فى جنوبى الهند سـائلا عن السبب فى حجز مؤونة الأرز التى كانت ترد عمان كل سنة ، قال : فاستقبل تيبو عامل السلطان أعلم من فى مملكة غرناتيك مندوب عمان بكل حفاوة ، وأخبره أن السبب فى ذلك هو من متلصصة البحر الذين هم بساحل المالابار ، قال : فقصدهم الطراد الى ديارهم ، وقتل زعيمهم ، أى وبعد ذلك تأدبوا عن الاعتراض للمارة فلله در أحمد بن سعيد .

الظاهرة وأحمد بن سعيد

كنا قلنا تحت عنوان أحمد بن سعيد وزعماء بنى غافر ، إن بنى غافر لما كانوا عاشوا تحت علم محمد بن ناصر ، وكان محمد بن ناصر بحيث لا يخفى مقامه فى وقته ، حتى بلغ درجة الإمامة ، وكانت بسالته مضرب المثل فى عمان ، وكان النصر حليفه فى كل وقعة ، وكان يباشر الحرب بنفسه ، ولم تعرف له قط كبوة ، ولا لسيفه نبوه ، حتى عظم قدره وعلا ذكره .

وافترقت عمان بينه وخلف بن مبارك الهنائى ، وتغلغلت العداوة وخصوصا فى قلوب المغلوبين ، حتى شاع ذلك وذاع ، ولما مات محمد ابن ناصر ، وخلف بن مبارك قتيلين بصحار ، واعتقل بالأمر من جاء بعدهم بقى فى نفوسهم ما بقى مما خلفه المذكور ، ولذلك قاموا ببلعرب ابن حمير حين رأوا أحمد بن سعيد يتقدم على حصون عمان ليتولى ملكها .

ثم كان الأمر على خلاف رغبتهم ، وكانت حركتهم مزيجا من بنى غافر واليعاقيب ، ومن اشتمل عليهم من دروع وظواهر وبنى قتب ، وبنى كلبان ومن إليهم الذين كانوا أنصار محمد بن ناصر ، وكذلك النعيم ، وبنى ياس وهؤلاء تألبوا على أحمد بن سعيد ، وباينوه بالعداء وانهزموا فى وقعة فرق ، ورجعوا وقلوبهم حامية حقدا على أحمد بن سعيد ، ولذلك تألبوا عليه من امتلاك حصون الظاهرة ، وقصدهم أحمد بن سعيد ، فلم ينتصر عليهم ، بل انتصروا عليه ، وبذلك نهجوا الى غير عمان ، وتعلقوا بأناس آخرين حتى تبدلت جميع صفاتهم وتركوا قوميتهم الى قومية أناس آخرين ، لأن قلة العلم وغلبة الجهل وإشتعال الحقد فى قلوبهم أثمر تغيير أفكارهم ومعتقداتهم وأخذ بهم الى موالاة غيرهم

فعم ذلك وبعد حين أكثر قبائل الظاهرة الى ما شاء الله • ولم يزل يسرى فيهم داء الجهل والفوضوية حتى أنه لم يعرف فى الظاهرة بعد الدولة اليعربية عالم ولا حتى متعلم أو متخلق بإخلاق المتعلمين • ونتيجـة لفوضويتهم وجهلهم أضمروا عداء للسلطات العمانية التى هى جامعتهم ، ولكون الجهل يسرى فقد لحق بأهل الظاهرة أهل جعلان التى خرج منها أول عالم جليل هو ، منير بن النير الجعلانى وبإختلاطهم مع بعض أهل الظاهرة ونفورهم من أبنــاء خلوتهم ، خيم عليهم الجهل فأصبحــوا لا يعرفون من معتقدات الدين الاسلامى شيئا فأورثهم جهلهم فوضوية مطلقة ، ومع تأكدهم أنهم فقدوا العلم والمعرفة فقد أصروا على ما هم فيه من جهل ونعرات جاهلية ، لذلك فقد تغير الوضع العمانى من أقاصيه وأصبح الأفق العمانى وعليه غبار الجهل والضــلال ، فإنهم أصبحوا أنصار الباطل من أول يوم وقعت فيــه حرب بلعرب بن حمير بفرق • ثم قام أحمد بن سعيد فقبض على شيوخهم فزادت النفرة ونأت النفوس الى حد بعيد • ثم زاد الطين بلة ، الواقعة التى وقعت بينهم وأحمد بن سعيد التى لم يخططها تخطيطا كاملا • لذلك لم ينتصر فيها أحمد بن سعيد ، فلذلك ابتعدوا عن دولتهم العمانية وبقيت فيهم نخوة بنى غافر ومعرة النفوس فيها ، وفيمن انضاف إليهم وتفرقت الوحدة الدينية الى مذاهب شتى ، إذ لم يكن بعمان سابقا الى هذا العهد الذى ذكرناه غير وحدة علمية دينية قديمة واحدة • وقد عانت السلطنة العمانية من هؤلاء الفوضويين ذوى النعرات الكثير ، الكثير • وأصبحت الظاهرة بابا لغزاة عمــان وأصبح العراك مستمرا بين الغزاة والسلطات العمانيــة حتى عهد قريب •

قال أمــير البيان : وكانت بلاد الظاهرة بمكانتها من الداخلية لم تخضع تماما لأحمد بن سعيد ، وكان علو الكلمة لبنى غافر • قال : فثار منها أحدهم وهو ناصر بن محمد ، أى ولد الإمام الآنف الذكر • قال : واشتعلت الحرب بينه وأحمد بن سعيد • قال : فساق إليه هذا عساكر

من العمانيين فانكسروا وأخيرا تصالح الفريقان على أن تبقى الظاهرة فى يد بنى غافر ويعترفوا بالسيادة للإمام أحمد .

ومضى الحال على هذا غير مرضى من الجانبين ، بل كل فى نفسه على خصمه . قال ابن رزيق : وسبب حرب الإمام أحمد بن سعيد ، وناصر بن محمد الغافرى ، أن ناصر بن محمد كان من دهاة العرب ، وكان صاحب أموال ورثها من آبائه ، وكان له مال جزيل حيث تولى البحرين من الإمام الطيب الذكر سلطان بن سيف اليعربى بعد فتحها من العجم ، كما قدمنا ذكرها فى كلام على هذا الإمام ، ولما مات الإمام المذكور رحمه الله ، ووضع النزاع بين اليعاربة بعمان ، اغتنم العجم الفرصة ، فزحفوا على البحرين بجيش ضخم ، أحاطوا بالوالى المذكور وحصروه ، وطال الحصار ، واستمرت الحرب ، وناصر قابض على الأمر بيد من حديد ، ولا يزال ينتظر نصرة الدولة ، فتأتيه فتفرج أزمته والدولة أصبح داؤها فى جسمها ، ويعالج جروح روحها ، فأنى تكون نصرتها لوالى البحرين

وقد حاول العجم نزول ناصر بن محمد من قلعة عراد التى بناها العمانيون ، ولم يقدروا على ذلك ، وأرسل العجم الى ناصر فى صورة الناصح أن الإمام قد مات ، وأن اليعاربة الآن فى خلاف ونزاع فيما بينهم ، وأهل عمان منقسمون أيضا كل مع واحد والاضطراب سار فيهم ، فخذ ما شئت من المال ، ولا عار عليك فى ذلك ، فلم يصغ إليهم أولا ، ولما طال العهد ، رأى أن لابد من الخروج ، لأنه لا ناصر له من قومه ، فصالح العجم على النزول على ما بيده من المال ، وما يدفعونه له ، وكان قد جمع أموالا طائلة ، إذ بقى مدة على ولاية البحرين ، وخراج البلد كله إليه .

فخرج من البحرين وسلمها للعجم ، وجاء الى عمان حتى جاء الغبى ، وكانت هى كرسى الظاهرة ، وبها واجهة أكثرية الظاهرة ، وصار

هو الرئيس عليهم ، فطلب منهم أن يبنى بيتا فى العينين على رءوس الأفلاج ليكون لهم حصنا ومرجعا ، وليسيطر به على الغبى وغيرها ، فلم يسمحوا له بذلك ، وبقى يفكر فى الطريق الذى يتسنى له به مطلبه ، حتى اذا صار الأمر الى الإمام أحمد بن سعيد ، وزال الأمر عن اليعاربة ، وقع اتصال خاص بين الإمام أحمد ، وناصر بن محمد ، حتى صاهر الإمام ناصرا ، والتحم الصفر والحديد بعضه ببعض •

وبذلك رأى أهالى الظاهرة أن الأمور جاءت منقادة الى ناصر بن محمد ، فإنه ابن الإمام المعروف ، وأنه الغنى الموصوف ، وتلك أهم مؤهلات الزعامة ، وكان ناصر المذكور كما هو معروف من دهاة العرب ، فعند ذلك قال ناصر للإمام : على أى شىء تركت حصن الغبى بيد غيرك ؟ قال لـه الإمام : أنا لا أحب الفتنة ، فقال ناصر : بينى وبين أهل الظاهرة ، فقال ناصر : وأى فتنة وأنت إمام عمان كلها ، فكيف لا تكون الغبى من حملة ممالك عمان • قال الإمام : لا أحب الفتنة بينى وبينهم ، وبالأخص لمـا صرت أنت صهرى ، وقدموك عليهم فصرت الرئيس عليهم ، فقال ناصر : أرى أن تقبض حصن الغبى ، فاذا قبضته لم يبق لك عدو يقدر على إظهار عداوته لك من أهل الظاهرة كلها اذا كانت الغبى هى المركز المهم فى الظاهرة ، ولا يهولنك الأمر ، فأنا أقبض الحصن وأقبضه من تريد من الولاة ، فوافق الإمام على ذلك ، فأرسل معه محمد بن عمير البوسعيدى فقبض ناصر حصن الغبى ، وقبضـه الوالى المذكور بدون منافس •

وقال ناصر للوالى : لا تهتم من أهالى الظاهرة ، ولاتهتم من أهالى الغبى ، فأنا أكفيك أمرهم وعندى المـال والرجال ، وهـذا كله مكر

وخداع ، فلما أحس أهل الظاهرة بحر الإنصاف من الوالى المذكور ، وخصوصا جبابرتهم وعتاتهم الذين تعودوا أن يسيروا كما يهون ، وجاءوا الى ناصر بن محمد يشكون أمر الوالى ، فقال لهم ناصر بن محمد : والله ما صنع فيكم غير العدل والإنصاف ، ولكنكم يا أهل الغبى لا تحبون العدل بينكم ولا الإنصاف منكم ، وكل من صار لكم محبا صرتم له أعداء ، أردت أن أبنى بيتا فى العينين بمالى لا بمالكم ، وفى أرضى لا فى أرضكم ، ليكون معقلا لعزكم ، فأبيتم وأنا حالى حال الإمام أحمد بن سعيد ، فمن أطاعه منكم فهو محب لى ، ومن عصاه منكم فأنا عدو له .

ولم يزل ناصر بن محمد بن ناصر يتردد على الإمام ويدخل معه ويكثر المسير اليه ، وقد اصطفاه الإمام وأعلى مقامه عنده ، وهو يدرس لـــه جبابرة الظاهرة فردا فردا ، ويشير اليه بقيد من يريد له قيدا منهم ، فلما رأوا تقدمه مع الإمام ، ورأوا تأييد الإمام له ، وكيف لا يؤيده الإمام وقد تقدم اليه بحصن الغبى أكبر حصن فى ذلك العهد ....

فحينئذ تراجع القوم ، وقالوا فى أنفسهم : إن ناصر سيقهرنا قهرا بالإمام والأولى إرضاؤه ، فجاءوه وقد سرى الضعف فيهم فقالوا : ابن ما شئت أن تبنى نحن غلطنا فى منعك حسب المفهوم . فقبل ذلك منهم وشرع فى البنيان ، ولـمـا أكمله وسكن فيه ، وحط فيه ثقله خرج الى الإمام ومعه بقية الذين يخشى منهم .

وقال : للإمام ما بقى من يخشى منه الخلاف لك ، ولا بقى خصم فى الظاهرة إلا هؤلاء القوم الذين جئت بهم إليك ، وأخبره بأسمائهم واحدا واحدا فاحبسهم وقيدهم ولا تطلقهم حتى يهلكوا فاذا هلكوا

انقادت لك الظاهرة كلها ، ففعل الإمام ، وكان مستصفيا له • واذا به يعمل لنفسه بإهلاك معانديه ، فلما رجـع عن الإمام وبلغ الى مكان يسمونه دفع الأودية وهو مضيق بين الجبال قال لجماعته : إن الإمام لا يحب إلا هلاكنا ، فإنه ما احتشمنى لما أتيته ببقية المحبين فلان وفلان وعدد أسماءهم فقيدهم وهربت أنا عنه خوف أن يقهرنى معهم فى غفلة منه ومن رجاله ، والآن عزمت على حربه ، فهو بهذا مكر بجماعته إذ ساقهم الى الإمام ليقيدهم بدسيسته ، ويقضى عليهم انتقاما له حين عارضوه ، ثم مكر بهم هنا قائلا لهم : إن الإمام يريد يهلكنا ليكونوا فى جانبه ، وقد بلغ مراده من الإمام ومنهم •

وهـذا من جملة دهاه الذى عرف به ، ولكنه يفكر لعل يوما ما تكشف عن هذا فيكون وبالا عليه من الجانبين ، وقال لهم : إن كان حالكم حالى فابنوا بروج واديكم ، وشنوا الغارات على الرستاق ، فأنا معكم بالمال والحال ، ولقد كفانا ما أتانا منه ، فأجابوه على ذلك ، إذ الظاهر كما يقول والغيب لا يعلمون عنـه شيئا ، فبنوا بروج واديهم بغاية السرعة •

ولما رجع الى الغبى قال لأهلها كذلك ، ولما أجابوه على حرب الإمام كتب الى ابن رحمة الهولى بوصوله اليه للمفاهمة ، وأن يجىء بقومه ، ولوح له بإشارات من كيده ومكره ، فجاء المذكور ومعه قـدر خمسمائة رجل ، فعند ذلك أمر أهل الغبى بمناوشة الوالى ، وأن يبينوا لـه خلاف ما كانوا عليه ، واجتمعوا بالعينين للمشورة على حرب الوالى إن خالفهم ، ولما احس الوالى الخلاف من أهل الغبى ، وكان ناصر هو المتعهد للإمام بمناصرة الوالى ، وبلغ الوالى أنهم مجتمعون بالعينين

سار إليهم لشكوا لهم ما سمع وما رأى ، فدخل عليهم ، واذا بهم على شوكة حرب ولعله ظنهم عليه لا معه •

قال لناصر ما الذى عزمت عليه أنت ، وجماعتك بهذا الاجتماع ؟ قال : لقد عزمت أنا والجماعة على حربك اذا أبيت الخروج من الحصن وتسليمه الى ، فمن أنذر فقد أعذر ، فقال الوالى : أريد منكم المهلة ثلاثة أيام ، إما سلمت إليكم الحصن ، وإما بادرتكم بالحرب ، فقالوا له كلهم عن لسان واحد : ذلك لك • فلما رأى الوالى أن لا طاقة له بحربهم سلم الحصن إليهم ذلك اليوم ، لأنه تحقق ألا يقدر على عمل أى شىء وهو بين ظهورهم ، وإمامه بعيد منه ، فخرج كما دخل ولم يفكر ناصر ابن محمد أن وراء الوالى إماما حاكما قويا ، لكن فى نفس ناصر أنه أقوى من الإمام فى الظاهرة ، وأن الإمام لا يفعل شيئا مهما فى الظاهرة ، فإن قواته التى يقوم بها من عمان وأهل عمان الشرقية لا يهتم منهم أهل الظاهرة لبعد الشقة ، وكون الطرق فى أيدى غافرية الظاهرة ويرون من أصعب الأمــور حرب الظاهرة •

أحمد بن سعيد يجهز ولده هلالا لحرب الظاهرة

لما وصل والى الغبى الى الإمام أحمد بن سعيد وأخبره عن الواقع ، وأن زعيمهم الذى كان الإمام يعتمد عليه أصبح هو عميد العدلوة ، وأن أهل الظاهرة جعلوه رئيسهم ، استغرب الأمر واستعظمه حيث لم يكن منه فى حق ناصر أصبح إلا إمضاء رغبته ، وإمتثال أمره ، وهو الذى طلب من الإمام أن يقبض حصن الغبى ، وهو الذى أشار على الإمام بقبض أولئك الشيوخ الذين جاء بهم ناصر الى الإمام أحمد ابن سعيد •••• ، وأشار عليه بقتلهم ، وأنهم هم المحذورون فى الطرف الظاهرى ، وبصرفهم يستريح من نوازل الظاهرة •

ولما حصل المطلوب وأصبح ناصر معاديا للإمام أحمد بن سعيد بغير موجب ، فتبين أن له غرضا خاصا ، وليته لما أراد ذلك أبقى صحبة الإمام قوة له وسندا يعتمد عليها فى سواد الأمة ، وساس الأمور بغير هذا العداء السافر ، فأين الدهاء الذى عرف به ، ولكن هزة المال تجلب للنفس العطب •

ولو قال للإمام إن عاملك رأيناه لا يصلح لسياسة الحال الحاضر فى الظاهرة ، ونحن عمالك والحصن نحن سلمناه إليك ، ونحن هنا منك وإليك وعدما تأمر بأمر فنحن نقوم به إن شاء الله ، ولكان الإمام يقبل منه ولو تحقق فى الباطن أن الرياح منه والمطر منه ، إلا أن الأحوال تكون مستورة عن سواد العامة ، وإن كان ظن أن أهل الظاهرة يتهمونه بقتل الشيوخ الذين سعى هو بقتلهم عند الإمام ، فإن الظاهر يعبر عن الواقع ، أن الإمام هو الذى قتلهم ، فلا تعلق لهم بناصر بن محمد بن ناصر المذكور إذ هو بنفسه خرج هاربا من الإمام كما يزعم ، ولكن أبى الله

إلا ينكشف غدر ناصر للإمام والناس ، فعند ذلك جهز الإمام أحمد بن سعيد قوته للزحف على هؤلاء فى دفع [١] الأودية أولا ليزيل ما هناك من شوك الشر الذى قام به ناصر بن محمد ، وجعل ولده هلالا القائد لهذا الجيش ، وكتب لمحمد بن سليمان بن عدى اليعربى والى نخل ، أن يذمر لـــه رجالا من نخل ينصافون الى هلال بن أحمد ، ويكون أميرهم محمد ابن حمير اليعربى ، واستدعى أيضا قبائل الشرقية الى جعلان ، وطلب نجدة من بلوش مكران ، ومن الزدجال •

وأثار الإمام الكتائب من جهات عديدة ، ومضى هلال بن أحمــد يقود القوات المتجمعة مع الإمام ، حتى أتى دفع الأودية وهو المضيق المهم فلم يقدر بنو غافر على الدفاع [٢] عنها وهرب القابضون لتلك الأبراج التى حصنوا بها ذلك المضيق ، فقبضها وقضى عليها ثم جاء القرطى وهو لبنى شكيل ، وكان بنو شكيل من أنصار ناصر بن محمد بن حمير يناصحهم فانقادوا له ، وأتى بهم الى القائد هلال بن أحمد •

وعندما وصلوا اليه وقد أعطاهم محمد بن حمير الأمان إذ سلموا حصن القرطى الى القائد هلال ، وإذ ذاك وثب عليهم من قتلهم جميعا ، وكانوا اثنى عشر رجلا يلقبون أولاد فرخ الريح ، وكلهم أولاد عم ، وهم أخص الخاصة من بنى شكيل ، وأخص أنصار ناصر بن محمد الغافرى ، فحمل بنو غافر قتلهم على محمد بن حمير اليعربى ، وأضمروا العداوة لمحمد بن حمير وأقاربه ، وبقوا فى حقد متقد لم يبرد حتى قتلوا سيف ابن مالك بن سيف اليعربى فى نفس القرطى •

---

(١) اسم مكان معروف .
(٢) المثل الشائع يصدق هنا اذا جاء موسى والقى العصا الخ .

وقضى هلال بن أحمد أيضا على حصن القرطي وهذه القضية هي التي يشير اليها الشيخ أبو نبهان ، ورجع هلال بن أحمد الى أبيه منصور وغانما من هــذه الحملة ، حيث قضى على القــوة رجالا وحصونا ، وكان الإمام أحمد بن سعيد بصحار ، وقد اجتمع معه جحفل ضخم ، وجيش جــرار من شرق عمان كلها ، فخرج بهــذا الجيش على طريق الظاهرة ، وجاء على طريق السليف ، وكان الوقت حارا شديدا إذ كان وسط القيظ ، فمضى حتى سيح الطيب والقوم فى تعب ، إذ أكثرهم مشاة ، فدارت رحى الحرب بينهم ، فانهزم جيش الإمام إلا الزدجال ، وآل وهيبة والبلوش ، حتى قتل هؤلاء كلهم جميعا ، ولم يفلت منهم أحد .

وهــذه الوقعة تعرف بوقعة سيح الطيب ، أفنت رجالا عديدة ، وهلك المنهزمون بالعطش ، لأنهم غرب لا يعهدون الموارد ، وتوجــه الإمام وولده منفردين لا ثالث لهما على طريق نجد الحديد الى نزوى ، وتفرق ذلك الجيش كله كما يقولون شغر بغر ، ولم ينج منه إلا من لاذ بالغبى ، فإن ناصر بن محمد أكرمهم وسيرهم الى أوطانهم بحال الســلامة .

أحمد بن سعيد يشن الحرب على نخل

كان بنخل محمد بن سليمان اليعربى على اتفاق هو والإمام أحمد بن سعيد ، وتعاهدا إلا يخـــون أحدهما صاحبه ، وكان من أولاد الإمام أحمد بن سعيد سيف وسلطان أرادا أن يتوليا الأمر على أبيهما ، وحاولا حصن بركا .

قال ابن رزيق : كان ولدا الإمام أحمد بن سعيد سيف وسلطان مستنكفين عن طاعة والدهما الإمام أحمد بن سعيد ، يحاولان انقياد الرعية إليهما دونه ، فأرادا أن يقبضا عليه حصن بركان ، فمكثا فى حصن نعمان أحـــد حصون بركا وهو محل إقامة الإمام فى بركا ، أى يتحينان الفرصة لحصن بركا ، فمكثا فى نعمان ثم بعثا الى سيف بن سلطان اليعربى بنخل ، إذ كان نائبا لمحمد بن سليمان فى نخل حال غيابه الى وادى بنى خروص طلبا أن يرسل إليهما مائة رجل من أهل نخل ، فلما وصله كتابهما لم ينتظر عودة محمد بن سليمان من وادى بنى خروص ، ولم يشـــاوره فى هذا الصدد ، ولعله ظن أن ذلك عن اتفاق بينهم ، فقام بطلبهما وذمر الرجال ، وجعل القائد عليهم رجلا من أهل حلة العتيك اسمه خنجر بن ســـعود .

فلما وصل خنجر بن سعود بقومه من أهل نخل ، قام الأميران سيف وسلطان واقتحما بهم حصن بركا ، وما شعر قابضوه إلا والقوم معهم فى الحصن ، ولمـــا علم أهل الحصن أنهما أبناء الإمام لم يكترثا منهما ، ولعلهم ظنوا أن الإمام أمرهما بذلك خوف عدو تخشى مباغته هجومه ، وكان أحمد بن سعيد إذ ذاك بالرستاق ، فلما بلغه الخبر استنكر الأمر من ولديه اللذين يرجو أن يكونا له عونا على عدوه ، وإذ بهما يقتحمان

على الأمر منافسين له ، ولعله غرة الشباب وسورة الملك حركتهما ، فإنه كما قيل لا يلد الأسد إلا أسدا ولا تلد الحية إلا حية .

وعند ذلك توجه الإمام أحمد بن سعيد بوجه حنق على فعل ولديه المذكورين ، فأحاط بحصن بركا وطوقه بالجيش وحصره حصرا حارا ، وأطلق عليه مدفعية ثقيلة ، ولم يزل الحصن يتحطم من ضرب المدافع حتى كاد أن يندك وهما فيه ، ولم يقدر أحد أن يقترب منه لشدتهما ومرارة صبرهما تحت غبار رصاص المدافع الداوى كالرعد فى صعقاته ، حتى استأذن القضاة الذين صحبوا الإمام من الرستاق ، سألوه الإذن فى الدخول عليها لإلقاء النصح لهما ، فدخلوا عليهما ونصحوهما وبينوا لهما أن الله لا يرضى عليهمـا ولا يوفقهما ماداما معاديين لأبيهمـا مخالفين لأمره ، فأثر نصحهم فى الرجلين وامتثلا أمر والدهما وخرجا من الحصن الى أبيهما .

وأخرج أهل نخل الى نخلهم ، وعفا الإمام عن ولديه وأعرض عن أهل نخل ، ولكنه أضمر العداوة لمحمد بن سليمان واتهمه بالمواطأة لهما ، واتفاقه معهما أما هما ، فقد قبل منهما عذرهما آملا فيهما عدم العودة لمثل ذلك ، وأن الحركة التى أقاماها غلطة منهما ، وأما محمد بن سليمان اعتقد فيه نكث العهد ، وعدم الوفاء بالوعد ، ولمـا علم محمد بن سليمان بما كان من أهل نخل بواسطة نائبه ، ولم يملك من الأمر شيئا إذ السهم ملك قصده ، ولم ير التوجه بعذره الى الإمام ، والحرب قائمـة بينه وبين ولديه على ساقها ، وهو يطلق المدافع على حصن بركا وأهل نخل ، وبقى حائرا لم يدر ماذا يفعل .

ولمـا انتهى الأمر بنزول سيف وسلطان ، ورجع الإمام الى الرستاق

قام محمد بن سليمان يكاتبه ويعتذر له فى ذلك بأعذار عنده ، فلم يقبل الإمام عذره ، والحقيقة أن طريق العذر غير معبدة ، وصفة العذر غير واضحة ، ولو كان ذلك كما يقول لنزل حالا الى الإمام وألقى ما عنده واعتذر إذ ذاك بما لديه من عذر ، أما كونه بقى ينتظر الأمر لمن يصير فاذا صار لسيف وسلطان فهو معهما بمقدمة رجاله ، أو صار للإمام توجه اليه بعذره أنه غير موجــود .

فهذا العذر أوهن من بيت المنكبوت ، وكل أحد يفهم العذر المشار اليه أنه واهى ، وقرر الزحف على نخل ، فجمع جيشا ضخما من السند ومن الزدجال ومن الرستاق ومن سائر بلاد عمان داخليا وساحليا ، فاجتمع له جحفل جرار ، وتوجه بهذا لنخل والحقيقة أن سيف بن سلطان هــو الذى جر البـــلاء على نخل فى هــذه القضية والجاهل لا يبالى وقديما قيل :

وجــرم جره ســفهاء قـــــوم
فحـــل بغـــير جارمـــه العــذاب

فدخل الإمام نخل ولم تقاومه البلد ، إنما قاومه الحصن ، فوجه اليه المدافع ذات القنابل الوارية وقد ضرب الجيش معسكره فى نخل كل فى مكان ، أما الزدجال فعسكروا فى بيت الشريحة الذى لبنى عزان فرقة من أهل نخل ، وبقية القوم انتشروا فى نخل الى حضين ، حتى لا يأتيهم عدو بياغتهم على طريق عقبة الصخبرى .

وكان الشيخ عبد الله بن صالح الرواحى رئيس بنى رواحـــة ، وشيوخ المعاول غير راضين بحرب نخل ، نظرا الى أن محمد بن سليمان ما أحدث حدثا يجب أن يعامل عليه بسخط ...

قلت : أما فى نظر الإمام فإنه حدث هام حيث ساق عامله جيشا لمناصرة ولدى الإمام أحمد بن سعيد •

قال ابن رزيق : فلما طال الحصار خرج الشيخ عبد الله بن صالح بجماعته بنى رواحة الى بلدانهم ، وخرج أيضا شيوخ المعاول بقومهم ، كذلك بغير إذن من أحمد بن سعيد ، وكان هو لما طوق الحصن بالحصار ، وأمر بضربه بالمدافع وأحكم الرصد عليه توجه الى الرستاق للتدابير اللازمة ، فكان خروج الذين خرجوا والإمام غير موجود بنخل ، وبقى باقى الجيش على حاله يعيث فى البلاد ، يقطع النخل ويهدم البنـاء ، ويقتلع الشجر من أصوله ، وما أبقوا من النخل والشجر إلا قليل ، وأهل البلاد هاربون منها وأرسل يطلب من زعماء الظاهرة المناصرة ، فلم يتحصل منهم على مفيد ، ورجع بالخيبة •

ثم توجه الى النعيم وكان زعيمهم إذ ذاك شامس بن محمد بن بيات الشامسى ، فأجابه بألف رجل من نعيم وبنى قتب ، فمر بهم على طريق جبرين ثم على طريق وادى بنى رواحة ، وتسللوا فى الوادى فى حال خفية وانقسموا جماعات وفى دفعات أيضا ، وتوجهوا للمطرح ليشاغلوا الإمام فى فكره ، وليشوشوا عليه فى هذه الجهة المهمة ، وكان دخولهم المطرح عن طريق عقبة مراخ ، وهجموا البلاد ، ونهبوا وسلبوا وعاثوا فى البلاد كلها ، وانتهبوا السوق وحملوا أموالا على الأهالى والتجار ، وتجهوا الى نخل فاعترضهم المعاول ، ولم يغنوا شيئا ولعلهم لم يبذلوا جهدا لأنهم خرجوا عن الجيش هم وعبد الله بن صالح الرواحى •

وكان جيش الإمام خرج من نخل زرافات ووحدانا ، وحل محلهم قوم جاءوا لنصرة محمد بن سليمان من بنى غافر أعداء الإمام ، وجاء

قوم من بلدة الحزم التى هى تحت الرستاق ، ثم خرج أهل الرستاق ، وأخيرا خرج الزدجال .

ولعل الإمام يبذل فى حرب محمد بن سليمان وكان سبب فشل جيش الإمام أحمد بن سعيد خروج عبد الله بن صالح والمعاول ، وبخروج هؤلاء تزعزع قرار الجيش ، وظل يتملص من نخل خارجا ، ولما وصل الخارجون من مطرح ووصلت نجدة بنى غافر وأهل الحزم ، تقوى محمد ابن سليمان وأحاط على الجيش المحاصر لحصن نخل ، فأحاطوا بأهل الرستاق والزدجال ، ولما ضاق عليهم الحال طلبوا من محمد بن سليمان أن يسيرهم بما عندهم من السلاح فوافقهم ، فخرجوا من نخل .

قلت : يتبين أن أحمد بن سعيد لم يجتد فى هذه الحرب أولا لأنه خرج وترك الجيش يعيث فى البلاد ، ثم لم يعد عليه بعائدة ، ثم بلغه خروج الخارجين منه ولم يرسل قوما يدلهم ، وعلم عن وصول المناصرين لهم ولم يتحرك بشىء ما ، ومما يؤيد ما نتحراه أن السعاة لما رأوا أحمد بن سعيد غير مجتد فى حرب محمد بن سليمان ، سعوا بالصلح بينهم على أن يبقى محمد بن سليمان مكانه ، وألا يخون أحدهما صاحبه ، وانتهى الأمر فى قضية نخل على هذا الحال .

ولعل الإمام أحمد بن سعيد فى تراخيه عن حرب نخل خاف استفحال الخطب بينه وبين المناصرين لمحمد بن سليمان من أهالى الظاهرة ، وكان لكل عهد سياسة ، وكان أحمد بن سعيد السائس الأكبر المحنك المشهود له بذلك فى أحوال عديدة .

سيف وسلطان ابنا أحمد بن سعيد يحتلان مسقط

لقد سبق أن سيف وسلطانا ابنى أحمد بن سعيد احتلا حصن بركا بأهل نخل ، وقام والدهما أحمد بن سعيد عليهما ، فأخرجهما من الحصن بعد شدة ، وسلما أمرهما لوالدهما الإمام ، واصطلح الحال بينهما وأبيهما ، وظن الإمام أحمد لا يعودان لمثلها ، واذا بهما يقتحمان على الحصنين الجلالى والميرانى ، فقبض سيف بن أحمد الحصن الجلالى ، وسلطان الميرانى ، وبقبضهما قبضا على ناصية مسقط ، واحتلاها وأخرجا من فى الحصنين من جنود أبيهما ومعهما الشيخ جبر بن محمد الجبرى ، وبعض الرجال فواجههما أهل مسقط من تجار وغيرهم وتمكنا من البلاد .

ولعل ذلك كان عن خيانة من القابضين والدراهم تفعل أكثر مما تفعله الجيوش ، ولما بلغ خبرهما أباهما أحمد بن سعيد هبط من الرستاق بجيش لا يزال مرابطا معه معتدا له دائما للحوادث الطارئة ، فلما دخل مسقط هم بضربهما بالمدافع ، وكان معه أخيار الرستاق ، وبالأخص هم الذين أخرجوهما من حصن بركا برضا أبيهما ، فساروا إليهما بصفة الناصح المشفق بالكل ، وصوروا صلحا بين الطرفين ، هو أن ينزلا الى أبيهما مذعنين له ، وأن يبقى سيف مع أبيه فى حله وترحاله ، وأن يكون الحصنان فى أيديهما لا ينزعهما منهما ، ولا يرفع أيديهما عنهما ، فقبل الطرفان هذا الصلح والداعى لهما الى ذلك ، كأنهما أحسا بأن أباهما قدم عليهما ولده سعيد ، وتخيلا ميل الناس اليـه ، وقد ظهر هـذا الحال بعد أبيهما وبقى الحال على ذلك سنة كاملة .

وبعده هبط الإمام أحمد بن سعيد من نزوى وولده سيف معه ، ولـما وصل بدبد قيد ولده سيف وحمله الى مسقط مقيدا ، ولـما وصلها هم يضرب الحصنين بالمدافع على من فيهما من العسكر أيا كانوا ، فقام الناس بينهما بالصلح على أن يسلما إليه الحصن الغربى ، ويبقى الحصن الشرقى فى أيديهما ، ويطلق الإمام ابنه سيفا من القيد ، فأطلق ولا يلزمه ملازمة أبيه ، بل إن شاء سار ، إلا فعلى رغبته متى يريد المسير اليه لمقابلته .

ورجع أحمد بن سعيد من مسقط الى عاصمته الرستاق ورجع ولداه الى بركا ، ونزلا حصن نعمان وكانا يقيمان فى نعمان غالبا ، ولم يزالا بعين الإمام ، وهما لم يحاولان أمرا لو نبا السيف دونه لـما عيب .

وبناء على ما أشرنا اليه سابقا أنهما لحظا عطف أبيهما على ولده أرادا أن يعملا به عمل إخوة يوسف بيوسف ، ليخلو لهما وجه أبيهما ، وكان المذكور تأثل أموالا بالبلد حبرى من وادى المعاول ، ولعل ذلك من جملة ما غاظهما ، فسارا اليه بصفة زائرين ، ومكثا معه يومين فقابلهما بكل حفاوة وجميل ، ولعله لم يتصـور ما يريدان ، فطلبـا منه أن يصحبهما الى نعمان بصفة زائر لهما فوافقهما وخرج معهما ، فلما وصلا نعمان قيداه وحملاه فى سفينة الى مسقط ونزلا بالحصن الشرقى ، إذ كانت فى أيديهما بالصلح المتقدم .

فلما بلغ خبرهما أحمد بن سعيد قام من الرستاق مغضبا ، ونزل مسقط بجمع كبير فأرسل اليهما أن يطلقا أخاهما المذكور ، فأبيا وأصرا على عدم إطلاقه ، وعند ذلك أمر على قابضى الحصن الغربى بضربهما بالمدافع ، ونصب على الحصن المذكور المراصد ، وهى السيب المحاصرة

له المحيطة به ، وأمر قادة المراكب أن تضرب الحصن بالمدافع من البحر ، فأطلقت النيران على الحصن الجلالى من كل جانب ، فلا تسمع فى مسقط إلا صعقات المدافع بشدة مريعة ، وبقيا فى حصنهما والمدد يصل اليهما من بطانتهما ، فإن لهما بطانة ، ولكل أحد بطانة •

فكان أهل طيوى وأهل صور ومن معهم يسحبون لهم المؤونة اللازمة بأنواعها تمورا وأغناما وغيرها مما تدعو اليه حاجتهما ، حتى طالت الحرب بينهما وأبيهما ، فهرب أهل مسقط الى يتى وقريات وغيرها من الساحل خوفا من رصاص المدافع الذى ينتشر فى البلاد ، حتى تكسر جانب كبير من الحصن : فلما حاول الجنود الركضة عليه لم يقدروا ، إذ وجدوا رصاصا أحمر يخطفهم ، فقتل منهم رجالا فى حال زحفهم عليه ، وكان الشيخ الجبرى معهم ، فخرج الى الطرف الشمالى يستجيش أهل ذلك الجانب ، وجاء بجيش أميره صقر بن رحمة الهولى •

وكانت سياستهم تقتضى الإحاطة بالرستاق مادام أحمد بن سعيد محيطا بالكوت فى مسقط ، وأنه كان يغار على الرستاق كثيرا ، لأنه اتخذها عاصمة ووطنا ، فأحاطوا بحصنها ، وأرجفوا بها إرجافا شديدا ، فكان من القدر أن خان أحد الخدام فى الجلالى ، وأهبط سعيد بن أحمد الى أبيه بحبل من الكوت يحمله على ظهره •

وكان الخادم قويا ويعرف بابن منح فجاء بسعيد الى أبيه ، ولما أصبح الصباح تحققا هرب أخيهما سعيد والخادم معه ، وكانا جعلاه الحارس الخاص على أخيهما المذكور ، ولما بلغهما إحاطة الهولى بالرستاق ، خافا اجتياحه إياها ، ثم يعود على مسقط فيجتاحها ، إذ قيل

لـه إن عنده ثلاثين ألفا ، فأرسـلا الى أبيهما بالخروج من الحصن ، وواجها أباهما بالجريزة ، وطابت نفسه عليهما وأعطاهما عطايا ، وحمد نظرهما وما لا حظاه فى هذه المبادرة وخرج أبوهما الى الرستاق وهما الى نعمان ، والى هـذا يشـير أمير البيان حيث قال : ولم يكف كون بنى غافر مستقلين بالظاهرة ، واليعـاربة مالكين بعض الحصـون ، حيث ثار على أحمد ولداه سيف وسلطان ، واعتصما بقلعة بركا .

ثم ذكر حرب مسقط الى أن قال : ثم إن أحمد أخذ هذه المسـألة بالتؤدة ، وانتهت بينه وبين ولديه بسلام ، والحقيقة أن أحمـد بن سعيد لم يتأثر من ولديه كل التأثر ، لمـا للولد فى قلب الوالد من الحنو والعطف ، ومن ناحية الرجلين رأى فيهما الحفاظ على الملك وأنهمـا لن يضيعاه ، وأن تلك الحروب التى قاما بهـا ما هى إلا دروس تعبر عن المستقبل الذى سوف يعترضهما ، فمن هذه الناحية رأى فيهما العزم الذى يحبه منهما ، وعرامة الولد فى صغره دليل عقله فى كبره ، وأن أحمد بن سعيد فى آخر عمره فضل الرفق ، واحتمل عدة أسايا .

ومن ذلك سـكوته عمن أحاط بالرستاق فى حال الحرب بمسقط بينه وبين ولديه ، وأن ذاك كبير فى اعتبـار الزعامة العـامة ، الى آخر ما عرف له من أخلاق واشتهر به من رعاية ، فإنه كمـا قال الإمام السالمى رحمه الله : وكان أحمد بن سعيد صاحب همة عالية ، ومطلب سام ، وجرأة وإقدام ، فصار ملك عمان كله إليه إلا ما شاء الله .

قلت : هــذا الذى استثناه الإمام العلامة هو ملك الظاهرة من عمان كما أشرنا إليه • قال : ودانت له القبائل ، وسكن الحركات ، وأطفأ كثيرا من الفتن ، وأمر ، ونهى ، وقام بأمر الدولة ، وأعطى المملكة حقها ، ودافع العجم • قال : واستراحت الرعية وتجدد الملك ا هـ •

مقام أحمد بن سعيد من الناس

إن مقام أحمد بن سعيد من الأمة بعمان بحسب المعلوم مقام وطيد ، لا يتزعزع حبه خصوصا أهل الساحل من صحار الى مسقط لهم فيه محبة خاصة ، لأنهم ألفوه أكثر من غيرهم واصطفاهم قبل غيرهم ، فكان يقوم ويقعد بهم ، وجعلوه بمثابة الأب الشفيق عليهم خصوصا فى حال أزمة العجم ، وخوف الناس منهم ، وأما أهل عمان الداخلية ، فمقامه عندهم مقام هيبة ، لأنهم علموا منه ما أكبروه عليه فى أحوال متعددة ، فأهل الساحل على طول الخط لا يرون لأحـد فضلا كفضل يرونه لأحمد ابن سعيد ، فلا تسمع منهم إلا الإمام ، وابن الإمام ، وسوق الإمام ، وبلاد الإمام •

وهكذا حتى رسخ فى قلوب الذرية ، وحتى إن بعضهم يلهج بهذا فى حواره وحديثه ، ولا يعرف من هو الإمام المعنى بهذا فقرر ذلك فى قلوب النشء بعدهم متوارثا حتى الآن ، يجرى ذلك على ألسنتهم وإن كانوا لا يعرفون المعنى به من هو •

ولا شك أن للفضل مقام ، وللزعامة لزام ، وجبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وهو قد أحسن الى أهل الباطنة ليكونوا له أداة صالحة عندما يتهجسون من العـدو شيئا أن يكونوا مـع الإمام بكل مستطاعهم ، واذا كان الإمام ذا أخلاق وذا رعاية ، وله شعور حساس ، وله حفاظ صحيح على الأمة ، أنزلته الأمـة منزلة التوقير والتعظيم ، وبذلت فى صالحه ما عز وما هان ، واذا كان بخلاف ذلك كان الأمر على العكس ، والله يعلم المفسد من المصلح •

وكان أحمد بن سعيد من صالحى الملوك ، ومن السلاطين المحبوبين فى سواد الأمة ، على المعروف فى الجيل الذى عاش فيه ، وكان أحمد بن سعيد حجر أساس هذه الدولة البوسعيدية ، وواضع دعائم أساسها بالسيف ، وكان البانى لأركانها ، والمشيد لمعالمها ، والموطد لعرشها ، والمعبد لطريقها ، بحيث يعرف ذلك الكل من أهل عمان ، فإنه لم ينلها بالهوينا ، ولم تأته ميراثا ، وإنما جاءته بحد الصارم الذكر ، وببذل المال على الرجال الذين هم الدعاة اليه ، والحماة له ، والرعاة لأوامره ، وبسهر الليالى بين السيف والرمح ، ومن طلب العلا سهر الليالى ، واحتمال الأذى وركوب المشقات قال أبو تمام :

طلب المجد يورث المرء خبلا
وهموما تقضقض الحيزوما
فتراه وهو الشجى خليا
وتراه وهو الصحيح سقيما

ولقد قضى أحمد بن سعيد على الدولة اليعربية حين رآها على الطريق النائى عن الحق ، ورآها تجنح الى الباطل ، وتجمع الى فساد عمان بحر الأجنبى اليها بعدما أخرج آباؤه منها الى الأيدى الأثيمة ، حتى قضى على ظلمها وفسادها ، الذى طم على الأمة ، وغسل أحمد بن سعيد العار عن وجهها ، وأعاد إليها سمعتها ، وكبح جماح عدوها ، بحيث أصبح انتقامه من العدو يغطى ما فعله بعمان ، وعليه فيجب أن يرفع شأنه ، ويعلى مكانه ، وتؤيد زعامته ، فانه البطل الغيور ، والليث الهصور ، الذى قام بواجب الوطن .

وفاة أحمد بن سعيد الإمام

وحيث ان كل حى ميت (إنك ميت وإنهم ميتون) وإن ذلك لابد منه فقد توفى أحمد بن سعيد فى سنة ١١٩٦ بالرستاق وقبره بها غربى الحصن .

قال الإمام السالمى رحمه الله : كانت أيامه أيام راحة واستراحة بعد تلك الفتن والمحن ، يعنى الفتن التى قام بها سيف بن سلطان ، والعجم بعمان ، وكانت مدة ملكه بعد العقد تسعا وعشرين سنة ، وقبل العقد منذ أن كان واليا على صحار كذلك ، فكان عهده له أثره الخالد .

قال ابن رزيق : وكانت وفاته فى حصن الرستاق ليلة الخميس من شهر ذى القعدة سنة ١١٨٨ .

قال أمير البيان : كانت مدة ملكه أربعا وثلاثين سنة ، قال : وكان خلاص عمان من العجم على يده .

قلت : وكانت مصيبته على أهل عمان كبرى ، لأنه أصبح السد المنيع لعمان من العدو الأجنبى الذى يحاول فى عمان ما يحاول ، فإن الشر العمانى الفارسى لا يزال من العهد الأول الذى عرفه التاريخ ، ولكن كل شىء يجرى بمشيئة الله عز وجل ، والله يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وكل شىء ينتهى إليه ، وتلك هى سنته .

وبموت أحمد بن سعيد وقع الخلاف فيما كان منظورا إليه ، فإن

خلاف أولاد أحمد بن سعيد بزغ فجره فى أيام أحمد بن سعيد كما علمت ، وقد حاول سيف وسلطان الاستيلاء على الأمر فى عهد أبيهما ، وقيدا أخاهما سعيد بن الإمام ، فماذا يكون الحال والعمانيون الذين يستظلون الخلاف ينتظرون دق ساعته ، لينضم كل فريق الى جانب ، وقد أصبح الملك يبكى بانيه ، ويندب بالأسف المضنى راعية ، فإن أحمد بن سعيد بذل فى صالح الأمة النفس والنفيس .

اولاد أحمد بن سـعيد

لقد توفى أحمد بن سعيد وترك أولادا ذكورا سبعة :

أولهم وهو أكبرهم : هلال بن أحمد ، الذى قاد الحملة الى البصرة ، وهو الذى قضى على مشايخ بنى غافر فى حرب القرطى فقرطهم قرطا أتى على آخرهم ، ومات بالسند إذ أصيب بالعمى ، فخرج للعلاج ، فكان سبب موته بالسند .

والثانى : سلطان ، وهو الذى قام هو وأخوه سيف بالحرب عهد أبيهما فى بركا ، وفى مسقط كما سبق .

والثالث : سيف الذى تواطأ هو وسلطان على تلك الحرب المشـار إليها ، والى سلطان تتصل الملوك فى عمان وزنجبار كما سوف يقف على ذلك القارىء إن شـاء الله .

والرابع : هو سعيد الذى كان أحمد بن سعيد يحبه ، وهـو الذى تآمر عليه أخوه سيف وسلطان وقيداه ، وهو الذى تولى الملك بعد موت أبيه كما سوف يأتى خبره إن شاء الله ، واليه ينتسب أولاد بدر بن حامد .

والخامس : قيس بن الإمام الذى تولى الرستاق العاصمة المحبوبة لأحمد بن سعيد ، وتولى صحار أيضا ، واليه تتصل سلسلة آل عزان كما سوف يأتى بيان ذلك إن شـاء الله .

والسادس : محمد وإليه يتصل نسب أولاد راعى ظبية المعروفون ، وهو الذى تولى السويق أولا ، وسيأتى خبره مفصلا .

والسابع : طالب الأعمى الذى تولى الرستاق أيضا ، وله فيها حل وعقد وقد كان شديدا ، ولم يعقب وسنفرد لكل واحد منهم ذكرا خاصا لإيضاح قضايا تاريخهم والله ولى التوفيق ٠

قال الإمام السالمى : وهو يذكر وفاة أحمد بن سعيد قال : وخلف أولادا منهم سعيد بن أحمد ، وسلطان بن أحمد ، وقيس بن أحمد ، ومحمد بن أحمد ، وطالب بن أحمد ، وهؤلاء كلهم يقال لهم أولاد الإمام ، قال : فأما سلطان فهو أبو ملوك مسكد وزنجبار ، وأما قيس فهو أبو ملوك الرستاق ، وكانوا قبل ذلك على صحار وتوابعها ، وأمــا محمد وطالب فإنهما وليا من قبل إخوتهما فولى طالب الرستاق ، وولى محمد السويق من الباطنة ، وأما سعيد فهو الذى ملك بعد أبيه بالحال ، وتسمى بالإمامة ، وخاطبه بها أبو نبهان لمعنى خاص ٠

قال : واشتهر بهذا من بين إخوانه فأولاده يقال لهم أولاد الإمام ابن الإمام ، قال : ولم يعدل فى ملكه ، ولم يرض المسلمون عليه ، وكان أديبا لبيبا معدودا من أدباء عصره ، قال : ومما ينسب اليه من الشعر قوله متغزلا :

يا من هــواه أعــزه وأذلنى
كيف السبيل الى وصــالك دلنى
وتركتنى حــيران صبــا هائمــا
أرعى النجوم وأنت فى عيش هنى
عاهــدتنى ألا تميــــل عن الهوى
وحلفت لى يا غصــن لا تنثنى
هب النســيم ومال غصن مثــله
أين الزمان وأين مــا عاهــدتنى

جاد الزمـــان وأنت ما واصلتنى
يا باخــلا بالوصل أنت قتلتنى
واصــلتنى حتى ملكت حشمــاشتى
ورجعت من بعد الوصــال هجرتنى
لمــا ملكت قيـــاد سرى فى الهــوى
وعلمت أنى عاشـــق لك خنتــنى
فلأقعــدن على الطريق فأشـــتكى
فى زى مظـــلوم وأنت ظلمتنى
ولأشكونك عند ســلطان الهــوى
ليعــذبنك مثــل مــا عــذبتنى
ولأدعــون عليك فى جنح الدجى
فعســاك تبلى مثــل ما أبليتـــنى

هذه الأبيات الرقيقة ذات الانسجام العذب ، والمشرب الحلو فى أسلوبها اللطيف ، ولفظها الرائق ، ذات الذوق الحلو عند أهل الفن .

سعيد بن أحمد بن سعيد الإمام

لا يخفى أن أحمد بن سعيد الإمام هو البانى لهذه الدولة البوسعيدية ، وواضع حجر أساسها ، وهو هيولاها على الصحيح ، وبجهوده وعزمه قامت على أنقاض تخريبات سيف بن سلطان ، الذى ساء فعله عندما تولى الأمر ، وقد قلده العمانيون أمرهم ، وخضعوا له احتراما لآبائه الذين كانوا يتولونهم ويرضون عنهم ، ولما تولى سيف المذكور جاء فى طريق خاص به اختاره لنفسه ، ولم يصغ لنصح ناصح ، ولا لرأى مجرب للأمور ، ولا للعارفين بالحقائق من مشايخ العلم الذين يقوم البناء على كواهلهم .

فإن الإمامة قضية علمية تقوم بأهل العلم وتقعد بهم ، ولما ظن اليعاربة أن الدولة ميراث سواء كان الوارث صالحا أو غير صالح ، ورأوا أنهم السادة فى عمان ، نزع الله ذلك من أيديهم ، ووضعه فى أيدى غيرهم ليعلموا أن الأمر فى الحقيقة بيد مالكه الحقيقى الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وهو الذى ينزع الملك من أيدى مالكه الذى يظن أنه الحقيق به ، والمالك له ، ويضعه فى يد الآخر الذى لم تحكم به النفوس ، ولم تتصوره العقول والله أعلم حيث يضع رسالته .

ولما مات أحمد بن سعيد كرسى الدولة البوسعيدية ، وواضع حجر أساسها ، تولى الأمر ولده سعيد ، وتسمى بالإمامة من غير أن يجتمع عليه أهل الحل والعقد ، ممن هم الحجة فى الدين ، فإن الإمامة فى المذهب أصلها اختيار المسلمين لصالحها لا لكل من يقول أنا الإمام ، فإن إمام الصلاة لا تصلح إمامته إلا اذا رضيته الجماعة ، فكيف بالإمامة العظمى ، التى تترتب عليها أحكام شرعية ليس لأحد أن يقضى فيها إلا بأمر الإمام الذى تجب طاعته من الناحية الشرعية .

وكان سعيد بن أحمد الابن المحبوب لدى والده أحمد بن سعيد ، فإنه يتوسم فيه سمات الخير ، ويرجو منه المصلحة العامة فى الأمة ، ولذلك غار منه أخواه سيف وسلطان ، فأركباه الأدهم ، وأودعاه الجلالى ، وخاف أبوه عليه أكبر من ذلك ، ولكنه نجـا منهما ، وبعد أبيه تولى الأمـر على إخوته •

وكان ابن رزيق يصفه بالشجاعة وفصاحة اللسان والأدب العربى ، وله رواية ودراية ، وله شعر أوردنا منه تلك الأبيات المـارة آنفا ، وبعد موت أبيه تولى حصـون عمـان إلا حصن الحزم ، وحصن نخل وحصن جبرين ، وهو الذى ولى أخاه قيس صحار ، وجيش لأرض السر جيشا ضخما أراد به إخضاع قبائل الظاهرة ، فقتل منهم عدة رجال خصوصا من بنى غافر ، فإن بنى غافر بقوا على الحال الذى كان عليه والده ، ورأى الظاهرة عدوه الذى لابد من الأخذ على يده مهما كان •

قال ابن رزيق : وغزا الحمرا فقتل شيخهم ، وهابه أهل عمان ، واتخذ الرستاق عاصمته إذ ذاك ، وولى على مسقط الشيخ محمد بن خلفان البوسعيدى المعروف بالوكيل •

ولمـا كانت الحرب التى قام بها محمد بن ناصر الغافرى ، وخلف بن مبارك الهنائى ، سيئة الأثر بعمان ، وكان من أثرها تأصل الضغن بين العمانيين ، وتحزبوا من أجلها ، وتغلغلت العداوة فى قلوبهم لبعضهم بعضا ، وشمل ذلك كل من دخل فيها من القبائل ومن لم يدخل ، وسرى فى النفوس سريان النار فى الهشيم ، فانقسم الناس من أجلها فى عمان قسمين كما هو ملوم ، فأثر ذلك العداوة بين المسلمين فى الوطن والدين ، وأصبحوا حزبين متعادين أشـد العداوة ، واذا اعتبرت الأحوال ربما

وجدت لمحمد بن ناصر العذر ، لأن أكثر المسلمين كانوا معه حتى بايعوه بالإمامة ، وعاش إماما يقوم ويقعد باسم الإمامة ، ولم يقل أحد من أهل العلم إنه أحدث حدثا يوجب خروجه من اسم الإمامة ، وكانت القبائل معه ، وأما خلف بن مبارك بخلاف ذلك ، ولكن للضعف أسباب منها الجائز ومنها غير الجـائز ، وأهل عمان لا يليق بهم والأعداء محيطة بهم من كل جانب ، إلا أن يكونوا يدا واحدة ، ولسانا واحدا ، ويتركوا كل ما يخل بموقفهم ، وإلا أكلتهم الأمم المحيطـة بهم ، وهم فى فخ عـداوتهم لبعضهم بعضا ليس ولعمر الحق هذا من صفات الرجال الأحرار .

ولم يصرح لنا التاريخ عن الصفة التى تولى بها سعيد بن الإمام أحمد الأمر بعد أبيه ، هل هو بولاية العهد له ؟ أم باتفاق العلماء الذين هم الحجة فى الإمامة ؟ أم تولى بحكم القهر والغلبة مع أن أخويه سيف وسلطان نافسا أباهما على الأمر وقاتلاه كما عرفت ، وقبضا على سعيد المذكور وأودعاه السجن ، وهما هنا موجودان ولم يعرف لهما نزاع فى الأمر ، ولا مقال ولا احتجاج .

وكان سعيد المذكور فى عهد أبيه تولى نزوى ، وهذا يدل على مكانته من أبيه إلا أنه لم يحسن العمل فعزله أبوه وولى غيره ، وكان أهل نزوى ممن يكرهه حتى شكوه الى أبيه ، وكان الشيخ الصائغى كذلك وهو من أهل نزوى لا يرغب فى سعيد بن الإمام أحمد ، بل اعترض له عمله .

قال ابن رزيق : إن الإمام سعيد بن الإمام أحمد أحدث أحداثا بعمان غير صالحة ، قال : فمقته أهل عمان كافة ، ومالوا الى أخيـه قيس وهموا بعقد الإمامة له فى المصنعة ، ومعهم سيف وسلطان وطالب ومحمد ، ولم تنته القضية ، وأرجأوها الى العاصمة السعيدية الرستاق ، فتوجهوا إليها ، وكان سعيد المذكور فيها وأرسلوا إليه بالحضور معهم فلم يحضر ، ولعله خاف على نفسه فأرسل اليهم بالضيافة ليشاغلهم بها

عن الحضور ، ولمـا تحقق الأمر الذى اجتمعوا له باغتهم بإطلاق مدافع القلعة عليهم ، ووافق ذلك حال فراغهم من الأكل ، فتفرق القوم عن غـير شىء يحسن السكوت عليـه ، وكان اجتماعهم بمحلة قصرى من الرستاق ، وتبعثر الرأى الذى بيتوه ، ولعلهم رأوا نار الفتنة تشتعل بهم ، ففضلوا التأخير الى وقت أخير •

حتى فى السنة الثانية من ولاية المذكور ، اجتمعوا فى نخل لهـذا الصدد بعينه ، وكان بها محمد بن سليمان بن عدى اليعربى ، وطلبوا حضوره معهم ولم يحضر ، ولعلهم رأوا منه العداوة وهم فى بلاده ، وكان أيضا أرسل لهم بالطعام لهم ولدوابهم ، ولعله خائف من الأولى التى وقعت عليه من نائبه فى عهد الإمام أحمد بن سعيد ، وخرجوا من نخل ولم يتم لهم أمر ، وعلى كل حال إن الأمـور مرهونة بأوقاتها وفسـاد الرأى اذا تردد ••••

حمد بن سعيد بن الإمام أحمد بن سعيد

كان للإمام سعيد بن الإمام أحمد ، ولدان هما حمد وأحمد ، وكان لكل واحد منهما كياسة وعقل ، وكان حمد أعقل الرجلين ، ولعله أدهاهما ، ولـما رأى عدم قابلية أهل عمان لأبيه سعيد ، وأن عدم قابليتهم له لابد أن يؤثر على الأمر ، وكانت لـه أفكار بعيدة ، وكان أيضا يحاول الملك من أبيه ولكنه يرى أعمامـه سيف وسلطان وإخوتهم حوله كالأسـود الضارية ، ومثلهم كما قيل من تلقى منهم تقل لاقيت سيدهم ، فأراد أن يدخل الحظيرة من بابها ، وقد مهد سياسة لمرامه قد لا يفطن لها منهم إلا غواص ذو فكر ثاقب •

قال ابن رزيق : كان حمد داهية من دواهي العرب ، لما رأى أحوال أبيه لا يقتضيها الحال ، فعند ذلك التفت الى أهل عمان بما يقربهم منه ، وتدخل فيهم وفتح لهم باب الاتصال رامزا الى والده استكشاف ما عندهم ، والاطلاع على ما تقتضيه نواياهم ، ولم يسأم والده من ذلك ، فكانوا يأتونه زرافات ووحـدانا ، وكان لأبيـه بمنزلة الوزير ، وكانوا يأتونه يتوسلون به الى أبيـه فيمـا يهمهم ، فيقوم معهم ويكرمهم ، فأحبوه وأخلصوا له المعاملة كما ينبغي ، واذا رأوا من أبيه شيئا يحذرون منه أو يخافونه ، أتوه فقام معهم ، وبذلك نال منزلة فى قلوبهم ، وسار به حديثهم ، ويقرب أهل العلم والفضل والورع •

قال ابن رزيق : فأحبه أهل عمان وزاد بغضهم لأبيه ، وتآمر هو وبعض أهل عمان فى الاحتيال على أن يتولى الملك عن أبيه ، لأنه الأحق به ، وسوغوا له ذلك ورغبوه فيه ، ولكنه يتظاهر لهم بضد ذلك • ولعله

سياسة منه ، ولعله خوفا أن يطلع عليه أبوه ، فلم يفتح لأحد منهم باب مجارات فى الموضوع ، ولكنه يعمل فى نفسه نفس المطلوب ، وهو بحسب الظاهر يتباعد عن الصدد بعيداً ، ويمنع الحديث فى الموضوع أصلا ، ولكنه يعطى الوافدين عطاء هاما ، ويبذل لهم بذلا فوق الحد ، وهكذا كان حاله حول هذا المقام الهام •

قال ابن رزيق : وأكثر النقل هنا عنه ، وإن كان بعبارة أخرى لأنه فى الغالب لا يعبر تعبيرا صحيحا ، بل يأتى بكلام العامة • قال : ومازال حمد المذكور يتحين الفرصة ليتناول ما بيد أبيه من السلطة ، حتى ثارت فتنة بين أهل اليمن ، وأهل النزار من أزكى ، ووقعت بينهم حرب دامت مدة ، وسعيد يسمع ويرى ولا يتحرك ، فقام حمد على أبيه فى هذا الصدد ، وثار سعيد بجمع كبير من أهل عمان ، وبالأخص أهالى الرستاق ، وبعد ما تمت قضية أزكى قام حمد لأبيه قائلا : إنك وليت على مسقط محمد بن خلفان بن محمد البوسعيدى المعروف بالوكيل ، وإن محمدا المذكور أخرج العسكر الذين تركتهم أنت فى الحصن الشرقى ، وكذلك عسكر الحصن الغربى ، واستبدل بهم صبيح الضويانى فى الحصن الشرقى ، وكذلك الحصن الغربى ترك فيه مسعود بن أحمد البارحى ، وهذا يدل على تصرف يوهم الاستبداد بالأمر •

فقال سعيد : ما أظن ذلك إلا لمصلحة لنا ، وما يراه الحاضر لا يراه الغالب ، فكان سعيد يحمل القضية على محمل حسن ، وهو مطمئن من المذكور لا يعتقد فيه إلا الطاعة ، وكان حمد يريد بذلك فتح باب الدخول

على الأمر الذى بيد أبيه ، وهنا قال له : اكتشف للأمر أرسل لــه يرسل لنا دراهم وأرزا لمقابلة شئوننا هنا ، فإنه قد اجتمع معنا خلق كثير ، ويحتاجون الى عطاء ، واكتب له ذلك بخط يدك خاصــة ، فإن أرسل المطلوب ، فهو كما تعتقد أنت ، وإلا فالرجل ليس بواليك .

فوافقه وكتب الإمام سعيد لمحمد بن خلفان بالمطلوب ، وإذ ذاك دس حمد لمحمد بن خلفان اذا جاءك كتاب من والدى يطلب كذا وكذا من الدراهم والأرز ، فلا ترسل له شيئا ، فقد حصل كفايته من هنا ، واعلم أنه يريد الهجوم عليك بالقوم الذين معه ليخرجك من عملك ، لأن الناس قد أوحشــوه بك لمــا بدلت العسكر ، وإنك شريت جملة من العبيد ، وإنك بسطت لصبيح بالعطاء تريد ليكون معك وإنك رفعته فوق قدره إذ أمرته أن يدخل سوق مسقط على حصانه والعسكر خلفه ، وأمامه ، وهكذا فى سكك مسقط ، وإن هذا كبير قد تأثر منه فى نفسه وأضمر لك ما أضمر ، وكذلك تقريبك لمسعود بن أحمد البارحى ، وبذلك العطاء لــه داخل فى نفســه ، وإنك أمرته يتعمم بالشالات الكشميرية ، وهى ملابس فاخرة يتزيا بها الأكابر فى ذلك العهد ، واذا أرسلت له ما طلب ليصلك بخيله ورجله ، فيعزلك من الولاية اذا سلمت من القتل .

قال : وتلك مكيدة من حمد وحيلة منه يريد بها أن يصل الأمر إليه من أبيه ، فوصل كتاب حمد الى المذكور محمد بن خلفان الوالى ، قبل أن يصل اليه كتاب أبيه ، فلما قرأ كتاب حمد ظنه إخلاصا منه ومودة ، وتصور صدقه ، وأنه له ناصح أمين .

ولمــا وصله كتاب الإمام سعيد ، وعرف ما فيه ، قال له : ارجع

إليه ، وقل له يقول لك محمد ما عندى لك شىء ، وهـذا جوابه شفاهيا فقط ، ولما رجع الرسول الى سعيد وأخبره بما رد عليه محمد بن خلفان ، وعند ذلك خلا بولده ، وأخبره بجواب الوالى له ، وأنك ياحمد صدقت فيما قلت ، فقال له حمد : أنا ما قلت لك إلا حقا ، فإن لى رجالا بمسقط يكاتبوننى عن صنيعه كله ، فإنك صرفت همتك عن مسقط ، فلا تظن أن مسقط لك ، فقال له : ما الرأى إذن فى القضية ؟ فقال لـه حمد : أرسل ولدك أحمد ليناصحه ويتعرف حقيقة الرجل ، ليطلع على أخباره ، ثم يرجع إلينـا حتى نعلم حقيقة الأمر عنه ، ولسنا بمنصرفين من أزكى الى الرستاق ، ولا الى غيرها حتى يرجع إلينا ولدك الأخ أحمد .

واتفقا على ذلك ، وهنا قدم حمد لمحمد بن خلفان الوالى كتابا إذ أتاك أخى أحمد أحبسه وأودعه القيد ، قبل أن يحبسك ويقيدك ، فاذا فعلت ذلك قطعت طمعه منك وطمعه منك وطمعه من مسقط ، وأرسل به رسولا عانيا ، وأسر إليه بذلك .

فلما وصل أحمد مسقط حبسه الوالى وقيـده فى الجريزة ، وهرب أصحابه الى أزكى وأخبروا سعيد الإمام بالواقع ، فتأثر منـه وعيل صبره ، ورأى نفس الأحدوثة فى الناس كبيرة ، وقال لولده : حمد هـذا عاقبة رأيك الذى قلت لى به إنه الرأى السديد ، فأجابه حمد : أرى أن نمضى الى مسقط بمقدار هين من الرجال قدر مائة رجل فقط ، فننزل روى وأنا أمضى الى مسقط ، واجتمع بمحمد بن خلفان ، وأخلص أخى من حبسه ، ثم آتيك به فقال سعيد ، أما تكفى الأولى عن الثـانية ، أى ربما حبسك أنت فتكون الرزية أعظم ، والجريمة أجل ، وكأنى به فاعل . وكان على وجهه لا يظن أن القضية هى عملية حمد ، فعذله ابنه

حمد قائلا : دع الوساوس وطاوعني في هذا الأمر ، وألح على أبيه وأكثر له المقال ، وأطال معه الجدال ، والوالد الحنون يتلوى على الابن الثاني لمحبته له ، لا يرضى أن يلحق بأخيه في الأسر والشماته ، ومازال حمد بأبيه حتى وافقه ومرجل غافل لا يظن في الولد إلا خيرا .

وكان حمد يحاذر أن لو وصل الإمام ، وقبض مثلا على الوالى أن يبين منه شيء دسائسه ضد أبيه وأخيه ، فتنقلب الأمور عليه قبل أن يتمكن على الحصول من نتيجة العملية التي وضع خطتها ، ورتب مجراها .

ولا شك أن المأخوذ غافل ، والملك له ثمن ، والنفس تتطلبه بما عز وهان لا سيما أولاد الرؤساء ، فإن هذا أمر وضعه الله في الطبيعة البشرية من أول عهدها ، ومازال التنافس عليه في العرب والعجم ، ولولا ذلك لما احتاجت الأمم الى التطاحن بالمدافع ، ولما هلكت الجيوش العظيمة بذلك ، وكم ممن قتل أباه على الملك فضلا عن غيرهم ، وعند هذا الحال كتب حمد الى الوالى محمد بن خلفان يقول له : اذا وصلك كتابي هذا أجمع أهل مسقط ومطرح وخدامك وعسكرك ، وانزل بهم في سيح الحرمل ، وهذا السيح هو الذى تقع عليه الآن مطرح الكبرى ، فاذا أبلغك عنا أننا نزلنا روى أبعث لنا رسولا ومعه كتاب منك للوالد تقول فيه : إن كنت تريد إطلاق ولدك أحمد فليأتني ولدك حمد ، وله الأمان مني ، وامكث أنت ومن معك في روى ، فاذا تقدمت إلينا فترا من روى تقدمنا إليك بخيلنا ورجلنا والسلام .

وأرسل حمد بكتابه هذا رسولا سريا ، فلما وصله هذا الكتاب جمع

الوالى جموعه كما أمر حمد ليوهم سعيد بن الإمام القوة عليه ، وكان المذكور غافلا ، والعملية تمشى فى ظلام غفلته ، فلما وصل الإمام سعيد روى ، أخبرهم العوام من الناس الذين لا علم لهم إلا بظاهر الحال ، وكان القابضون بسد روى وأهل البلد روى يخبرون سعيدا وولده عن الجمع الذى جمعه الوالى ، وأنه معسكر بسيح الحرمل بجيش ضخم .

فمكث سعيد ومن معه فى روى ، ومضى حمد الى الوالى ، ولما تصافحا وهش أحدهما صاحبه ، والعملية بينهما لها مقامها ، ولها أثرها وشكر محمد بن خلفان رعاية حمد له ، وكان حمد ماكرا بالرجلين معا ، ومحتالا عليهما ، وتبادلا الحديث ، وكل واحد منهما يشكر الآخر على حسن الصنيع معه ، والحيلة ماشية فى نشاطها ، فأمر حمد بإطلاق أخيه أحمد ، وأنهما يرجعان معا وأبيهما الى الرستاق لإتمام البرنامج المخطط ، وكن أنت يا محمد مكانك لا ينازعك فى الملك منازع ، وسوف أعود عليك بعد استقرارنا بالرستاق .

وحقيقة المعنى لأضعن والدى وأخى بالرستاق ، وأصل أنا لسلخك من الحكم ، وقبض الأمر عنك ، والظاهر أصلك لحسم الصلح بينك والوالد ، فإنا لا نرضى لضياعك أنت ولا نرضى ما يريده الوالد فيك ، وأنت الحر اليقظ الذى قمت بالواجب ، وأيدت الدولة ، ولك عندنا مقام ، ونحن معك لا مع الوالد الذى يريد هدم هذا البناء الشامخ والركن الباذخ .

ووضع لمحمد بن خلفان وضعا نام عليه فى وطاء مهيىء على حسب الظاهر ، وللرجال عوائل لها تأثيرها ، وبعد رجوع الإمام سعيد وأولاده وخاصته الى الرستاق ، تصور له أن مسقط خرجت من يده ، وأن محمد ابن خلفان عاض عليها بالنواجذ ، ولعله عنده من يؤيده ، وبالجملة

استولى اليأس على الإمام المذكور من مسقط ، وبقى حائرا لا يعرف الطريق الموصل الى حل هذه الأزمة الجاثمة على كاهل إمامته .

وبعد أيام قام حمد لأبيه قائلا : ألك يا والدى حيلة على قبض محمد ابن خلفان أو قبض ما فى يده بغير حرب . فقال : لا ، وماذا أفعل ؟ وقـد تمكن الرجل من الأمـر وساعدته الأقدار ، فجمع أموالا وافرة واستجلب لتأييده أناسا ، وربما ساء ظنه فى إخوته الذين عرفت منافستهم له سابقا ، وقد تبين منه العناد والرد للأمر ، وهذا يعبر عما هو عليه من المخالفة .

ثم قال لأبيه بعد ما تحقق عجزه : أرأيت إن عملت حيلة وأخرجت الأمر من يده ، وتمكنت منه أتترك لى ذلك ؟ قال : نعم قال : أتعاهدنى على ذلك ، وعلى أن تترك لى حصون عمـان أدبرها بنفسى إلا حصن الرستاق ، ولك على الطاعة والامتثال فيما يرضـاه الله . فقال لـه : نعم ، نظرا لأن أمر الولد لا يبعد عن يد الوالد ، فأجابه على ذلك من غير تردد .

والظاهر أن هذا الحال لا يدل على عقل مميز ولا على وعى صحيح ، قال حمد لأبيه : أنا أذهب الى مسقط لتدبير الأمور ، واذا وصلك كتابى أدعوك فيه للوصول الى مسقط ، فأسرع الكرة ولا تتعرقل ، وأقدم بمن معك من الرجال ، ثم عزم الرجل على تنفيـذ خطته ، واصطحب معه قدر رجل ، فجاء مسقط مباغتا مع أنه كان قد مهد له طريقا بيسا لا يخاف معه ولا يخشى .

ولمـا نزل الجريزة ، وكانت المناخ الصالح ، فأجلس رجاله فى

مناخه ، وذهب هو الى بيت الوالى ، فلما تلاقيا هو ووالد الوالى خلفان ، تصافحا وربما تعانقا ، وبعد حديث ودى دار بينهما عاجلا منه ، جئت لأصلح الشــأن بينك والوالد ، وبين الوالد وولدك محمد ، ذلك هو أن يدفع ولدك محمد للوالد كذا كذا من الدراهم سنويا ولمحمد ما قبضت يده من المعاقل لا ينازعه فيه منازع ، فسر خلفان بذلك وأنعم له بذلك إنعاما قلبيا ، وطلب حمد المقام بمسقط ثلاثة أيام ، فأجابه البلاد بلادك فأقم بها ماشئت لا حرج عليك ، وطلب أن يخلى لــه جانب من بيت النواب ، فأخليا لــه ذلك وسبقت إليه الفرش والأوانى ، لأنهما رأياه أحسن إليهما الإحسان الكامل ، حيث أعطاهما ملك مسقط وتوابعها بعد ما كان المذكور واليا أصبح حاكما .

وفى الليلة الثانية خرج عندما تمكن الليل وهبط الظلام على الأرض ، وحمل معه شيئا من النقود ، ومعه خمسون رجلا من قومه ، وسار توا الى الحصن الشرقى ، فلما كان بالباب الأول من الحصن نادى بأعلى صوته صبيح الضويانى أمير عسكر الحصن ، فأتاه ففتح الباب وأدخل حمد الحصن هو ومن معه من الرجال ، فلما رأى حمــد أنه تمكن من الحصن ، قال للضويانى المذكور : لقد كفرت النعمة التى أنعم بها عليك أبى أيام مقامك معه بالرستاق ، فصرت لنا بعدما أنعمنا عليك عــدوا أزرق ، ما حملك على ذلك ؟ وكان الضويانى يعهد أن حمدا والوالى على حال اتحاد ، فلذلك أدخله الحصن ، ولكنه عن أن الدخول فى مثل هــذا الوقت فيه ما فيه ، ثم قال حمد للضويانى : والدى أرسل لك هذا المال ، وأمرنى أن أقعد معك برجالى حتى يأتى هو الى مسقط ، وأمرنى أن أبلغك أن تعصى أمر محمد بن خلفان ، فإنه عاملنا فلا تطعه فى كل شىء

من الأمور فاذا جاء الى هنا أن ترده خاسئا أو تطلق عليـه النار هو أو أحـد من رجاله •

فامتثل الضويانى أمر حمد ، وأخذ المـال وأعطى الشراع وجهة الريح لا سيما رأى أنه مغلوب على الأمر ، ومقهور فى حصنه ، فلمـا رأى حمد تحقق أمر الحصن ، هبط وأبقى أصحابه الخمسين رجلا فى الحصن ، ثم توجه الى الحصن الغربى ، وكانت العملية هى هى نفسها وكان التعارف بينه والبارحى منذ مدة قد تقرر ففتح الباب ، ودخل حمد ومعه الخمسون من رجاله ، وأفاد البارحى أن الملك لكم وأن محمد بن خلفان عاملكم ولا مانع لدينا ، ويا بواب افتح لا سـيما حين علم أن الحصن الشرقى الآن فى يد حمد ، وأن رجاله فيه ، وأن الضويانى سلم الأمر له ، فقال حمد لمسعود نفس ما قال للضويانى ، فإن أتاك هو أو أحد من رجاله أطلق عليه الرصاص •

ولـما تمكن من وضع عمليته هنا هبط أيضا وقد نال ما طلب ، وقد أنفذ خطته كاملة كما أرادها ، وكان ذلك كله فى نفس الليلة المشار إليها ، وخرج حمد منهيا عمليته فى الحصنين ، يريد الحصن الشرقى واذا بماجد ابن خلفان أخى محمد بن خلفان فى الطريق ، وكان متخفيا فظنه حمد بن سعيد ، فجاء الى أبيه قائلا ، إن حمد بن سعيد راح الى الحصن الشرقى ، وقد احتال عليك ووضع برنامجا عنده للحتيال ، فغالطه أبوه بأن حمدا عندى أسراره والى يلقى ما عنده ، فلا تظن الأمر غير ما عندى ، فقال له : اذهب الى مناخه فى بيت النواب ، فإن وجدته ووجدت أصحابه معه فالغلط منى ، فسارا معا واذا بالمكان خالى إلا الفراش فقط والأثاث ،

فعلم محمد بن خلفان أن المكيدة قد انتهت من حمد ، وأن تلك المراسلات كلها خداع ، فانتظر محمد بن خلفان طلوع الشمس ، وإذ ذاك تجهز فى خدمه وحشمه ، وسار يريد الحصن ، فلما دنى منه أطلق عليهم الرصاص ثم رجعوا الى الحصن الغربى فكان الأمر كذلك •

وبذلك سقط فى يد محمد بن خلفان هذا ، وعلم أن الأمر انتهى لحمد ، فرجع الرجل الى بيته يفكر فى الحادث على هذا الوضع ، وماذا يكون بعده وعند ذلك أرسل حمد الى أبيه بالثورة عاجلا ، فجاء أبوه بقوته العاجلة حتى دخل مسقط ولا منافس له ولا منازع ، وإذ ذاك أطلقت من الحصنين والسفن الراسية فى الميناء ، ونشرت الأعلام المخبرة عن الواقع وهبط حمد لمقابلة والده ، وأرسل الى محمد بن خلفان أن يحضر ، فحضر الكل فى بيت الجريزة •

ولما استقر بهم الجلوس قال حمد بن سعيد لمحمد بن خلفان : قد عزلناك عن الولاية ، وسامحناك عما سبق منك من الإساءة والاجتراء علينا فلك الأمان منا ، فمضى محمد بن خلفان وإخوته وأبوهم معا الى بيتهم ، ثم بعث حمد الى سليمان بن خلفان بن محمد ، فولاه مسقط وقد قبضها حمد فطلقها عن خلفان وأولاده بعيدة بوضع رجاله فى الحصنين ، وتولاها عن الوكيل وأبيه •

والحقيقة أن هذه العملية كان المقصود بها والده سعيد ، وهو الذى رفع قدر محمد بن خلفان الى المحل الذى رمى به منه ، لأنه لم يكن عمرو ابن العاص ، وإنما كان أبا موسى الأشعرى ، ومكث سعيد بن الإمام أحمد فى مسقط ثلاثة أيام ، ثم عاد الى الرستاق ، وقد علم أن أمر ملك

عمان بيد ولده حمد ، وأنه هـو تحت مراحم حمد المذكور ، فكانت الرستاق وطن سعيد بن الإمام لا يخرج منها إلا لغرض خاص ، ثم يعود إليها وبقى حمد وهو السيد المطاع ، والملك المتبع ، فأصبح لـه الحل والعقد فى عمان كلها ، وجاءته القبائل خاضعة ومسلمة إذ كانت معه فى عهد ملك أبيه كما قدمنا ، وسار سيرة حمده المسلمون فيها ، وعدل فى الناس وكان كريما مطلق اليد ، وأحسن الى الكثير من الناس ، وكان على حال يرغب فيه المسلمون من حسن الرعاية كما سبقت الإشارة عنه .

قال ابن رزيق : فكان من جملة خاصته من أهل العلم والورع ، الشيخ القاضى مبارك بن عبد الله النزوى ، والشيخ سليمان بن ناصر المهلى ، والشيخ أحمد بن ناصر الحراصى ، والشيخ خميس بن سالم الهاشمى ، والشيخ فضل بن سيف اليحمدى ، وغيرهم من أهل العلم والورع والفضل ، وجعل مسقط وطنه الخاص .

الحرب بين المعاول وأهل نخل

فى أيام حمـد المذكور ، قامت حرب بين أهل نخل والمعاول ، سببها ثورة أهـل نخل على حجرة الجناة التى لآل مهلل على رءوس أفلاج أهل نخل ، وكان بنـاء تلك الحجرة مراغمة لأهل نخل بمساعدة من السلطان سعيد بن الإمام أحمد بن سعيد أيام احتلال نخل ، وفى هـذه الأثناء وجد أهل نخل متنفسا لهم ، فثاروا على الحجرة المذكورة ثورة موحدة ، فقضوا عليها ، قتل فيها من قتل من الطرفين ، ولكن انتصر فيها أهل نخل .

وعند ذلك قام المعاول مناصرين لآل مهلل ، إذ هم من أهل عصبتهم ، ولم تزل الحرب فى اشتعال ، وسعيد الذى هو السلطان أصبح سلطانه الى ولده حمـد ... وكان المذكور متعصبا لآهل مهلل ، ولعله يرى تلك الثورة مخالفة ، وأنها لم تكن عن اتفاق .

قال ابن رزيق ، الذى هو المعنى بهذه الحوادث : ولـما اشتدت الحرب بين المعاول وأهل نخل من قبل هدم أهل نخل لحجرة الجناة التى لأولاد مهلل ، أعان حمد المعال على حرب أهل نخل بالمـال والرجال .

قلت : ما كان ينبغى من الحاكم الذى هو الرئيس العام ، أن يعين فريقا على آخر أو طائفة على أخرى ؛ بل عليه أن يقوم لإطفاء الفتن وردع المثيرين لها ، اللهم إلا إن لم يكن قادرا على الإنصاف ، وتحقق عجزه .

قال ابن رزيق : أخبرنى غير واحد أن حمد بن الإمام سعيد حشد أيام حربه لنخل من أعراب جعلان ، وهم بنو بحسن وحلفاؤهم ، وأضاف

إليهم أعراب الساحل ، وأهل الرستاق وغيرهم من الحضر ، قال : فركض بهم على نخل ومعهم رجال المعاول قال : فانكشف جيشه •

قلت : لعل فى الجيش خيانة وإلا فنخل يكفيها المعاول إن كان القيام على الحق ، اللهم أن يكون مع أهل نخل تعصبات من أناس آخرين ، وهذا من الغلط الذى يقع فيه كثير من الحكام الذين لا يبالون بإخلال أحوال المنصب العام ، الذى يستدعى أن يكون الحاكم الميزان العدل فى الأمــة •

قال ابن رزيق : ثم رأى أى حمد الصلاح فى إصلاح شأنهم ، أى بعد ما انكشف جيشه وتحققت ، راح الى بركا • قال : فاستدعى مشايخ الجبور الذين فى بركا والحكمان والنوافل ، فأرسلهم الى والى نخل ليأتوه به لإتمام الصلح ، وكان الوالى المذكور مهنا بن محمد بن سليمان اليعربى ، الذى مازال فى نخل منذ الإمام أحمد بن سعيد : فقام المشايخ المذكورون بما كلفوا وكتبوا للوالى المذكور ، فلبى دعوتهم بمن معه ، وجاء على طريق الطو تفاديا من لقاء المعاول ، وليكون أهل الطو العضد لــه ، ولعل المشايخ المرسلين إليه كروا قاصدين إليه ، فالتقوا بعقبة الطو ، وكانوا جمعا كبيرا فتوجه الكل الى بركا ، فلما تقابلوا عند حمد ، تمم الصلح بينهم ولم يبينوا حقيقة الصلح على أى صفة كان ، ولعله على هدم ما وقع •

قال ابن رزيق : واستفتى — أى حمد — أهل العلم فى حربه لنخل • قال : وزعم أن حربه لهم لرأى رآه استحقوا به الحرب ، قال : فلم يلزموه الضمان ، أى لأنه كان مستحلا لحربهم ، قال : فتاب عما كان منه ، أى ليس عليه إلا التوبة ، وهو المفروض على المستحل إذ رأى هــو أو رأى من يعتمد عليه من أهل العلم خطأه فى حربه ، والمرجع الى الله •

قال : فضرب الطبل فى حصن بركا بالأمان على أهل نخل ، وقال حمـد لمهنا الوالى : ارجع الى نخل فإنى سآتيك ، أى لإتمام الصفا وإعلان الوفا ، ثم جاءه حمد المذكور لإصلاح الشأن بين الوالى عن أهل نخل والمعاول من الشق الثانى ، وجمع حمد الكل لإصلاح الشـأن ، وقابلهم مهنا الوالى بنخل بما يليق إذ استضاف الكل ، ثم عاد حمـد أيضا الى نخل بصفة وديةٍ بينه والوالى لتدعيم العلاقة فى المستقبل ، ودخل الحصن عند صلاة الفجر ، والتقى بالوالى وصليا معا • وقعدا يقرأن القرآن حتى طلوع الشمس •

وكان حمد المذكور وصل نخل مفردا فقط ، ثم تواصل أصحابه عند الضحى مبلغ ألف رجل •

هذا خلاصة ما فى المقام مع ترك إطالة الحكاية عنهم حيث نوخوا ، وحيث يتناجون ، وماذا قال أحد الزعيمين للآخر الى آخر ما جاء لابن رزيق مما يشبه أقصوصة ألف ليلة وليلة •

اعمال حمد بن سعيد أيام دولته

قال ابن رزيق ، وهو يصف أعمـــال حمد بن الإمام سعيد قال : بنى برجا على مكلا مسقط ، أى ثغر البحر عند المدخل الى ميناء مسقط ، فقال مصحح ابن رزيق ، يصف المكلا : جمهورية اليمن الجنوبية ، ولم يعلم المكلا الذى يعنيه ابن رزيق ، فذهب بسهوه الى البلد المعروف بهذا الاسم فى اليمن ، ولم يسبق لهذه البلدة أو المنطقة ذكر فى تاريخ عمان ، فهذا ليس من التصحيح ، لكن من البلية إسناد الأمر الى غير أهله ، وكم مثل هـــذا .

قال ابن رزيق : وأودعه — أى برج المكلا — مدافع كبارا ، أى لأنه فى وجه الداخل لثغر مسقط ، قال : وبنى قلعة بروى ، وهى المعروفة حتى الآن ، وبنى قلعة بحصن بركا ، وأدخل فيها المدافع الضخمة التى تليق للدفاع فى ذلك العصر ، قال : وأمر بصنع باخرة حربية فى زنجبار ، وهو الذى سموه الرحمانى ، وكان مركبا ضخما بديع الصنعة ، غريب الشكل ، يحمل ثقلا كبيرا اشتهر فى دولة آل بوسعيد ، واستقضى فى بركا الشيخ سالم بن محمد المعروف بأبى الأحول البلحسنى الأزكوى الشاعر الأديب ، وأحسن اليه كمــا ينبغى ، وعلى كل حال أن الإحســان فى أهله شبه الواجب ، بل مما تحمد عقباه .

ويسجل التاريخ لصاحبه الثناء الحسن الجميل ، ويبقى أحدوثة حسنة طيلة الدهر ، من ذلك أنه أمر ببناء بيت خارج سور بركا ، ولمــا كمل بناؤه ساق اليه التمر والأرز والسكر والأوانى اللازمــة ، حتى الصناديق المعتاد استعمالها والفرش التى يستدعيها الحال ، ثم أرسل

الى أهل الشيخ للوصول الى بركا على اسم الشيخ المذكور ، وكان الشيخ بحصن بركا قائما بأعمال القضاء فلما وصل أهل الشيخ بركا ، وكانوا ظنوا أن سالم مريض ، فاستدعى وصولهم اليه ، أمر حامليهم أن ينزلوهم فى ذلك البيت ، وأمر أن يخبروا أن البيت بيتهم ، وأن كل ما فيه لهم ، فلما بلغه وصولهم قال لسالم : قم لنمشى متفرجين فلما قربوا من البيت ، قال له : إن هذا البيت لك ، وكل ما فيه هــو لك ، وإن أهلك الذين خلفتهم وراءك هم الآن فى البيت ، فلما دخل الشيخ البيت عجب من الحال الواقع حيث وجد البيت مملوءا من المــال على اختلاف الأنواع ، فحمد الشيخ الله ، وشكر الأمير حمد شكرا من عميق شعوره ، وفيه قال تلك القصيدة الرائقة التى يقول فى مطلعها :

ما بين بابى عين ســعة واليمن
ســوق تبــاع به القلوب بلا ثمن

ومشى فيها يتغزل ويشبب الى أن قال متخلصا :

لازلت مقتصرا عليــه كما غــدا
مولاى مقتصرا على الفعل الحسن

حمد الذى حـُمـدت جميع خلالــه
فحلت به للخلق أخــلاق الزمن

وذهب يمدحــه مدحا يعبر عن الواقع من المذكور ، لا عن صفات مستعارة أو مختلفة ، وعلى كل حال إن اللها تفتح اللها ، وتنطق العى حتى يظن أنه من الفصحاء أهل النهى .

ولما شاع صيته ، وتحدث عنه الناس تأثر من حديثهم عمه سلطان ، وخاف منه أيضا عمه سيف بن الإمام أحمد لمقدمات جرت بين سيف وأخيه سعيد والد حمد ، حيث قيده هو وأخوه سلطان ، وحملاه الى كوت مسكد كما علمت ذلك مما سبق ، وأن الخادم ابن منح أخرجه من الكوت والمدفع يدوى فى جبال مسقط ، ووالده فى بيت الجريزة ، لهذا ولما بقى فى النفوس خرج سيف المذكور الى لاموه من أفريقيا الشرقية من أرض الزنج ، وإذ ذاك خاف حمد من عمه سيف ما يريد أن يصنع فى تلك الأرض وهى مستعمرة عمانية .

ولما وصل وجد عمه سيف ميتا ، فرجع الى عمان وبقى عمه سلطان ، وكل واحد منهما يخشى بأس الآخر ، وكان سلطان وسيف متواليين وهما شقيقان ، فعد سلطان مسير حمد الى لاموه ضغينة وحرجا كبيرا ، حيث إن سيف ترك حمدا لا يعارضه فى أمر عمان ، وأضمر له العداوة ، فجاء سلطان الى نزارية وادى سمائل كما يقول بن رزيق ، وطلب منهم المناصرة على حرب حمد بن سعيد المذكور ابن أخيه ، فعاهدوه على المناصرة ، فأول شىء عمله اقتحم على حصن سمائل فتولاه ، وطرد منه عمال حمد ، وكان دوخلهم له من جهة السوق ، ثم خرجوا منه حيث طردهم البرج المربع منه ، فلم يقر قرارهم فيه ، وعند ذلك زحف سرحان ابن سليمان الجابرى السرحانى على عوامر سيجا ، وكانوا من أنصار حمد متحصنين فى حجرتهم ، فاحتلها منهم وشرد بهم ، فغضب حمد على بنى جابر وتأصلت عداوته لعمه سلطان ، فجاء بجيش ضخم ، ولما وصل لم يجد من يكون معه لما جاء به ، ووقعت الخيانة فى الجيش ، فتعللوا له بعلل رآها ترده على ورائه ، فرخص الجيش كله ، وتوجه

هو الى مسقط ، ولم يعول على شيء فى وادى سمائل ، وأعرض عن حرب بنى جابر ، إذ رأى فى قومه مالا يرغب فيه وللناس أنظار .

ثم رجع حمد من مسقط الى الرستاق ليتفاهم مع أبيه فيما هـو بصدده ، ولمـا علم سلطان بتوجهه الى الرستاق هاجم سلطان مطرح بقومه من وادى سمائل ، فدخل عليها من عقبة مراخ شرقى الوطية ، فنهبوها وحملوا أموالا طائلة ، ثم ضرب معسكره بدار سيت شمالى بيت الفلج ، وإذ ذاك جاءه والى مسقط سليمان بن خلفان بن محمد الوكيل القائم بها من طرف حمد بن سعيد ، وعنده جمع من خدام وأحرار وعساكر مسقط ومطرح ، فكان جمعا كبيرا ، فالتقاهم سلطان بمن معه من نزارية وادى سمائل ، يعنى الغافرية على رأس عقبة دار سيت ، فانهزم الوالى وجيشه ، ووقع فيهم قتل كثير ، وجراح أكثر أثختهم ، ورجع عنهم سلطان وجنده من جبروه ، وبقوا فى دار سيت ، ولم يقدر الوالى أن يعود عليهم مرة أخرى ، ثم عاد سلطان الى وادى سمائل ، وضاق حمد بسلطان ذرعا وأهمه أمره كثيرا ، وبعد عهد غير طويل ، تواقف كل واحد منهما عن صاحبه .

وفى هذا الحال غزا حمد أهل وادى السحتن ، فهدم بروجهم وقهر قوتهم ، ثم توجه لمسقط وأقام بها أياما ، ثم توجه الى نزوى وحشد الحشود من قبائل الداخلية ، فهاجم بهلى إذ كانت فى راشد بن مالك العبرى من أهل العراقى ، وما كان مع راشد المذكور من الرجال المعول عليهم إلا قدر سبعة رجال ، وكان بينه وبين بنى كلبان عداوة ، وهم الذين أثاروا حمد على حرب بهلى ، ولم يشعر بهم إلا وهم محيطون بالحصن ، ومازال راشـد بن مالك يهوى عليهم هوى الأسد الضارى ،

حتى كاد أن يخرجهم من البلد ، فضلا عن الحصن ، ولكن القدر قضى عليه فقتل بعد أن هاجمهم سبع مرات بأولئك الرجال السبعة ، فقتل المذكور وقتل معه رجل يعرف بالشمار ، وبقتله سلم الحصن لحمد وتولاه ، فولى عليه بنى هناءة .

ثم رجع يريد مسقط ، ونجح حمد فى حرب بهلى ، ولكن لم تكن فى صالح بنى كلبان ، إلا أن بنى كلبان كان نصيبهم منها شفوا غيظهم من راشد العبرى ، وقد ذكر شكيب أرسلان أعمال حمد فى عمان وفى أفريقيا بموجز من الكلام ، كما تراه فى العليق والبسط فى بعض الأحوال يقتضيه الحال ، ولكن ابن رزيق يدون القضايا بحسب معرفته ، ويضعها بلغته ، ولا يميز بين القبائل بأنسابها ، وإن ذكر القضايا بأسبابها ، ثم جاء المصحح فزاد الطين بلة ، إذ كان لا يعرف المصطلحات العمانية فيأخذها كما يفهمها ، وكان واجب المؤرخ أن يدرس أولا المصطلحات ، وليس له أن يحكم فى قضية قبل العلم بتحقيقها .

قال ابن رزيق : وكان حمد يجل عمه سلطان الى حد بعيد ، كما أن سلطان كذلك كما سوف تراه فى كلام الإمام السالمى . قال ابن رزيق : وكان حمد مع عظم هيبته التى سرت فى عمان وغيرها ، اذا ذكر عمه سلطان يقول ما أظن أحدا من الملوك أهل القوة والبأس ، إلا دون سلطان . قال . واذا ذكر سلطان حمدا قال : لا نظير لحمد فى الهيبة والباس .

وكان مما حكاه ابن رزيق من اهتمام يرويه عن القاضى سعيد ابن أحمد بن سعيد اليحمدى : وكان كثير الملازمة للشيخ فضل بن سيف اليحمدى ، وهو كان كثير الملازمة لحمد بن الإمام سعيد ، وذات يوم

خرج معه من مسقط الى بركا ، ووصل سلطان نعمان قبل وصولهم ، وكان سلطان يعالج حمدا ليقبض عليه ، ومع ذلك لما قضوا صلاة الفجر قاموا لقراءة القرآن كما هى العادة معهم ، فاعتزل حمد فى جهة خاصة ، وظل يفكر فى هيئة المهموم ، وبعد الفراغ قال له فضل اليحمدى : أسألك بالله ما هذا الفكر الذى أنت فيه ؟ قال : أتفكر فى ثلاثة أشياء لاطيب للعيش إلا بها ، فقال له فضل بن سيف ما هى ؟

فقال : أولا ممباسة فإن حصنها قوى وحصولها كالمتعذر ، وحلفاء بنى مزروع الونيكة ، وهم قوم كثيرو العدد ، وقد تحالفوا مع المزاريع على المناصرة لهم .

وأما الثانية : فبمبى الهند فهى بلدة كثيرة العدد شديدة العدة .

وأما الثالثة : وسكت قليلا ثم قال : أعظم شأنا من الحالتين ، وهى الرجل الواصل الى نعمان قبل وصولنا ، ويعنى به عمه سلطان . فجعله أهم من حرب ممباسة فى عددها وعصبيتها ، وأهم من بمباى الهندية فى قوتها ، فقال له فضل : هو عمك وما معه أكثر من اثنى عشر رجلا ، قال هو أعظم من أمر ممباسة وبمبارى شأنا عندى ، ثم أمر بالمسير إليه ، فقربت الخيل والركاب ، ثم توجه اليه فى جمع كبير ، وفى أثناء الطريق اذا هم بسلطان ومعه الاثنا عشر رجلا أصحابه ، ولما رآهم سلطان ترجل الى الأرض وترجل أصحابه أيضا للقاء حمد بن سعيد ، وجعل يمشى وخطام ناقته فى يده ، فابتدأه حمد بالسلام ، وهو على ظهر جواده ، ولم ينزل كما نزل عمه والجند محيطون به ، فقال : يا عم تفضل معنا للضيافة ، فأجابه سلطان أنت تفضل معنا ومن معك لتقيل فى نعمان ، فأجابه بالوفاق وذهب معه الى نعمان ، فقال معه على ضيافته ، وبقى

معه الى الظهر ، ثم رجع حمد وسلطان عمه معه مشيع له الى أخريات الطريق ، ثم رجع سلطان الى حصن نعمان ، فسأل فضل بن سيف حمدا فى اليوم الثانى : واجهك عمك سلطان وهو يمشى ويقود ناقته تعظيما لك وأنت لم تنزل من على ظهر حصانك وهو والدك ، فإن العم بمنزلة الوالد ؟ فأجابه حمد : إنى والله لعلى ظهر حصانى ، وعمى راجل ونفسى ما تحدثنى بالسلامة . فقال له فضل : كيف تخافه والجنود والعساكر من حولك ؟ فقال : لو أن سلطانا عمى سل سيفه النجم — وهو اسم السيف — لما بقى معى أحدا أبدا .

وقال آل وهيبة لسلطان وأكثروا عليه : إن حمدا ليس لك بكفوء حتى تترك الملك فى يده ، وأنت قادر على نزعه منه ، فنحن علينا أن نترصد له اذا خرج من بركا ، قاصدا مسقط ، فنبيته ونهجم عليه وأصحابه ليلا ، وبحول الله لنفرقهم عنه يمينا وشمالا حتى تقبض حمدا بيدك ، وتودعه القيد .

فقال لهم سلطان : دعوا عنكم هذا الكلام ، فإن حمدا ليس ممن يقبض باليد ، فلا تتحدثوا بهذا ومازالوا به على هذا الحال حتى خرج حمد من بركا يريد مسقط ، فجاءوا الى سلطان وأخبروه وأنهم بيتوه فى روى ، وأنهضوا سلطانا لهذا الصدد ، وكان سلطان يحاول هذا الأمر من حمد ، لكن بصفة غير محرجة ، وخرج سلطان بآل وهيبة وباتوا بالقرب من مبيت حمد ، فحرك آل وهيبة سلطانا للهجوم فى وسط الليل ، ولم يتحرك ، ولما أصبح توجه الى حمد ، ولم يكن حمد يعلم عن سلطان شيئا حتى رآه مقبلا اليه بصحبه ، فأخذ إبريقا فى يد أحد خدامه وتوضأ وصلى ركعتين ، وبعد ذلك أرسل الى عمه وكان قريبا منه ينتظر فراغه

من الصلاة فلما تصافحا قال لعمه سلطان : أعلم ما جئت له ، وهـذا لا يحسن بك ولا يليق منك ، وأنا الآن بين يديك ، فافعل ما بدالك ، فقال سلطان : لا يا حمد لا تظن هذا الظن ، وأنت ولدى وما فى يدك فى يدى ولا يهم الأمر فكن مطمئنا .

فافترقا وشيع سلطان حمدا الى المطرح ، وأمر له بعطاء وافر ، ورجع سلطان الى سمائل ، فقال آل وهيبة : كيف أفلت الرجل وقـد تهيأت لك الفرصة ولم يكن عند حمد من السلاح إلا خنجره فقط ؟ فقال لهم : هبته وما كان بسلطان وهن ولا روع ولا جبن . ولكن هيبة حمد حالت بينه وبين سلطان وقصده .

وقال الإمام السالمى رحمه الله ، وهو يتحدث عن حمد وسلطان ، قال : حدثنى من أثق به من أولاد الإمام أنه كان لسعيد بن الإمام أحمد ابن سعيد ولد يقال له حمد ، كان قد طلع طلعة حسنة وثار ثورة مباركة ، فكان يأمر بالمعـروف وينهى عن المنكر فى أيام والـده ، وكان أبوه بالرستاق ، وكان هو . ببركا ، وكان يطوف بقومه على عمـان باطنة وظاهرة ، ثم يأتى الجوف والشرقية يصنع ذلك فى السنة مرتين يتفقد الممالك والرعايا ، وحصلت له فى القلوب هيبة ومحبة .

قال : فدخل على أبيه يوما وكان قد جاء من سفر وأبوه بالرستاق ، وكان بارزا فى غرفة الصلاة ، وكان قد تحزم بديولى بفتح الدال المهملة وياء تحتانية ساكنة وواو مكسورة ولام مكسورة أيضا بعـدها ياء ساكنة رداء يعمـل من الإبريسم والزرى ، قال : فقام لـه أبوه ليحييه ،

فلما رأى حمد لباس أبيه لم يتمالك أن تناول الديولى من حزام أبيه فجذبه إنكارا لما رأى فدار أبوه بذلك دورين أو ثلاثة ، أى جذبه بعنف وغضب .

قلت : أساء فيما فعل ، وقد أمره الله أن يحسن السيرة مع والديه ، وأن يصاحبهما معروفا ويقول له الله : (ولا تقل لهما أف) فكيف بمن يجذب والده حتى يدور دورين أو ثلاثة فى حضرة الناس ؟ ! إنها لسيئات يقع فيها أمثال هؤلاء الناس .

قال الإمام السالمى رحمه الله : وكان عمه سلطان أى عم حمد المذكور عند آل وهيبة فى سيوحهم الحدرية ، ساكنا معهم أى كان يحب البداوة لصحتها وما فيها من الفراغ ، وتجميم القلوب . قال : وكان همه وعزمه هم الملوك وعزمهم ، فأخذ يوما سبعين راكبا وقصد بركا ليقتل ابن أخيه خوفا على الملك أن يستولى عليه دونه ، فلما وصل بركا وافق حمدا خارجا فى البلاد على فرس ومعه فارسان ، أو قال ثلاثة ، فتلقى حمد عمه بالترحيب ونزل عن فرسه وحياه ، ثم ركب فرسه وقال : أنا قدامكم ، ومضى الى الحصن مسرعا ، فقال أصحاب سلطان كيف أفلت الرجل وقد عزمت على قتله ؟ ولا تجد له فرصة مثل هذه ؟ فقال : إنى هبته .

قال الإمام : وما كان بسلطان من وهن فى باب الرجال ، غير أن الأقران تعترف للأقران ، قال : ثم أناخ على الكرامة وترخص ومضى ، فما لبث حمد بعد ذلك إلا قليلا من الزمان ، ثم توفى ورثاه أبوه بأبيات قال فيها :

وانى حمامك يا حبيبى بالعجـــل
نـــار تلهب فى ضمــيرى تشتعل

الى آخر الأبيات ، ونسى الأب الحنون أخذ حمد الملك عنه وتركه فى الرستاق ، ونسى حين جذبه من حزامه الديولى جذبة دار معها ثلاث دورات فى غرفة الصلاة بحصن الرستاق فى ملإ من الناس ، لكن شفقة الو الد وعطفه على الأولاد أمر غير مخفى •

المحل يحل على عمان فى عهد حمد بن سعيد

أصاب المحل عمان فى عهد حمد بن سعيد بن الإمام أحمد بن سعيد ، فاجتاح أكثر النخل وقضى على المزارع ، وخرج أهــل عمان أثر ذلك يلتمسون العيش فى الباطنة حتى كادت تضيق بهم : وبلغ فى عمان مبلغا حتى بيع دلو المــاء فى مسقط بعشرة فلوس ، حتى تأثر منه الكثير فى عمان ، ولعل أفلاجا يبست منه ابتلاء من الله لعباده .

فخرج حمد بهم للاستسقاء فى مسقط ثلاث مرات فى ثلاثة أيام كل يوم بواد من أوديتها ، فأجاب الله عز وجل دعوتهم ، وأفاض عليهم غيثا مــدرارا ، وأرســل لهم سحائب غزارا والله أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، لا يتعاظمه ذنب عباده اذا رجعوا اليه ، وكان حمد المذكور ملازما للصلاة فى الجماعة ودراسة القرآن ، ونوافل الصلاة كالضحى والإشراق ، وكان رجلا مهابا وله همة عالية فى أولاد الإمام للقيام بأمر الملك ورعاية الأمة ، وبذلك أحبه الناس ، ولكرمــه الذى عرف به ، فإنه كان كريما ، وقبل موته جمع جيشا أرعن جعل مخيمه فى بركا وهــو بنفســه فى مسقط .

فلما اجتمع الجيش كما أراد فى عدته وعــدده ، ولم يعلم أحد ماذا يريد بهذا الجمع الكبير ، بل ظن صاحب الحزم أنه يريده ، وظن عمــه قيس بن الإمام أنه يريده فى صحار ، إذ كانت صحار إذ ذاك فى يده ، وظن آخرون أنه يريد حرب ممباسة ، لأنهم كانوا يسمعون منه حديثا عنها وظن كل فريق جهة ، ثم خرج مسقط الى سيح الحرمل قاصدا بركا فأصيب

بالحمى ، فرجع الى مسقط فاشتدت الحمى به ، وظهر عليه جدرى كثير ، فكتب الى أبيه بالوصول الى أبيه فى مسقط •

وفى هذه الأثناء قدر الله حرق المركب الرحمانى أم مراكبه ، ولما بلغه ذلك زاد مرضه ، ثم توفى ببيت الجريزة من مسقط ليلة الجمعة ثامن شهر رجب سنة ١٢٠٦ ، ودفن وقت الضحى فى ظهر الوادى الأوسط من مسقط قريبا من قبرى الشيخين الشقصى ، والشيخ الصبحى ، وجعل أبوه مكانه أخاه أحمد بن سعيد الذى سماه باسم جده الإمام أحمد بن سعيد ، وولى على بركا على بن هلال بن أحمد الإمام ، ومضى هو الى رستاقه مقتنعا بها ، والحقيقة أن الرستاق عاصمة مهمة لها شأنها فى عمان •

سعيد بن الإمام أحمد والعبريين

لا يخفى أن أحمد بن سعيد توفى سنه ١١٩٦ ، وقام بالأمر بعده ابنه المحبوب سعيد ، ولم يحسن إدارة المملكة ولم يرضه أهل عمان ، ورأى ابنه حمد أن الأمر اذا تلاشى ستكون عاقبته غير محمودة ، فقام حمد بعد مضى ثلاث سنين منذ تولى أبوه الأمر واحتال على الملك كما تقدم . فتولاه وأداره بمهارة وسار فيه سيرة غير سيئة ، وقام بواجبه حتى توفى فى سنة ١٢٠٦ وسعيد بن الإمام موجود على قيد الحياة .

وكان أمر الملك راجعا اليه ، ومازال هو والعبريون على طرفى نقيض حينا يقوم عليهم ، وآنا يصالحهم ، وأحيانا يزحف عليهم بجيوشه فينالون منه أكثر مما ينال منهم .

قال الإمام رحمه الله حاكيا عن الشيخ ناصر بن جاعد رحمهما الله : إن السلطان سعيد بن الإمام قال مال الى نسف الهناوية ، وتنكرت عليه الغافرية ، قال : ومن جملة من خالفه العبريون ورئيسهم يومئذ الشيخ سالم بن مسعود ، قال أبو نبهان : فكم مرة جاء الى بلدهم الحمراء بجيوش كثيرة ، وأعداد وفيرة ، ولم يقدروا أن يشربوا منها ماء .

قال : ويخرج لقتالهم أناس قلة . قال : وفى مرات لم يعم الجميع بهم فيبادرهم أناس قليلون من الخمسة عشر رجلا أو يزيدون قليلا أو أقل ، وفيهم كبيرهم هذا ، أى سالم بن مسعود ، فيقتتلون فيهم ويولون الأدبار ، والقتل فيهم وأهل البلد فى هيئة البراز لهم ، وذلك اذا كان

مجيئهم على غفلة منهم • قال : فلما لم يقدر عليهم صالحهم وأعطاهم العهود والمواثيق بالأمان عليهم جميعا •

قلت : وهذا يدل على تكرار الحال بينه وإياهم ، قال • وقرب أخا الشيخ سالم بن مسعود وأعطاه عطايا وافرة ، والقصد أن يكون ضدا لأخيه الشيخ سالم ، وبنى بينه وإياهم صداقة ، ووعدهم بالزيارة تأكيدا للصحبة وتدعيما للصداقة وتمام الألفة بينه وإياهم ، وجاءهم بجيش كبير وجحفل ضخم •

وكان من سياسته أن ترك معظم الجيش وراء الحورة حتى لا تشمئز نفوسهم ، ودخل البلد بأناس قلة ونزل البلد ، فقابله العبريون بما يجب فى حقه ، وما يلين بهم فى حق الضيف الكبير ، وهم معروفون بالكرم •

قال الإمام : فذبحوا له للضيافة وعظموا الكرامة وقعد معهم آمنا منهم وهم آمنون منه ، ولما حضر أكابر البلد وكانت نيته أن يقبض الأكابر ويهلكهم ، فما كان غير قليل إلا ورأى العبريون أن جيشا أحاط بهم ، فظنوا أن وصول هذا الجيش لم يكن عن أمره ، ولم يكن عن علمه ، وإنما هو عملا بالعادة أن السلطان تتبعه الناس أين حل وأن رحل ، ولا سيما فى المهمات التى تلم بهم ، فما شعر العبريون إلا والسيوف تلمع على رءوسهم مسلولة عليهم ، وأحاطت بهم الرجال من كل جانب ، فقتلوا أولا أخا الشيخ بن مسعود ، وعند ذلك ثار ثائر العبريين أولاد حكم الصايح كما يقولون ، ودارت المعركة بين الطرفين ، وكانت بسالة العبريين معروفة ، وشجاعتهم موصوفة •

قال الإمام : وكانوا يفرقون منهم لشهرتهم بشدة البأس ، وقلة

المبالاة بالموت وعـدم روعتهم فى الحرب ، قال : فانهزم القوم وولوا الأدبار والقتل فيهم ممن حضر الشيخ لا غير ، قال : ولم يعلم بهم من فى البلد إلا والقوم قد خرجوا من البلد فبعدوا عنهم ، واستمر الحال بين السلطان سعيد بن أحمد والعبريين عهدا ، فلما تولى الأمر ولـده حمد لم يذكر عنه من هذا القبيل شىء ، وإن هذه الأحوال وما كان من نوعها أورث سعيد بن الإمام أحمد بغضا فى قلوب أهل عمان .

ولا شك أن سوء العمـل وسوء التصرف فى الأمور يورث صاحبه الخـذلان .

قيام الشيخ أبى نبهان للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

لا يخفى أن الشيخ أبا نبهان كان من خيرة أهل العلم ، ومن أفضل أهل زمانه ، ولعله لا يماثله أحد هدى وتقوى وعلما ، وآتاه الله جاها ووسع الله له الثروة ، فكان من أغنياء زمانه ، وآتاه الله ذرية مباركة ، فكان فى أولاده الرجال الذين يشار اليهم بالبنان كالشيخ ناصر ، والشيخ خميس ، ولم تزل ذرية هذا الشيخ تتوالى على نهج الفضل ، ومازال أهل العلم يخرجون منها حتى فى عهدنا هذا .

ولكن لم يكن من صددنا الآن ذكرهم أفرادا ، وإنما المقام مقام الشيخ العلم الهمام جاعد بن خميس أصبح فى عهده كعبة القصاد لمختلف المآرب الدينية والدنيوية ، ولما كان كذلك رأى من الواجب القيام للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حد المستطاع ، وكان أهل نزوى ظهر فيهم السفه وأخذت بهم النفوس الدنيئة الى الأحوال المسترذلة ، فخرجوا فى بعض جبال سمد نزوى بنساء مسترابات ، وقام عليهم أهل سمد ، فكانت الفتنة بينهم حتى وقع القتل ، وكان هؤلاء الخارجون من أهل سفالة نزوى ، من خصوص حوائر الوادى ، وكانت الوقعة بينهم وأهل العلاية وقت الظهر ، فسلت السيوف ، وأطلقت البنادق ، فوقع أربعة رجال قتلى ، واثنان من الخارجين عليهم ، وكذلك الجراح عم الطرفين .

وكان عالم أهل نزوى إذ ذاك الشيخ سعيد بن أحمد الكندى ، ورئيس أهل سمد كلها الشيخ عبد الله بن محمد الكندى ، صاحب بيت سليط أحد حصون نزوى المهمة ، وكان هذا الشيخ زعيما كبيرا فى نزوى

لغناه ، وكان جماعته أهل طاعة له ، وكان مسئولا كبيرا فى علاية نزوى خاصة ، وكان السلطان سعيد بن أحمد بالرستاق ، فكتب اليه الشيخ سعيد بن أحمد الكندى يقول له :

أما بعد فإن السوقة طغوا وبغوا ، ونهيناهم مرارا فلم ينتهوا ، فالآن قتل منهم أربعة رجال الى آخر ما جاء فى كتابه . ولم يرد لـه السلطان جوابا ، قام أكابر أهل سفالة نزوى يطلبون من عبد الله بن محمد القاتلين فوعدهم بالغد ، فشاورهم الشيخ سعيد بن أحمد الكندى عالم نزوى إذ ذاك . فمنعه من تسليم القاتلين الى أحد ، لأن الناس أصبحوا لا يؤمنون فى شيء ، حيث استولى عليهم الهوى ، فخاف التعدى فى العقوبة .

ثم كتب أكابر عقر نزوى الى السلطان بصفة الواقع ، وما وصلوا اليه ، فجاءهم بجيش فلما وصل نزوى طلب من عبد الله بن محمد رئيس سمد نزوى المقتولين ، فاعتذر اليه بأنهم اختفوا عليه ولم يعرفهم ، ثم طلب منه بعد ذلك سبعة رجال ضمانة عنهم حتى يأتى بهم ، فأجابه الى ذلك خوفا منه ، وكان أحد السبعة ولده ، ثم طلب منه بيت سليط ليجعل فيه رجالا من طرفه ، وكان البيت لعبد الله المذكور ملكا بناه فى أرضه المسماة سليط ، وكان حصنا منيعا على رأس فلج دارس الذى هـو زمام نزوى وعمدتها ، فأبى عبد الله أن يسلمه للسلطان ، ولما أبى من تسليم بيته أضمر له العداوة فاستجاش أقواما وجمع جموعا ، وقبض مقابض نزوى وخصوصا العلاية ، واجتمع أهل العلاية فى بيت سليط ، وفى جامع سمد ، والسلطان وجموعه فى الحصن ، وأهل السفالة فى حرائرهم ، وأهل العقر فى عقرهم ، وبقيت الأمور بين الطرفين غير

مستقيمة من تاسع شوال الى خامس عشر من ذى القعدة ، وكانت القضية وقعت يوم ثامن شوال سنة ١١٩٨ •

ولم تقع فى هذه الأيام التى ذكرناها حرب إلا كونهم متقابضين المعاقل ، وإنما قتل رجل واحد جامودى من أهل علاية نزوى ، أطلق عليه رصاص من الحورة من بعض رجال السفالة ، ولما تحقق عجز الشيخ سعيد بن أحمد الكندى ، والشيخ الزعيم عبد الله بن محمد عن إخراج المقبوضين من يد السلطان ، رجعوا بأمرهم الى الشيخ العلامة أبى نبهان ، وتناظروا فيما بينهم واستنهضوه لهذه المهمة ، فجاء الشيخ المذكور يوم خامس من ذى القعدة من السنة المذكورة ، ونزل بالحذفة عند نفسه لا عند أهل العلاية ، ولا عند أهل السفالة ، ولا عند السلطان ، وكتب الى السلطان كتابا يقول فيه :

أما بعد فإنى جئت مع نفسى لامع عبرى ولا ريامى ولا كندى ، ولامع غيرهم ، بل جئت مع الحق ، والحق مع من اتبع الهدى ، وله أردت ، وقد بلغنى أنك قبضت رجالا بغير جنية ، فهذا لا يصح لك ولا يجوز فى دين الله ، وفك عقولهم الساعة قبل اليوم ، ولا تتأخر ساعة واحدة ، وعليك من ذلك التوبة •

وكان السلطان يحترم الشيخ العالم أبا نبهان ، فأجابه بالسمع والطاعة ، وأرسل له هدية قبلها الشيخ منه ، وقال السلطان : أنا ما أريد إلا الفاعلين بأنفسهم ، فوعدوه بهم على أن يأتوه بهم وطلبوا منه أن تكون عقوبتهم فى الرستاق لا فى نزوى • خوفا عليهم من أصحاب المقتولين ، فأجابهم وأطلق المقبوضين ، ونادى مناديه بالأمان ، وفسح

لأكثر رجاله بالعودة الى أوطانهم ، وطال القيل والقال فى هذا المجال ، حتى ولى أهل سمد نزوى أمرهم الشيخ سالم بن مسعود زعيم العبريين على ما سبق بينه ، والسلطان من الحرب المتقدم ذكرها ، وحينئذ امتنع سالم بن مسعود من تسليم المطلوبين الى السلطان ، بل أذعن بتسليمهم الى ثقات المسلمين لا غير ، وأظهر حقدا على السلطان حيث قتل أخاه فى أمان •

وانضم الى الشيخ جاعد الشيخ سالم بن مسعود ، وأخيار المسلمين الذين يرون الشيخ جاعد الرجل الفذ فى وقته ، ومع ذلك كاتبهم أخ السلطان سلطان بن الإمام أحمد فى القيام معهم على أخيه ، فاشترطوا عليه أن يكون الأمـر الى خيار المسلمين ، فيقدمون من يرونه أصلح للأمر ، فوافقهم فقبلوا منه وطلبوا وصوله ، وشاع الحديث عن هذا الصـدد ، فجاء سلطان بن الإمام الى وادى بنى رواحـة فمنعوه من الطريق ، لأن شفعهم عنـد أخيه سعيد ، ولعل ذلك المنع كان عن تعارف بينهم وبين السلطان ، فلم تتم عمليتهم ، ولو أراد الله لها إتماما لجاء سلطان وادى العق ، وأصبح معهم فى نزوى ، ولكن الأمور تجرى بمشيئة الله عز وجل ، فقـوى أمر السلطان سعيد برجـوع أخيـه سلطان بن الإمام أحمـد •

وبقيت الأمور فى نزوى تترامى فى لجنة المحاولات ، ولم يستقر للناس قرار على أصل صحيح ، والأحوال أقرب للخوف منها للأمن ، والسلطان على كل حال غـير مأمون الجانب ، والشيخ جاعد فى مناخه المعروف ، والناس تتوافد اليه ، والسلطان فى الحصن ، ورأى الشيخ جاعد اجتماع الناس حوله والتفافهم عليه ، وأن العلامة الجليل الموقر فى الأمة ، تحركت نفسه لإقامة سنن العدل وإعادة السيرة التى سـار عليها الأئمة فى عمان ، وذلك واجب كل مسلم عند الإمكان •

قال الإمام السالمى رحمه الله : وأما أبو نبهان فإنه لما نزل الحذفة من نزوى ، ورأى القبائل متجمعة على السلطان ، أحس فى نفسه القوة على ما كان يحاول ، فأخبر عن نفسه أنه نزل الحذفة ليكون غير والج معهم ، وفى معزل عن غيرهم لمعنى أراده ، قال : ثم أرسل الى السلطان يخبره بنزوله بها ، وأن أمره اليه لا الى غيره الى آخر ما ذكر .

وحاول الشيخ ومن معه دخول العقر ، لأنه أحد حصون نزوى المعروفة ، وفى أنفسهم اذا دخلوا العقر تمكنوا من الأمر ، لأن العقر فيه كل ما يستدعيه الحال من المال والرجال ، والتحصن فيه من هجوم كل ضد لهم خصوصا عند الاتحاد ، وكل المحاولة زوال السلطان ، ورد الأمر الى أهل العلم والإيمان وبتمكنهم من العقر تكون لهم قوة على الحصن .

أما القلعة فهى أيضا ميسورة المنال ، اذا قبضوا على العقر والحصن ، ولكن لم يكن التوفيق إلا من عند الله ، وما النصر إلا من عنده ، ولكل شىء سبب ، وشاء الله ألا يتم الأمر الذى أراده الشيخ أبو نبهان لأمر أراده الله فى أزله ، ولا يكون إلا ما يريد الله عز وجل ، وبعد محاولة من الشيخ ومن معه لدخول العقر ، اقتضى النظر الاقتحام عليه من السور ، فقلوا عليه السلالم ودخلوا فى الثلث الأخير من ليلة ثامن عشر من ذى القعدة سنة ١١٩٨ ، والسلطان نائم فى حصنه ، فلما انتبه من نومه قال له بعض أصحابه : نخرج على القوم قبل أن يتكاثروا ، فقال السلطان : لا ، لأنا لا نعلم الدولة الداخلة قليلة أم كثيرة ؟ وخاف السلطان الخديعة فاقتضى نظره الخروج من البلاد ليستجيش أقواما يعزز بهم قوته قبل أن يحاط به فى حصنه ، وتسد عليه طرق المواصلات ، فيبقى محصورا ، ولا يعلم ما وراءه .

فخرج حالا فى نفر قليلين ، وكان خروجه من باب السوق على خيل وركاب ، ومضى الى إبراء من الشرقية ، وحشد أهلها ومن نواحيها من هناوية الشرقية ، من حيث استطاع وضل فى مخرجه ذلك سبعة أيام يجمع الجموع ، وأبو نبهان ومن معه فى العقر محاصرين للحصن ، ولعلهم استهانوا بأمر السلطان فظنوه هاربا منهم ، ولعله لا يعود خوفا منهم ، واذا به عشية الأحـــد ، بعد سبعة ، يصبحهم بجيش عرمرم كالجراد المنتشر ، من الجنود ، ولا يخفى أن الناس تتبع السلاطين طمعا فيمـــا معهم ، وإذ ذاك خرجوا لهم فى سمال ، وكان هؤلاء الخارجون أبطالا جربتهم الأيام وجربوا الحروب ، وهم فى بسالة معروفة ، الأمور تجرى بمشيئة الله عز وجل .

قال أبو نبهان نفسه : إن فى الخارجين من أولى الشدة والبأس يقاتلون كثيرا ، وإن قلوا يعرفون بذلك ، وهو يشـــير بذلك الى الشيخ سالم بن مسعود العبرى وجماعته ، قال : كانوا معروفين فى قتال السلطان غير مرة ، وفى قتال غيره ممن هـــو أقوى منه ، فلا يقدر عليهم بحيلة . قال : وفى هذه الوقعة تولوا على ورائهم منهزمين فى الحال ، من غـــير ما قتل ولا قتال ، لأمر أراده الله تعالى فى بقاء هذا السلطان ، على ما هو عليه من البغى والعدوان ، والغى والطغيان ، وعسى أن يكونوا كذلك أهلا ، كذلك لا مرد لأمر الله ، ولا معقب لحكمه ، ولابد من كون ما فى سابق علمه .

ثم رجع الشيخ أبو نبهان الى العقر بمن معه ، ونزل السلطان فى جامع السوق ، ونزل جيشه معه حتى ملأ حوائر الوادى والبطحا ، أى المسيل المستطيل الى برج القرن ، وبهذا أصبحت محاولة لا أثر لها ، فقام ناس بالصلح بين السلطان والشيخ ، وقال الشيخ أبو نبهان : إن السلطان أرسل اليه مع أناس من أعوانه كتابا يدعوه فيه الى الصلح ،

فأجابهم الى ما طلبوه لـما رأى أنه فاته مارلم بالتخاذل عن القيـام لقهر البلاد ومجاهدة أهل العناد لإرضاء رب العباد ، ووصل ناس من أولى الشـدة والبأس ، ففرح الشيخ بهم وأراد منهم أن يقفوا على الأسوار خوف هجوم العدو عليهم ، فلم يجد منهم إلا الخذلان ، بل سمع منهم ما يسوءه مما يخالف أمله ، بل أراد منهم الوقوف على الأبواب والاسوار الى الصباح فقط ، ولم يقدر عليهم ، والحقيقة لا لوم عليهم حيث جنود السلطان محيطة بها وربما وجـدوا عند السلطان المـال ولا يجدونه عند الشيخ ، وهذا هو الزمام الذى يقود الناس من أنوفها ، وبالأخص السـواد الأعظم •

وهذا الحال هو الغالب فى كل أمة ، وكل زمان ، وحالة الشيخ هنا ضئيلة جدا ، فلا معاش ولا عتاد ولا سلاح ، فلا لوم عليهم على هـذا الحال ، وأشار على الشيخ أحد أصحابه بجبر أهل البلد أن يبايعوهم الطعام بالقيمة ، فأبى أن يجبرهم إذ لم يصح معه أن لهم فضلا عن حاجتهم •

قلت : ولو جبرهم لجاءوا بالسلطان على الشـيخ حالا • قـال الشيخ ناصر بن أبى نبهان يعنى والده : أجاز جبرهم على بيع الطعام لمثل هذا الأمر الذى ذكره أن لو عرف أن معهم فضلة عن قوتهم لسنتهم ، وكان الشيخ أبو نبهان فيما حكاه عنه الشيخ ناصر أن دخوله فى هـذا الأمر ، لأن أخ السلطان وعدهم بالإعانة على حرب السلطان ، وقد هيأ الأشياء اللازمة كلها ، ولكن حيل بين ما يشتهى وبينه ورجع القهقرى ، وكل ذلك فى صالح السلطان لأمر أراده الله عز وجل •

ولـما قرر الشيخ (الخروج) من العقر لم يقف بنزوى وأراد أهل سمد وقوفه معهم فلم يوافقهم لـما رآه من (فشل) ما خطط ، وانهيار

ما بنى ، وراوده الشيخ سالم بن مسعود زعيم العبريين ومن معه من أبناء عمه الأبطال الذين عرفهم الشيخ زايد بن نبهان وغيره ، إلا أن الوقوف يحتاج الى ألوف ، وأن الرجال تحتاج الى مال والـدول ، خصوصا فى أول تأسيسها وهـذا من لا ينكره عقل ولا نقل .

قال : ولمـا تحقق خروج الشيخ من العقر ثم من نزوى خرجت جنود السلطان الى سمد نزوى فاوقعوا بأهلها قتلا وتشديدا .

سلطان بن أحمد يحتل ملك عمان

كان سلطان بن أحمد أكثر مقامه بسمائل عند أخواله الجبور ، فاذا خرج من سمائل لمهم عاد إليها خصوصا بد وفاة أخيه سيف بن أحمد شقيقه ، وكان صاحب همة عالية وعزيمة طائلة وكيف لا وأبوه أحمد ابن سعيد وأخواله آل محمد بن ناصر ، ومازال العداء بينه وأخيه سعيد مستمرا لا سيما لما تولى الأمر حمد بن سعيد ، وقام قياما حمده فيه الناس اهتم بذلك سلطان اهتماما فوق الحد ، وحاول قهر حمد مرات بدعوى أن حمد ولدنا ونحن آباؤه لا يمكن أن يتولى علينا ، حتى اذا قضى الله على حمد ، وعاد الأمر الى سعيد مرة أخرى ، خرج عليه سلطان وتولى عليه الأمر برغبة أهل عمان فيه وإعراضهم عن أخيه ، ولم يبق فى يد سعيد بن الإمام أحمد إلا الرستاق ٠

وعلى كل حال زالت عنه دنياه وزال عنه أهلها ، ومقتوه لا سيما اذا كان مطاعا من أجلها ، وكان سلطان رجلا عاقلا ذا رأى وتدبير ، وأحسن الى الشيخ أبى النبهان ورعاه واحترمه ، ولم يأنس منه شيئا يكدره أبدا ، واستراح فى أيامه أبو نبهان وذريته ، وقام فى عمان مقاما حمد فيه من الجانبين الهناوى والغافرى ، وألف بين الناس وساد الكل على وتيرة أبيه أحمد بن سعيد ، وزاد بالبذل فإنه كان مبسوط اليد لا يرد سائلا ولا يدخر عن قومه شيئا يستطيعه ، فكان الناس معه بطبيعة الحال يوقرونه برغم ما يرون مما يؤثر عليهم من أمر الهناوى والغافرى ٠

قال أمير البيان : وانتزع سلطان مدينة بركا من يد على بن هلال كما قدمنا ، ثم أخذ مسقط واستبد بالأمور ، قال : وفى سنة ١٧٩٨ فى ١٢ أغسطس انعقدت بين شركة الهند الإنكليزية (معاهدة) أمضاها جون مالكولم سنة ١٨٠٠ بين الشركة المذكورة وبين سلطان على بعض المسائل التجارية ، قال : وتبعها معاهدة أخرى بينه وبين الإنكليز أمضاها جون المذكور ، يحق بموجبها لإنكلترة إقامة معتمد بمسقط ، قال : وأخذ يمد سلطته فى البلاد ، فانتزع من يد أخيه سعيد ثغرى السوق والمصنعة ، وافتتح جزائر قشم وهرموز والبحرين فى الخليج ، وجعل ابنه سالمــا أمــيرا عليهــا .

قال : إلا أن قبيلة العتوب التى كانت تلى أمور تلك الجزر عادت فاسترجعتها ، وطردت ابنه منها ، قال : وفى هاتيك الأيام غزا الوهابيون عمان ، واجتبوا الزكاة من الظاهرة ووقع الخوف من تقدمهم الى الجنوب وكان سلطان قد حج تلك السنة ، فلما عاد من الحج وجد البلاد فى المقيم المقعــد .

قال : فعقد مجمعا قرر فيه النفير العام لصد الوهابيين ، فلما بلغ ذلك قائد الحملة الوهابية ، عجل الانصراف وظهر أن الأمــر استوثق سلطان إلا أنه بقضاء الله وقدره ، هلك بعد ذلك بقليل فى قصة عجيبة ، وهى أنه زار البصرة وبينما هــو قافل منها زل من سفينته فى مرسى لنجة ، وركب قاربا قاصدا بندر عباس ، وكان الوقت ليلا فالتقاه ثلاث قوارب عليها رجال فتقاتلوا وأسفرت المعركة عن مقتل سلطان ، وذلك فى ١٣ شعبان سنة ١٢١٩ الموافق ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٠٤ .

قال ابن رزيق : كان سلطان طويل القامة ، جميل الصورة شجاعا بطلا صنديدا ، لا يعبأ بكثرة أعدائه اذا كان فى قليل من أهل خاصته فضلا عن الكثير منصفا من الظالم للمظلوم ، وقد احتل حصن بركا من على بن هلال ابن أخيه ، وفى حال هجومه على حصن بركا صادف رجلا من العسكر خارجا يريد السوق لقضاء أغراضه ، فقتله أصحابه وقتل سلطان بواب الحصن بخنجر طعنه بها ، فأرداه قتيلا •

كان هو ومن معه اثنى عشر رجلا فقط ، فيهم خميس بن راشـد الهنائى ، ومصبح بن غريب القرينى ، ومحمد بن حمد الوهيبى ، وسالم ابن ثانى الجابرى ، ثم دخل الحصن فلم يقدر من فيه على معارضته ، بعث رسولا الى الطو يطلب منها رجالا ، فجاءه مائة رجل فرقهم فى مقابض الحصن ، ولم يبق فيه أحد من رجال على بن هلال إلا بنـو رواحة فى القلعة تقبضوا فيها ريثما يؤدوا واجبهم ، ويتضح عذرهم ، ثم نزلوا منها •

وكان نزولهم على يد شيخهم ربيعة بن أحمد الرواحى من أهالى محلة الجنينة من بركا ، وحملوا كلما لديهم من آلة وعـدة ، وأتى سلطان أخواله الجبور وأمدوه بالمؤونة اللازمة من تمر وأرز وسائر الحوائج ، وأرسل كتبه ورسله الى المعاول ونخل وسمائل ، وطلب منهم أن يلاقوه فى القرم من أعمال مطرح ، فجاءه القوم الذين طلبهم بحسب الميعاد الذى قرره لهم ، فاجتمع معه جيش ضخم •

ولـما علم على بن هلال بما وقع من سلطان من احتلاله حصن بركا وزحفه على مسقط ، أنبه أبوه ولامه وعض على أصابع الندم ، ثم أمره

أن يتدارك مسقط فيأتيها من طريق البحر قبل دخول سلطان لها ، فجاءه المصنعة وركب منها سفينة تنقله الى مسقط ، وكان من قدر الله أن وصل على بن هلال مسقط قبل سلطان ، وتمكن منها لأن سلطان إذ ذاك بعده فى القرم ، وكان سلطان كتب من القرم الى أهالى مسقط ، وأن لهم الأمان على أموالهم وأنفسهم ، ولم يشعر أن على بن هلال فيها ، وكتب أيضا الى رزيق بمثل ما كتب للتجار والأهالى ، وأمـره أن يتصل بهم ويبلغهم عنه ما قصد لـه .

وكان رسوله سعيد بن مصبح الرواحى ، ثم صار الى أحمد بن سعيد وعلى بن هلال ، وأخبرهما ما وصله من عمهما وأراهما كتابه ، وعندما أطلعا على الكتاب تكلمـا بكلام ظاهره يعبر عن قدرتهما على معارضة سلطان ، ولكن عندما تحقق الأمر إذ بهما دون ما قالا ، واذا بسلطان يدخل مسقط ، ولـما نادى المنادى بدخول سلطان مسقط لم يقدرا على الخروج لـما قالاه ، فهجم سلطان على الباب الكبير فقتل من أصحابه ستة رجال ، فانهزموا عنه ثم كروا عليه الثانية فقتل منهم ستة رجال ، وانهزموا أيضا ، ثم جاءهم على بن عبد الله شيخ بنى وهيب ، وكان قابضا للباب الصغير من طرف أحمـد بن سعيد ، فقال لسلطان وأصحابه أنا أدخلكم فأدخلهم من الباب الصغير بغير شىء ، فلما دخلوا قال سلطان لعلى بن عبد الله : قبحك الله يا خائن ، اطردوه من هنا فطردوه جزاء خيانته ، وترك بالباب المذكور سرحان بن سليمان الجابرى ، ومعه مائة رجل من جماعته .

ثم دخل سلطان الجريزة وهى إذ ذاك الحصن الكبير فى رقعـة مسقط ، وكان دخوله من الباب الشرقى المقابل لدكان محمد بن حبيب

الرمحى الصائغ ، ودكان عبد الغفور الصائغ مولى الحرث واشتبك القتال فى مسقط من الجلالى والميرانى ، ونادت مدافعهما بفتح الميدان ، وزحف محمد بن خلفان على عقبـــة كلبوه ، وكان من أنصـــار سلطان ، وكان القابضون العقبة رجال حمد بن سعيد ، وعلى بن هلال ، فانهزموا وقبض محمد بن خلفان العقبة المذكورة وهى باب من أبواب مسقط •

ومازالت قوة حمد بن سعيد والى مسقط تضعف وقوة سلطان تتقدم ، ثم سلمت الصيرتان وهما القلعتان اللتان على ميناء مسقط ، وكذلك القطع البحرية سلمت لسلطان ، وبذل محمد بن خلفان فى نصرة سلطان النفس والنفيس ، ولمـــا تمكن سلطان من مســـقط كتب الى أخيه قيس : أنى قبضت مسقط لك ، وإنما أنا سيف دولتك وأنت أولى بالأمر منى ، فإذا أتاك كتابى فانهض بقومك وعسكر بهم فى وادى القاسم ، وعليك أن تشغل أخى وأخاك سعيد عن الزحف لمسقط و فيكون قوة لولده حمد وابن أخيه على بن هلال ، وتطول الفتنة وتكبر الى حد بعيد •

فقام قيس كما أراد سلطان ، وضرب معسكره فى وادى القاسم مهددا لأخيه بالمعنى المفهوم ، إنك اذا توجهت لمسقط فأنا أتوجه للرستاق ، وأن سلطان ما دخل مسقط إلا بإذنى ، ولا قام لها إلا بأمرى ، فكن مكانك فى رستاقك ، واترك ولدك وسلطان وشأنهما ، وأنذره بالتهديد •

فوقف سعيد بن الإمام مكانه ، وبقى سلطان وحمد وعلى بن هلال ومن معهما فى صراع لمسقط ، ولكن كان أمـــر سلطان يتقدم ، وأمـــر الرجلين يتأخر ، وخرج محمد بن سليمان العدوى من الحصن الشرقى لينهب بيت أولاد عمه ولمـــا بلغ الخبر سلطان وهو فى بيت الجريزة ،

قام كالأسد الخادر المغضب ، فلما رآه محمد بن سليمان ومن معه مقبلا عليهم هربوا منه فلم يتمكن منهم إلا على رجلين أرادهما قتيلين ، وأما الباقون فدخلوا الحصن الشرقى ، وكان محمد بن سليمان المذكور فى حال هروبه صادف مسعود بن محمد بن سيد بن عبيدان ، فطعنه برمح فى أنفه وأخرج السنان من عنقه ، وقتل من أصحاب سلطان رجلا ظاهريا برصاصة أراده قتيلا فمات أما مسعود ، فيقال إنه عاش بعد سلطان عهـدا .

وفى هذه الأثناء قام أهل الخير الذين لا يحبون الفتن ، ولا يرضون بها فى الوطن ، فسددوا الحال على أن يبقى الحصن الشرقى لسعيد بن الإمـام ، والحصن الغربى فى يد محمد بن خلفان بن محمد الوكيل ، باسم سلطان ، ولقيس بن الإمام حصن المطرح ، وخراجها وكل أمرها إليه ، ودخل مسقط لسلطان وعليه تموين الحصن الشرقى الباقى باسم أخيه سعيد ، وتموين المراكب الراسية فى البحر ، ويكون محمد بن خلفان هو والى مسقط ، وهو عامل سلطان وأن سلطان يقيم بالجريزة مادام فى مسقط .

وبقى الأمر كذلك مدة ثم خرج حمد بن الإمام سعيد من الحصن وولى أمره محمد بن عبد الله الشقصى بأمر أبيه ، وخرج على بن هلال من الحصن الغربى وسلمه لحمد بن خلفان والى مسقط ، وقبض قيس حصن المطرح وترك فيه عماله وكل واحد منهم يتحين فرصة الآخر حتى جـاء ذات يوم سلطان مسقط على حين غفلة من أهلها ، وإذا بمحمد ابن عبد الله الشقصى فى الجريزة ، فجاء ليسلم على سلطان فقبضه وأمر أن يكفت ومن حظه سلم من القتل ، بل قال له سلطان : حياتك بتسليم

الحصن ، فسلمه راغما ولم تنفعه الحيل التى أبداها بين يدى ذلك البطل الذى مازال أمر مسقط ممتزجا بدم دماغه •

ولما قبض سلطان الحصن سلمه الى الجبور وجعل الأمير عليهم أحد خدامهم يسمى محيسن بن سعيد المعروف بالزهيبى ، وكتب سلطان لأخيه قيس بقبض الحصن الشرقى وأنه لك ليهدىء الحركة وكن واقفا لأخى سعيد مراعيا حركاته وسكناته ، وانتهى أمر مسقط الى سلطان وبقى محمد بن خلفان فى مسقط بصفة وال لسلطان ، ولكن لكل واحد عملية يدبرها نحو صاحبه ، فقام محمد بن خلفان يبنى الحصن الغربى ويقويه ، ويضاعف له العدة ويشيد أركانه ويجلب له المدافع القوية ويزيد فيه الرصاص والبارود ، ويملأ مخازنه بمثل هذه الأحوال من الرصاص وآلة الحرب •

محمد بن خلفان يتحفز لحرب سلطان

لقد حاول محمد بن خلفان الاستقلال بأمر مسقط عن سلطان ، وكل يرغب أن يكون ملكا ، رأى محمد بن خلفان فى نفسه قوة على قهر مسقط والاستبداد بها عن غيره ، وليس بين ذلك إلا أخذ الأهبة للدفاع عن الحصون بالمعدات وبالرجال ، إذ كان العمانيون وحدهم ، بعث محمد ابن خلفان الى خصيف بن مطر الهنائى أحد الرجال المقاديم فى بنى هناءة ، يطلبه للوصول الى مسقط بمن عنده من الرجال الذين هم ممن يعول عليه ، فجاءه بمائة رجل من بنى هناءة من خاصة بنى عمه وأقاربه ، ولمـــا وصلوا قابلهم محمد بن خلفان بالجميل وانبسط لهم ، وبسط لهم اليد وأعطاهم العطايا الوافرة ، وأحسن إليهم تماما وأنزلهم فى الحصن الغربى ، ولا يخفى أن مائة رجل فى مثل ذلك الحصن ، وفى مثل ذلك الوقت ماذا يخرجهم إلا القدر .

وجعل خصيف المذكور واليا عليهم ، ثم ذهب واشترى عبيدا من الزنوج وكانوا يجلبون بكثرة فحلاهم بالخناجر والسيوف ، وهى إذ ذاك من سلاح الوقت ، ولمـــا بلغ هذا الحال سلطان بن الإمام أوجس منـــه خيفة ، وحاك فى نفسه ، وتأثر من هذا العمل عليه محمد بن خلفان .

وظاهر الحال أن محمد بن خلفان يخدم دولة سلطان ، فالناس من هذه الناحية تقـــدره كما ينبغى ، ولكن سلطان ذلك العبقرى المحنك الذى أعطته أيامه دروسا من مراسم السلطنة ، وعلمته ما ينبغى أن يفعل من حيث لا تدرى الأيام وأهلها ماذا يفعل ، فإن الله عز وجل خلق عباده

كــلا لعمل ، ومنهم لقصعة من ثريد ، فتغافل سلطان أعمال محمد بن خلفان ، وكأنه لم يستنكر منه أصلا •

ثم خرج سلطان من بركا يريد مسقط ، ومعه زعيم آل وهيبة محمد ابن حمد فى مائة رجل من جماعته ، فركب سلطان بهؤلاء الرجال ومن انضاف إليهم من خاصته سفينة ومعه أيضا بدر بن أخيه سيف ، وكان سلطان كما هو الفطن اليقظ ، وخبرة الحصن عنده بتمامها وكان للحصن المذكور باب سرى من ناحية البحر أعد للطوارىء المباغتة ، وكذلك أيضا للحصن الغربى ، وكذلك لحصن المطرح ، وكانت هذه الأبواب مغطى عليها ومحفوظة بحرس خاص •

فدخل سلطان من هذا الباب المشار اليه وهو من جهة مغب ، أى الجانب الشرقى ، فشاع فى البلد دخوله وأشيع أيضا أنه مصاب بألم الجدرى فلما بلغ محمد بن خلفان هذا النبــأ ، وأن سلطانا فى الحصن ، وأن به جدريا ، توجه محمد المذكور وأبوه خلفان وأخوه على ليعودوا سلطان ، فلما كانوا بالجريزة لقيهم ماجــد بن خلفان أخو محمد بن خلفان ، وأخبروه عما توجهوا له ، وما بلغهم بسلطان من مرض الجدرى ، فقال لهم ماجد ما بسلطان شيء من مرض أبدا ، ولا تتعرضوا لنقمته منكم ، وإياكم والقدوم عليه وما هى إلا إشاعة حيلة ليصطادكم بهــا ، واتركوا سلطانا وحصنه ، ولا توقعوا أنفسكم فى الشبك ، وقد علمتم بصنيعه فى الشقصى ، وله من هذا النوع نوادر •

فلم يرق كلام ماجد لأخيه محمد ، ولم يصغ له فتوجهوا إليه واذا به بارزا فى صحن الحصن لا بأس به ، وعند ذلك أوجس محمد بن خلفان

خوفا من سلطان ، فلما أرادوا الخروج قال سلطان : أما أنت أيها الوالد خلفان فمرخوص ، وأما ولداك محمد وعلى فلا • فقال لـه خلفان بن محمد : وما تريد من تأخيرهما ؟ فقال : أريد الحصن الغربى ، ثم أشار الى قبض محمد بن خلفان فقبض ، وأخذ الى المحبس ، فهبط خلفان والد محمد مذعورا مرتاعا يقول لمن يلاقيه قبض محمد قبض محمد •

أما على فرخصه سلطان بعد ذلك ، لأن المقصود بالذات هو محمد ابن خلفان ، وغاية ما عند ماجد أن ركض هو وخصيف بن مطر على أهل السوق لينهبا أهل السوق ، لمـا تحققا حبس محمد بن خلفان ، فنهبوا ما قدروا عليه وما أمكنهم ، وبذلك طافت على أهل مسقط موجة ذعر عارم وابتأس الناس ، فإن الشر كالنـار يأكل ما يلاقى ، وأغلق التجار دكاكينهم ، وصك الناس على أنفسهم بيوتهم ، ومـلأ الخوف البلاد ، لأنهم يعلمون أن عند سلطان بدو وهيبة ولبسوا بأقل شرا من غيرهم •

وكان ماجد وخصيف أرادا بذلك الاعتداد لحرب سلطان ، ونشرا علم الحرب المعتاد إعلانا بذلك ، واذا ذاك أرسل سلطان الى رزيق بن بخيت جـد المؤرخ المعروف ، وأمره أن يأخذ معه ناسا فيهدم مبانى محمد بن خلفان فى مسقط ، فقال له رزيق : يا مولاى هذه مبانيك ومحمد ابن خلفان عاملك لا يملك شيئا فـلا تخربوا بيوتكم بأيديكم ، فوافق سلطان ، ولكنه أمره بقفلها على ما فيها ، لأنها بيت مال ، وما فيها راجع الى السلطان وأمره أيضا أن يرسل الى القطع البحرية بإطلاق مدافعها على الحصن الغربى فصده رزيق بدعوى أن الحصن أعلى منها اذا ضربها دمرها ، فتركها سلطان •

ثم دخل رزيق على محمد بن خلفان فى الحبس ، وناصحه بتسليم الأمر لسلطان ، فامتثل فسلمها لسلطان وأمر خصيف الهنائى بالتخلى منها وبالخروج عنها ، وبعد أخذ ورد ، وبوساطة الشيخ ماجد بن سعيد البروانى ، أن يحمل خصيف من الحصن ما يريد ، وانتقل محمد بن خلفان الى بيت الفلج هو وخصيف الهنائى ، وكان معه خمسون رجلا من جماعته ، وكذلك حصن المطرح استخلصه سلطان من يد عمال قيس بن الإمام بعد ضرب مدفع ، وإطلاق نيران البنادق ، وبقى اثنى عشر يوما ، وكل يوم والمدافع ترسم التاريخ ، وفى النهاية انتهى أمره الى سلطان بحرب محمد ابن خلفان فى بيت الفلج ، ثم سحب سلطان المدافع التى فى أسوار بيت الفلج وبروجه صلحا بينه وبين محمد بن خلفان •

سلطان بن الإمام يحصن مسقط

لـــا قبض سلطان مسقط ومطرح ، وقص أظافر محمد بن خلفان بسحب مدافع بيت الفلج ، انتفى المحذور ، وإذ ذاك أقبل سلطان على تحصين مسقط فأمر ببناء قلعة ضخمة على أرض الراوية ، لتكون حصنا لمسقط فى ذلك الثغر ، لأن أكثر الداخلين لمسقط المهاجمين لها يدخلون من ذلك الثغر ، فقام خلفان بن ناصر البوسعيدى الذى ولاه سلطان مسقط ببناء هــذه القلعة ، فبناها وبنى البرج المقابل لها كحامية لهـــا ، وبنى البرج الآخر الشرقى الجنوبى كذلك ، فتم بنيان الجميع فى ثلاثة أشهر ، وجعل سلطان فى هذه المبانى رجالا انتخبهم واليه المذكور وحصن مسقط تحصينا كاملا لعلمه أن إخوته لا يقلون عنه عزما وهمة وأنهم ينظرون إليـــه شزرا .

ولا شك أن الملك لمن غلب ولابد أن يتحركرا يوما ما لمهاجمة مسقط .

قيس وسعيد ابناء الإمام يحاولون حرب سلطان

لما تبين لقيس وسعيد أن سلطانا يحاول أن يكون السلطان اسما ومعنى ، وهم كلهم أولاد الإمام أحمد بن سعيد ، ولا خصوصية لأحد ، لكنه لابد أن يكون السلطان أو الإمام أحدهم لأنه ليس من المعقول فى الأمم كلها إلا هذا ، أما كونهم يتقاتلون على السلطة والرئاسة ، فهذا ليس من الحق فى شىء ، بل هذا الحال هو الذى نهى الله عز وجل عنه بقوله : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) •

واختلاف الكلمة وتلاشى الأمور مما يثير الضغن ، ويدخل العدو على الصديق والاعتبار بالماضين أكبر مرشد لأهل العقول ، وأصدق شاهد على ما نقول ، لكن أنفس الزعماء ممزوجة بحب المنافسة ، وكان قيس بن الإمام حاول العمانيون أن يبايعوه بالإمامة ، ولكن لم يكن التوفيق حليفهم •

وقد مر عليك أيها القارىء الكريم ذلك ، وأما سعيد فهو الذى تولى الأمر بعد أبيه ولكن لم يسعده الحظ ، وأما سلطان فهو الذى مازال يحاول السلطنة فى عمان ، لما يرى فى نفسه من القدرة عليها وهو الرجل العبقرى الفذ الصريح ، وكان عاش وقتا غير قصير فى بادية وهيبة فى سيوحهم الحدرية كما قال الإمام السالمى رحمه الله •

وكان كل ما لديه من وعى وإدراك يحاول به السلطنة فى عمان حتى هذا الحال الذى تمكن فيه مسقط ، وقام أخواه يستجيشان عليه وأكبر

محرك لهما محمد بن خلفان المحل الذى أخرجه سلطان من مسقط والمطرح راغما ، فتعاهد قيس وسـعيد ومحمد بن خلفان على حرب سلطان ، فاستجاش قيس من الظاهرة والباطنة خلقا ، واجتلب حتى العفار الذين هم بين عمان وظفار فقيل إن جيشه بلغ ستين ألفا ، وجمع سعيد بن الإمام أيضا من جانب الرستاق من استطاع ، فلما بلغ أمرهم سلطانا أهمه جـدا فأرسل الى أهل الشرقية ومن يأمل مناصرته من أهل عمان الى جعلان ، ولم يأته إلا ماجد بن سعيد البروانى ، وكان هو الرئيس على الحرث ، ولم يكن معـه إلا قدر مائة رجل فزحف قيس وسعيد بجيشهما الى القوم من ناحية الوطية ، وضربا معسكرهما وملأ جيشهما تلك الرقعة كلها .

فما كان من سلطان إلا أن أمر بإشعال النيران بالسليط فى جبال بيت الفلج ، وروى وما إليها طول الليل ليوهم قيسا وسعيدا وقومهما أن الجبال كلها مملوءة رجالا ، وما كان عند كل نار إلا واحـدا واثنان يوقدان النار فى السليط على الخرق والجوانى ، فظن قيس وسعيد أن عند سلطان جيشا ملأ السهل والجبل ، والحقيقة ليس معه إلا رجال ماجد البروانى ، وقليل من الجماعة ثم إن سلطانا أرسل الى قيس كتابا يقول فيه : إذا وصلك كتابى هذا فامض بقومك مسرعا الى بدبد ، وأقم بها حتى آتيك لأخلص لك بدبد وسمائل وذر مسقط حتى نتفاهم نحن وإياك فيما بيننا ، وأوهمه أشياء .

وكان قيس تغلب عليه سلامة الصدر ولعل قيسا تخيل أن بدبدا مضيق عمان وبقبضها سيكون القوى على الداخل والساحل ، فلمـا

وصله كتاب سلطان تلقاه بالصفا وتأثر به ، ورأى فيه النجاح ، فارتفع حالا الى بدبد وعسكر بها وتفرق جيشه إلا ما شاء الله .

فلما تزحزحوا عن مسقط ، وانحلت الأزمة الداهمة أحكم سلطان قبض مسقط ، وأتم عمليته فيها بأسرع ما أمكن ، ثم خرج على طريق حطاط الى سمائل ، فلما وصلها صرخ فى أهل وادى سمائل بأن قيسا جاء بالداهية الدهياء ليفعل أشياء تكون وبالا على البلاد ، وعنده من لا يعرف الصديق من العدو ، فاستثار حماس القوم ، وأثار حفائظهم فقاموا معه قومة رجل واحد ، فأشعلوا الحرب وأطلق حصن بدبد مدافعه على قيس ومن معه ، وقد نفد زادهم لأنهم جاءوا ليقبضوا الحصن بغير عناء ، واذا به يلهب نارا ويلقى عليهم من لفحه شرارا ، فتشاور الزعيمان قيس وسعيد ، وتحققا من سلطان برقا خلبا ، فافترقا من هناك فتوجه قيس الى صحار وسعد الى الرستاق ، وقد فرغ ما بأيديهما من المال الذى جمعاه لرخصة الجيش ، فوقفت الحرب فى الحال إلا أن الضغائن بلغت منتهاها .

ولا شك أن الملك ثمين ولا ينال بالهوينا ولكنه بركوب المخاطر وبقطع رقاب الأباعد والأقارب ، وواجه سلطان كل أهل عمان من شرقها وغربها ، ولباه جميع أهلها واستقر قرار أمره فيه ، وأعلن سيادته عليها ، ولما كان خصيف بن مطر الهنائى لم يزل فى قلب سلطان له حقد لا يزال باقيا خرج سلطان الى نزوى بصفة سرية ، وكأنه متغافل أمر الرجل أو معرض عنه فأمر على خادمه سويلم بن سالمين ، ومحمد بن عيسى النيرى الهنائى أن يرجعا الى مسقط ويتحينا الفرصة لقبض المذكور ، وهو

لا يزال عقيد بيت الفلج ، ولكنه ينزل الى مطرح لحوائجه الخاصة لكنه على حالة حزم وعلى صفة يقظة •

وفى هذه الأثناء يرى أن سلطانا فى داخلية عمان ، ولعل حقده قد زال وكان بين خصيف المذكور ومحمد بن عيسى ضغن أيضا ، فساق القدر خصيفا الى مطرح ليقضى بعض أوطاره آمنا من ناحية سلطان والمـأخوذ غافل طبعا ، وكان معه اثنا عشر رجـلا من جماعته ، وكان سويلم بن سالمين ومحمد بن عيسى النيرى ومن معهم كامنين لخصيف على طريقه ، فما شعر خصيف إلا والقبض يعمل عمليته فيه ، وفرعنه جماعته لدهشة راعتهم ، وقبضوا خصيفا وقيدوه وأودعوه السجن ، ومنعوه الطعام والشراب بحسب الأمر حتى مات ، فألقوه فى البحر بعيدا وانتهى أمره •

سلطان يزحف على السويق والمصنعة

ولما استقر أمر مسقط وأمر وادى سمائل الذى هو حلقوم عمان ، زحف سلطان على السويق على أثر قهره لوادى سمائل وطرده لأخويه قيس وسعيد ، وكانت السويق إذ ذاك فى يد سعيد بن الإمام ، فقال سلطان الملك لا يكون مشتركا لما يخشى فيه من الأحوال التى يعرفها أهل هذا الشأن ، فسلمت له السويق حين عرفته السلطان لها ، ثم عطف على المصنعة فلم تبعد عن أختها بعيدا ، وتم له هذا العمل متتابعا فى عهد غير بعيد المدى ، وعند ذلك وجه عزمه الى ما هو أبعد من هذا فاصطلح مع محمد بن خلفان لما يخشاه من مكره وتدبيره .

سلطان يتحفز لحرب شهبار وتوابعها

لما تم الأمر لسلطان كما ذكرنا تحرك لاسترداد المستعمرات العمانية فى الخارج ، فقام سلطان فى قوته الوفيرة ، وفى عزيمته الشهيرة ، فزحف برجال عمان على تلك البواخر الكبرى التى هى كالجبال الرواسى ، فنزل ساحل شهبار من بلاد مكران ، فسلمت له ما سبق فى روعها الخالد أنها بالأمس عمانية ، ولا شك أن اليوم تبع لأمس .

ثم زحف بجيشه الضخم الى القسم وكانت من مهام بلاد بلوجستان ، فاحتلها بعد يسير من الأمر السياسى ، فقويت فى ساحل مكران شوكته ، ثم زحف على هرموز التى هى سويس الخليج ، وكان احتلالها بآل معين الذين هم الزعماء فيها ، وكان سلطان يدرى من أين تؤكل الكتف ، فأكرم سلطان بنى معين فرفعوا العلم العمانى عليها بعد ما غاب عنها عهدا ، وتبدل وضعها .

ثم تابع زحفه الساحق وهجومه المتلاحق على البحرين فاحتلها راغمة ، وقبضها مسالمة ، وولى عليها الشيخ سيف بن على بن محمد البوسيدى ، وبقى فيها عهدا غير طويل ، ثم عزله وولى عليها ولده سالم بن سلطان ، وكان ولدا صغيرا لم يجرب الأمور كما ينبغى ، ولم يمارسها وفق المطلوب ، فعضده بالشيخ محمد بن خلف الشيعى نظرا الى أن بين زعماء البلاد والشيعة تباينا وتنافسا ، وهذا من أخطاء السياسة .

فلما مضى وقت يسير اذا بعملية أهل البحرين تشرف على النجاح بتجمعهم على سالم بن سلطان واحتشادهم عليه وحصرهم إياه فى قلعة عراد ، ثم صور نوع من الصلح وهو إخراج الشيخ الشيعى ومن معه

بما فى أيديهم من سلاح وعتاد ، وزاد وزناد ، وخرج الشيعى فأخرج سالم بن سلطان معه وسويلم بن سالمين كذلك وسائر رجالهم الى مسقط ، وقبض شيوخ البحرين بلادهم ووضعوا رئاستهم عليها ، وهجم الزعماء على البحارنة أى الشيعة بعد منصرف سالم بن سلطان وأصحابه منها ، وقتلوا الكثير منهم وأذلوا الأكثر ، وحازوا الأموال وتفرق جمع الشيعة فى سائر البلدان ، وعذبوا الباقين منهم بها عذابا أليما ونكلوا بهم فوق الحــد بدعوى دخول سلطان البحرين ، لأنهم يدعون أن دخوله كان بسببهم ، وأنهم هم الذين حركوه على البحرين واختلاف المذاهب بين الطرفين يؤيد المقصد ، ورأى الشيعة البحارنة من أهل البحرين ما ساءهم فوق الحدو سيأتى لهذا المقام مزيد بيان فى التعليق عليه إن شاء الله .

النعيم يهاجمون صحــار

من المصائب فى عمان ، ولا مصيبة مثلها معنى الهناوى والغافرى ، وما وضع الشيطان بلية بعمان مثلها ومن أجلها ثورة النعيم على صحار ، إذ تصور لهم أن آل أحمد بن سعيد هناوية يحبون الهناوية ويميلون إليهم ويقربونهم أكثر من غيرهم ، فقام النعيم على صحار متذرعين بأن لنـــا عادات من صحار وما أعطينا إياها ، ودسائس أخـــرى يحوكها العمانيون وحدهم ، فنزل النعيم فى العوهى من اعمال صحار ، وبالقرب منها ، فما شعر أهلها إلا والقوم قد غشـــوا البلاد يقتلون وينهبون ويفعلون فيها غير الجميل ، ولم يقدر قيس بن أحمد على زعزعتهم منها ، لأنهم كثيرون وبادية البريمى تنساب إليهم زرافات ووحدانا ، وأهل الأطماع من طعام الظاهرة كذلك .

ولـــا رأى قيس أن لا مزعزع لهم منها ، استغاث بأخيه سلطان وطلب منه النجدة العاجلة لكشف هذا المهم النازل ، فاستصرخ سلطان أهل عمان الداخلية إلى جعلان ، فجاءه رهط غير هين واستثار أخاه سعيدا حاكم الرستاق خوفا من استفحال الخطب وتعديه الى أبعد ، وكذلك دعا سلطان سيف بن على بن محمد ، واحتشد جند عظيم غصت به صحار وكان قيس يحاول حل قضية القوم بالتى هى أحسن نظرا لشر القوم القريب من صحار منذ عهد سابق ، فكتب الى النعيم أن يرجعوا الى ديارهم بغير قتال ، ووعدهم بالمـــال الذى يريدونه .

وكان قد استمال من بادية البريمى الظواهر وحلفاءهم ، وقرب أهل ينقل والسليف ، ولـــا لم يقبل منه الرجوع ولم يريدا من الحرب ، عبأ كتائبه ورتب جيشه ، وجعل على الخيل سيف بن على بن محمد ،

لأن الخيل تكون فى المقدمة ، وبقية القبائل كل قبيلة برايتها ، ومع أميرها ، وانضاف بنو ياس الى النعيم وهم خصوصا أهل دبى وأميرهم هزاع ، وكذلك بنو قتب .

فالتقى القوم بموضع يقال له الدباغ من صحار ، فدارت رحى الحرب فهلك فيها ثلاثمائة رجل من النعيم ، ومائة رجل من قوم قيس وسلطان ، وكانت الهزيمة على النعيم لبغيهم المفرط ، ثم خرج النعيم وقبضوا وادى الجزى ، وهو مضيق معروف نظرا الى أن المناصرين لقيس وسلطان من أهالى منطقة البريمى والظاهرة لا طريق لهم إلا وادى الجزى ، وبالأخص الظواهر ، ووقع فى أذهان الظواهر أن شوكة النعيم انخضدت بتلك الواقعة التى تركت القتلى ملء ساحة الدباغ ، ولما توسط القوم فى وادى الجزى كر عليهم عدوهم كرة غضب وحقد ، فأنقتل من الظواهر ومن كان معهم قدر ثلاثمائة رجل ورأوا — أى النعيم — أنهم أخذوا ثأرهم ، وارتحلوا الى البريمى ، ولما تلاحقوا فى البريمى ثارت الحرب بينهم بالغارات والغزوات ، ولم تزل عهدا طويلا ، وأغارت وهيبة على النعيم ، فهجموا على القبائل فقتلوا من النعيم عدة رجال ، وأغار سلطان على دبا عن طريق البحر ، فقتل من قوم الشرقى ... والنقبيين جملة ، وأفسدت الدروع السبل ، وخوفت الناس ومازال التعصب يواصل أعصابه حتى جاء سلطان بن الإمام الى تلك الجهات فسدد الأحوال وأطفأ نيران الضلال .

سلطان يقوم ببناء حصن الفليج

نظر سلطان بن الإمام أحمد أن لابد للعائلة من مكان خاص لائق بعيد عن العواصف وهيشات الحروب ، فاختار واحة الفليج لقربها من بركا ومن مسقط ، وغير بعيدة من وادى سمائل الذى كان يألفه سلطان فى واحة مطلقة الهواء لينة الموطىء منحازة عن معرات الجيوش ، وهى واحة الفليج التى بين بركا ونخل والطو ، فبنى سلطان ذلك البيت الحلو الأنيق فى مـــدة وجيزة ، وأسكن فيه بعض أهله ، وكان كثيرا ما يتردد عليه ويقيم فيه ، وولى على مسقط بعد موت خلفان بن ناصر البوسعيدى الوالى بها سيف بن مسعود البوسعيدى ، ثم عزله عنها وولاه بهلى ، وولى على مسقط سليمان بن سيف بن سعيد الزاملى ، ثم لم يطل عهده وولى عليها ماجد بن خلفان بن محمد الوكيل البوسعيدى ، ثم أخرجه وولاه الشرقية وجعلان وصور ، وولى على مسقط بعده سيف بن محمـــد ثم عزله ، وولى عليها خصيف بن خميس بن حمدون الوهيبى ، ثم ولى عليها بعده خلوف مولى لبنى هناءة ، ثم ولاها بعده سيف بن حنظل البوسعيدى ، ثم ولاها بعده سيف بن محمد البوسعيدى ، ولم تزل ولاته تتخالف عليها ، ولم يزل مهتما بها كل الاهتمام ، ويدير الآراء بشأنها فى كل آن .

ثم أقبل عليها بهمة فعالة ، فبنى فيهـــا قصر العلم ، ذلك القصر الضخم الرائع ، وجعلها وطنه الخاص ، وهـــو أول من تلقب بالسيد من أولاد الإمام أحمد بن سعيد ، وعلى أثر هـــذا العهد أوفد عبد العزيز السعودى الى عمان عبدا نوبيا من عبيده ليفتح له ثغرة بعمان ، ويبنى لـــه فيها بنـــاء جديدا تسجله الأيام فى تاريخ السعودية فى عمان ، حين ظل أمراء عمـــان من آل أحمـــد بن سعيد يتقاتلون على الملك ، ويتهارشون على الدنيا خلافا لسبيل المسلمين وعدم اهتمام بأمر الدين .

الاضطراب فى عمان فى عهد سلطان بن الإمام

كان سلطان بن الإمام تزوج بنت ناصر بن محمد الغافرى أخت حميد بن ناصر ، فتوفيت عنده فطلب سلطان ميراثه من أخيها حميد فلم يتيسر له شيء منه ، بدعوى أن كل ما بيده هـو بيت مال لا إرث فيه لأحـد ، وامتنع حميد من دفع شيء لسلطان بن الإمام من تركه أخته ، فوقع فى النفوس أمر كان سبب التنافر والشقاق بين سلطان بن الإمام وحميد بن ناصر ، فطلب سلطان مواجهة حميد ، فامتنع حميد خوفا من سلطان يقبض عليه ، فتحقد سلطان وأضمر السوء لحميد بامتناعه من تسليم الإرث لـه وعـدم إجابته لدعوته ، فدس سلطان على حميد الدسائس من جهات شتى ، وبأنواع مختلفة النواحى ، ومنها أرسل من مسقط أحمد بن يوسف بن موسى الشيعى لكسر مدفع ضخم أمام حصن جبرين ، كان من الصفر وكان هـذا الشيعى صفارا أى يعمل من أجل الصفر وأنواع منها ، فسار الى نزوى وأقام بها صفارا ثم طلبه حميد الى جبرين ليعمل له مراجل كبيرة ، ولمـا رأى الفرصة سانحة عمل عمليته فى كسر المدفع الصفر المذكور فكسره ، ثم هرب بالليل الى مسقط وكان ذلك المدفع من أشهر المدافع فى قصر جبرين فقضى عليه .

قال ابن رزيق : فكثرت الغزوات والغارات ، وتفاقم القتل ومالت النزارية كما هو تعبيره بذلك ويعنى به الغافرية . قال : مالت النزارية وحلفاؤهم من أهل الحمراء والجبل وسيفم والظاهرة الى حميد بن ناصر ، فكان هـو القطب .

قال فى شأن الوالى سيف بن مسعود : فوقع القتل بينه وبين أهل جبرين ، وأصابه جراح برصاصة من إطلاق نيران القوم ، فرجع هـو

وقومه الى بهلى متحيزا بها ، فعاش ثلاثة أيام ، فمات فى بهلى وظلت الحال تسير على هذا الحال ، ومن المعقول اذا كانت الأمة لا جامع لها تحت راية وحدة لعب بها الشيطان وأغرى بعضها على بعض ، فكان ذلك أعضل أدوائها وأصعب أمراضها ، وهنا تغلغل هـذا الداء وكاد لا يزول ولا يزال لــه عروق تنبض به لتمزيق عمان ، اللهم إلا اذا كان للأمة جامع قوى من عدل وإنصاف ، وإنزال الناس منازلهم وتأييد الحق أين كان ، وممن كان وإلا فالأمر جلل والداء عضال .

سلطان بن الإمام يتهيأ للحج وفى النفس مآرب أخرى

فى سنة ثمانى عشرة ومائتين وألف ، تهيأ سلطان بن الإمام للحج ، فاصطحب من أهل عمان جملة من رؤسائها من شمال عمان منهم الشيخ محمد بن مطر الشرقى صاحب الفجيرة ، ومهنا بن سليمان اليعربى ، والشيخ ربيعـــة بن أحمد الرواحى .

ولـــا مضى على توجههم الحج بعض الأيام ، وتحقق ذلك بـــدر ابن سيف بن الإمام أحمد ، قام بمن معه وكان يسكن حبرى من بلدان وادى المعاول ، فدخل مسقط ليلا ومعه بعض الرجال ، فدخل على ماجد بن خلفان بن محمد الوكيل البوسعيدى ، وتعاهد هو وإياه على أخذ الحصن الشرقى من مسقط ، وكان سلطان ترك فيه أحد خادمه يقال له كومبو بضم الباء الموحدة بعدها واو أميرا على الحصن . وكان عتيقا شقيقه سيف ابن الإمام والد بدر المذكور واختفى بدر عن الناس هو وأصحابه فى الليلة التى دخل فيها مسقط فى بيت ماجد بن خلفان ، فلما كانت الليلة الثانية ليلة العملية مضى بدر الى الحصن الشرقى وبصحبته خادمه براكا المعروف بالصرملة بسكون الراء المهملة وكسر الميم وتشديد اللام المفتوحة عتيق والده أيضا سيف بن الإمام ، وخمسة رجال من أصحابه ، وحمل معه كيسا فيه ألف قرش ، ولـــا وصل هو وأصحابه عند باب الحصن نادوا (كومبو) فأشرف عليهم من كوة بالحصن قائلا : من أنتم ؟ فقال له بدر أنا مولاك بدر بن سيف بن الإمام أحمد ، افتح الباب لأدخل معك لقصد المفاهمة ، وهذا لك ألف قرش مقدما (فأدلى كومبو) له قفيزا

ويحذف أهل عمان نقطة الزاى فيجعلونها راء مهملة ، فلما وصلت الدراهم الى (كومبو) قال لبدر ارجع الى ورائك وإلا أطلقت عليك الرصاص ، ثم رماهم بحجر فرجعوا بالخيبة .

فلما رجعوا الى ماجد بن خلفان ، قال لهم : إياكم والمبيت فى مسقط ، فرجع بدر وأصحابه من ليلتهم الى حبرى ، ثم توجه منها لنجد ، وكان مر على عجمان عند صديقه راشد بن حميد النعيمى ، ثم توجه الى الدرعية فألقى ما عنده الى الأمير عبد العزيز إمام الدرعية فتحالف معه .

ولما رجع سلطان من الحج أخبر عن شأن بدر وعمله قيد ماجد بن خلفان ، وسأل عن الخادم (كومبو) ماذا صنع ، فأخبر أنه قبض الدراهم وطرد بدر وصحبه ، وقبض على الصرملة براكا وقيده فى الحصن الغربى ، وقطع عنه الطعام والشراب حتى مات ، ثم أمر به فألقى فى البحر ، وأما بدر فقد اتصل بالدرعية فاهتم من أجله كثيرا لأن الخطر لابد أن يكون هاما جدا ، وليته مكث فى حبرى أو فى بعض بلاد عمان فإن مسيره الى الدرعية فيه الرزية من قبل أهل الغرب وكان فى العرف العام بعمان إطلاق لفظ الغرب على أهل نجد ومن إليهم ، وبذلك كانت لأهل الغرب طرق لغزو عمان مهدها الأمراء المتنافسون على الملك الذين لا يراعون إلا نفس الرئاسة ، على أى حالة كانت ، وبذلك انجر حبلهم حتى امتد الى عمان بواسطة القبائل والزعماء الذين أشرنا إليهم ، ومن جر العدو على وطنه ضايقه فى سكنه وأذله فى أهله وتسلط عليه ، ومن ذلك أغار بدو البريمى والظاهرة على مسارح الباطنة من السويق وحواليها ، وعندهم من طغام بدو عمان أخلاط ، وكان سلطان فى بركا ، فلما وصله الخبر ونمى إليه الصريخ أمر على محمد بن حمد الوهيبى ومن معه من آل وهيبة ، وكانوا المقربين معه .

فخرج الركب فى طلب الغزاة المشار إليهم ، وها قد دخلوا وادى الحيملى فتلاحقوا بالوادى المـذكور ، ولكن الغزاة تمكنوا من قبض الطريق ، وجاء آل وهيبـة يسـيرون فى بطن الوادى ، فأطلق عليهم الرصاص من رءوس الجبال ، فانقتل الشيخ الوهيبى وأكثر رجاله ، ولم يسلم منهم إلا القليل ، فلما وصل خبرهم الى سلطان تأثر منه وضاق به صدره وعيل وصبره وخاف ما هو أكبر منه ، فانتقل من بركا الى الفليج واستدعى والى نخل مهنا بن محمـد بن سليمان اليعربى ، وتفاهم معه واتفقا على طلب أهل عمان لهذا الصدد المهم ، فإن لـه ما بعده من أمر القوم ولا تدرى النهاية ولا يعرف المصير .

سلطان بن الإمام وأهل عمان يعقد مؤتمرا فى بركا

دعا سلطان بن الإمام بقبائل عمان الداخلية الى جعلان ، وعين لهم الاجتماع ببركا ، فجاء الكثير منهم وكذلك أعيان آل بوسعيد أولاد عمه وإخوته أولاد الإمام أحمد بن سعيد ، وهم أحمد بن سعيد بن الإمام ، وعزان بن قيس بن الإمام ، وطلب بن الإمام ، وأخوه محمد بن الإمام ، وسيف بن على بن محمد والمشايخ ومحمد بن خلفان بن محمد ، وأخوه ماجد بن خلفان بن محمد ، والشيخ ماجد بن سعيد البروانى ، ووالى نخل المقدم الذكر مهنا بن محمد بن سليمان اليعربى ، والشيخ حجى ابن سعيد الحسنى وسالم بن على العلوى ، والشيخ عيسى بن صالح الحارثى ، وخادم بن محمد الهاشمى ، وكان المجتمع بحصن بركا ، ولما استقر بهم الجلوس ، افتتح سلطان الكلام ، وأخبر الحاضرين عن قتل أصحابه ، وأنه متأثر بقتلهم حتى قال فى نقل ابن رزيق : فبقيت ككف بلا أصابع ، وهذه الحرب متفاقمة علينا من كل مكان ، ومن كان لى محبا صار لى عدوا ، ومن زعم أنه لنا صديق فهو لنا غير نافع فى حزات الضيق .

وهو يشير بذلك الى أناس من أهل عمان . قال : فما رأيكم فى هذا الشأن ؟ فسكت القوم وبقوا كل طائفة تنتظر جواب الأخرى ، وحتى تكلم الشيخ سيف بن على محمد البوسعيدى ، وها نحن نحررها بفحواها لا بنقل ابن رزيق .

قال : إن أهل عمان باقون على ولائهم ثابتون على عهدهم ، لهم شدة وصبر على الحرب ، لا يرهبون الأعداء ولا يخافون ، وما محمد بن حمد الوهيبى ، إلا واحد من كثير وكذلك أصحابه ، وفى عمان من هم

أشد لقتال الأعداء فمن ذكرت ، وأثبت فى الأزمات • فما نحن بجازعين من الوهابية وغيرهم من الأعداء فإن قلوبنا التى نعصى بها الأعداء فى صدورنا ، والسيوف التى نضربهم بها على أكتافنا ، وما خضاب الرجال إلا الدم ، فطعم الحرب لنا كالمن والسلوى ولا خير فى مقال لا تزكيه أفعال ، وليعلم النجديون والأضداد المجاهرون أن منقلب ينقلبون •

ثم سكت فتكلم بعده آل بوسعيد مؤيدين لمقاله ، وقال أكابر عمان والشرقية وبدية وجعلان : ما أحلى لنا حرب الطاغين •• والباغين ، ففى أعيننا كثيرهم قليل وفى قلوبنا عزيزهم ذليل ، يأبى العزيز أن يعيش ذليلا ، فبينما هم كـذلك فى هـذا المجال وتداول المقام ، إذ ورد على سلطان رسول من قيس بن الإمام يحمل كتابا منه يقول فيه : إن الحريق أحد خدام عبد العزيز وصل ، وأنه ضرب معسكره بالعوهى بفتح العين المهملة وسكون الواو وكسر الهاء بعدهـا ياء مثناة من تحت من أعمال صحار ، ويسأل أخاه سلطانا النجدة قبل استفحال الخطب ، ويستحثه بالوصول إليه ، فليرجع كل واحد منكم الى بلده وقومه ، وليأتنى بمـا عنده ومن هم فى طاعته من الرجال ، وجعل موعد اللقاء الخابورة دون صحار ، وافترقوا على هذا ومضى سلطان معه محمد بن خلفان وأخوه ماجد الى مسقط للاستعداد المستعجل ، وحالا أمر سلطان بشحن العدة والعتاد وآلـة الحرب فى باخرته الكبرى الفلك من مخلفات الدولـة اليعربية عليها السلام ، وحملها جميع ما تدعو إليه الحاجة من الأمـور الحاجية ، ومضى بحمولته وتوجه سلطان على طريق البر فعسكر بالخابورة لتلقى القوم بهـا •

وجاءت القبائل العمانية تترى من كل صوب : فكان الجيش اثنى عشر ألف رجل ، ولن يفلت جيش هذا عدده بشهادة الرسول عليه الصلاة

والسلام ، ولمـا بلغ الحريق هذا الأمر الذى قام به قيس وسلطان ، لم يتمالك لقلع مخيمه ، بل أشعل النار فيه روعا واستولى عليه الذعر ، فهرب بأسرع ما يمكن ، ولم يتراجع إلا فى البريمى ولم يبق بها عهدا بل سرعان ما ارتحل الى نجد ليلقى مهمته الى سيده ، وزحزح الله شره وصرف بلاءه حالا •

وعند ذلك جاء شيوخ البحرين مذعنين لسلطان خوفا منه حيث بلغهم الحريق وجنده ، خافوا من سلطان أن يرد الكرة عليهم •

وفى هذه الأثناء اصطلح الحال بين سلطان وحميد بن ناصر الغافرى ، ولا شك أن القوة هى التى تمهد طرق السيطرة وتدعم السلطان ، لو أن لى بكم قوة ، وعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، إنى عليه لقوى أمين •

محتـــويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

طبع بالمطبعة الشرقية ومكتبتها - تليفون : ٧٧١٦٩٥٢

ص.ب : ٦٦٨ ـ الرمز البريدي : ١١٣ مسقط
ســــلطنة عُمـــــان

رقم الإيداع : ٢٤١ / ٩٥